دكتور هانز ساكس

فرويد
أستاذي وصديقي

دكتور هانز ساكس

فرويد
أستاذي وصديقي

نقله إلى العربية
سعد توفيق

مراجعة
دكتور عبد الفتاح الديدي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٥

الاخراج الفنى

زهور السلام شاكر



FREUD (from an teching by F. Schmutzer, 1926)

فرويد (صورة بريشة شويتسر ١٩٢٦)

((ملحوظة المؤلف))

التقطت صورة « الخواتم السبعة » الجماعية بواسطة مصور محترف فى برلين عام ١٩٢٠ ، وقد أعد لهذه المناسبة الدكتور ماكس أتينجتون · ولم يتبق فى عالم الاحياء من الذين تمثلهم الصورة غير دكتور ارنست والمؤلف ·

والتقطت صورة « فرويد فى مصيفه » مع كلبيه بواسطة السيد هانز كاسبيروس ، وكان يعيش من قبل فى برلين ويعيش الآن فى لندن ·

والترجمة عن الألمانية ، نثرا وشعرا ، قام بها المؤلف ، الذى كان مغرما دائما بهذا النوع من العمل ، كما ذكر فى صفحات هذا الكتاب ·

هـ · س

مقدمة المترجم

مازالت العبقرية أمل الانسانية الأوحد فى أن تستطيع يوما أن تخرج بها من خضم مشكلاتها ، وحروبها وأزماتها ومصائبها وأوجاعها ، وتقودها فى أمان الى مرفأ الحياة السعيدة الموفورة والى الخلاص النهائى • فقد لوحظ أنه اذ يظهر العباقرة يكون لامكانياتهم الخارقة وجهودهم العملاقة الخلاقة من التأثير فى حياة الناس ما لتأثير العناصر الطبيعية كالمعادن والماء •

ومن هنا جاء اعتناء الباحثين فى أسرار السلوك الانسانى واهتمام الدارسين للطبائع الانسانية ، فى كل زمان ومكان باجتلاء سيرة العبقرى وتتبع آثاره فى حياته الخاصة والعامة على السواء •• عساهم بمداومة العناية وموالاة الجهود وتضافرها يتمكنون من الوصول الى حل لغز العبقرية ويوفقون فى الظفر بمفتاح هذا الكنز الأحوى •

لكن ماذا كان حاصل هذه الجهود المبذولة بصدق واخلاص ، على مدى القرون والأجيال ؟

لا شىء تقريبا • فحتى الآن يبدو أن هذا اللغز سيظل ، مثل كل ما هو انسانى ، أبديا • فلا يكون تفسير العبقرية بالرجوع الى دراسات البيئة والوراثة ولا بالركون الى الحلول التى تقدمها دراسات علم النفس والتحليل النفسى • وهما المرجعان المعروفان تقريبا •

فلم يبق الا أن نقرب من العبقرية فى خشوع العابدين واعجاب الوامقين ، ونسجل أسماءنا متواضعين ، فى أعظم المدارس أثرا وأبلغها تأثيرا : « مدرسة عبادة العبقرية » •

افليست العبقرية هى التى زودت العالم بكل قيمة روحية ؟ وماذا كان يكون حال الدنيا بدون أنبيائها ، وأبطالها ، وقديسيها ، وشعرائها ، ومصلحيها ؟

شجرة بلا ثمار • فالعبقرية أجمل ثمرة بل الثمرة الوحيدة التى استطاعت الانسانية أن تقدمها حتى الآن • ولولا هذه الثمرة لما كانت الحياة على هذه الأرض بالأمر الذى يسهل احتماله •

ومن هنا كانت العبقرية وعبادة العبقرية بعيدة الأثر فى تنشئة الأفراد وتكوين شخصياتهم والرقى بالمجتمعات ، بل حفظ النوع البشرى بأسره اذ أنه لولا هذا الملح العجيب السحار لتحلل المجتمع وذاب •

فما ضرنا لو جعلناها المدرسة الوحيدة وحققنا بذلك تلك الصيحة الممتدة من روسو حتى كارليل وبرجسون ؟

لكن العبقرى ، قبل كل شىء من البشر • فكيف نحصل على صورة واضحة الملامح انسانية السمات للمعبود ؟

فالعبادة قد تميل بالعابد الى أن يسلب معبوده انسانيته • فيحيط ميلاده وحياته ، وموته ، بغير المألوف المعهود فى حياة البشر • ويجعل منه أسطورة أو آلها أو شبه آله • وهذا ما فعله القدماء حتى نهاية العصور الوسطى تقريبا •

وموضع الخطورة فى هذا هو أنه يبعد المسافة بيننا وبينه ، ويضيع الألفة اللازمة لكل عبادة صادقة • فيجعل التمثل والمحاكاة ، والتوحد أمورا شبه مستحيلة •

وهو اذ يقطع الصلة بين عالم العبقرى والعاديين يوجد هوة توحى دائما بأن لا سبيل الى عبورها • ولا تعد العبقرية نداء ودعوة مثالية • فتفقد آثرها التربوى المنشىء • وهو كل شىء تقريبا •

بل قد يحدث ما هو أشد خطورة فتغدو العبقرية « وثناء » يقف حائلا دون الحرية والابداع • ولا يرتضى غير الاتباع والتقليد وتقديم القرابين • فتأتى عبادة العبقرية بعكس ما كان يمكن أن يستفاد منها من جليل النفع وعظيم الأثر •

بيد أن « النظرة الى العبقرى باعتباره انسانا عاديا » العبرى لها أيضا جانبها الخطر • فهى قد تميل الى ترجيح آثر البيئة أو المجتمع أو تبديها نتاجا لقدر تاريخى غامض

بحيث تغدو العبقرية ظلا وخلفية فحسب • وقد تميل الى تغليب تأثير النزعات السفلى ، فتبدو أشبه بزهرة نبتت فى الأوحال • وقد تجعل منها ظاهرة حتمية لبعض تشوهات جسدية لا تتوافر فى العاديين فتلوح مرضا أو شوها تجدر عدم الاصابة به • وقد ساد هذا الميل فى العصر الحديث : عصر التكنولوجيا والمادية العمياء •

بيد أنه فى هذا العصر الحديث أيضا ، قام كثيرون ، محتذين حذو بلوتارخ ، من أمثال كارليل وأميل لودفيج وزفايج وعباس العقاد بعبء تقديم صور أقرب ما تكون الى الصدق عن العبقرية • الا أننا نحس بعد قراءة أعمالهم اننا قد تعرفنا على عبقريتهم هم أكثر مما تعرفنا على عبقرية الذين يقدمونهم •

ومن هنا ليس أمامنا فيما أعتقد غير سبيل واحد : ملاحظة العبقرية عن قرب وتسجيل مظاهرها فى أفعالها وردود أفعالها أولا بأول •

ولكن حتى هذا السبيل الوحيد نادر للغاية •

فالعبقرية منكودة الحظ ، منكورة الفضل ، مجحودة الحق أثناء حياتها ، فلا يعرف بها غير قلة نادرة من أصدق الأصدقاء وأخلص الخلصاء • وهذه القلة يندر من بينها من تحدوه الرغبة الى أن يجشم نفسه ، يوما بعد يوم ، عناء تسجيل ، حياتها الخاصة والعامة •

ولو فعل فماذا تراه قادرا على أن يقدم لنا ؟

لا شيء غير وصف أمين لحياة العبقرى اليومية •

لكنه أثمن وأعظم قيمة وأبعد أثرا من كل شيء • من عشرات الدراسات التى تعمل بعد جيل أو جيلين من حياة العبقرى ، لأنه أقربها الى الحقيقة والصدق• ولأنه قائم على الرجل مباشرة • وليس على عمله الذى هو منه بمثابة البعض من الكل • ونراه وهو يخلق عمله فنحسن فهم كليهما اذ ان ثمة أشياء لا يستطيع العبقرى أن يودعها أعماله •

ان دراسة عمل العظيم قد تعلمنا مهنة وقد تزيد قدراتنا • ولكن الاتصال المباشر بالعظيم ومشاهدته يوما بيوم عن قرب ، تكسبنا خلقا ، وتخلع علينا شخصية • وفى كلمة واحدة : نتربى •

ولا جدال فى فرويد كان صنوا لأولئك الأعاظم من الرجال – الذين لا تجود بهم الأجيال الا على شح وإقلال – واحد من أولئك الالهيين الودعاء الذين ترسلهم السماء بين حين وحين ، لتذكر البشر بعالمهم المفقود

الموعود ، بأن تزيد من قدرتهم على التحرر من اســـر شراك هذا العالم الساقط • واحد يدل على أن روح برومثيوس لم تمت عبر الزمان •

فقد استطاع بجهد لا محدود اختص به صــفوة الرجـــال وحدهم ، وبشوق لحوح تذوب فى تطلعه صـــوب المجهول الأبعـــاد والحـــدود ، وباحداس العبقرية اللماحة الكاشفة أن يسبر الكثير من أغوار الذهن البشــرى ويزود الانسانية بقيم روحية جديدة • ويضـــع بين أيديها أداة تحسن بها فهم نفسها • فلم يعد الانســـان بعد فرويد مثلما كان قبله • وما حاولت القرون عبثا ادراكه ، قد أدركه فى ضوء ذهنه الساطع •

ولا شـــك فى أنه كان أعظم من عمله بكثير • فعمل العبقرى دائما يعض روحه • أى يعض ظلال تلقيها عبقريته الخلاقة وشخصيته العملاقة • وانه كان لديه المزيد ليقوله قبل أن يختم الموت الى الأبد شفتيه • فالفكر له قدمى أخيل أما التنفيذ فيتحرك كسلحفاة •

وهو كأى برومثيوس قد تحمل أثناء حياته •• قدره المعذب •

وبعدها أيضا ••

فبعدما يقضى العبقرى يصبح عذابه أبديا • ذلك لأن حياته وعمله يغدوان عرضة لكافة أنواع الافتراءات التى ترجع الى ســـيادة العقلية السوقية • فلا شك أن نيتشه قد تعذب بعد وفاته عندما ارتكبت كل حقارة باسمه على أيدى النازيين أشـــد مما تعذب أثناء حياته الحافلة بشتى ضروب العذاب ربما لم تكن الجوارح التى قضت الآلهة بأن تظل تنهش الى الأبد كبد مانح المعرفة الا رمزا لما تفعله الغوغاء بالعبقرى وعمله •

ومن هنا تتضح قيمة التسجيل الأمين لحياة العبقرى اليومية • ليس لما تتجه لنا من فرص المتعة بشرارات الذكاء واشراقات الحكمة ، اذ أنه بمقدورنا أن نجدها فى عمله على نحو أفضل • وأجمل • بل لـــما تبيحه لنا من فرص التعرف معرفة أوثق على شخصية ندين لها باحترام لا تنقص منه الأيام • فبعد أن نسمعه وهو يحدثنا بصوته الطبيعى وبعد أن نشهده فى طرقه الخاصة وهو يتصرف ازاء أحداث حياته اليومية تصبح أفكاره كلها وأعماله كلها دفاقة بالواقع نابضة بالحياة • فالرجل وعمله يلقى كل منهما ظله على الآخر •

وفرويد واحد من قليلين من العباقرة الذين أتيح لهم هذا الحظ : حظ وجود تابع أمين وعابد مخلص ينقل عنه للاجيال التالية ما كانت تسمعه منه يوميا اذناه وتتطالعه منه عيناه •

فقد عاشر هانز ساكس استاذه وصديقه فرويد ثلاثين عاما ، أى منذ البداية الأولى لعلمه الجديد حتى اخترمه الموت ، معاشرة التابع ، والمساعد ، والزائر ، والصديق ..

لذا فالكتاب وثيقة هامة عن حياة المعلم الأول للتحليل النفسي ونضاله الذى لم يعرف لينا ولا هوادة من أجل علمه : ذلك الطاغية الذى لم يكن الرجل يستطيع العيش دون أن يقدم له فى كل لحظة قربانا من روحه وجسده .

وهو من جهة أخرى وثيقة أدبية ضاع — كما هو الحال فى كل ترجمة — قدر من حلاوتها ورونقها . فمؤلفه أديب اشتغل بالأدب فترة من الوقت ثم قاده الأدب ، مثلما قاد كثيرين غيره الى التحليل النفسى . ويخيل لى أن الأدب بمعنى من معانيه وخاصة الأعمال العظيمة منه ضرب من التحليل النفسى . فكلاهما معينه النفس البشرية ، هذه الهاوية التى لا تقل أغوارها عن أغوار البحر عمقا ومرارة ، وثراء . وقد ألقى هذا الميل ، فيما بعد ظله على عمله بالتحليل النفسى ، وجعله يكرس جانبا من جهده العلمى لخدمة الأدب والفن ، فله فى التحليل النفسى للفن ، كتابه الرائع « اللا شعور الابداع » الذى قمنا بترجمته . ونرجو ان يرى النور عن قريب .

وهو من جهة ثالثة وثيقة رائعة من وثائق التحليل النفسى فهو ، كواحد من ائمة المشتغلين بالتحليل النفسى لم يكتف بان يقدم المادة التى يحوزها وحده عن أستاذه وصديقه العظيم ، بل أعمل فيها عمله وسلط عليها فى الكثير من المواضع أضواءه . فهو حين يتحدث عن « فيينا » المدينة التى شهدت مولد فرويد ومولد عمله نراه كأدق ما يكون العالم ، أعنى حائزا لتلك الصفة التى تبينها فى أستاذه وصديقه الا ، وهى القدرة على استخلاص أعظم النتائج من ملاحظة أبسط الظواهر .

والكتاب أخيرا يمكن أن يعتبر تاريخا « باطنا » لحركة التحليل النفسى قام به عالم شاهد كل شىء عن قرب ومن الداخل . فتتبدى لنا عبر صفحات الكتاب حياة حركة علمية ، لا تقل . — بنضال قائدها وجهود حوارييه وكيد خصومه ومهاجميه ، فتونا عن تاريخ أى نضال وطنى أو حركة عقائدية .

واذا لم يكن هناك ما يترك فى النفس انطباعا أشد عمقا من نتاج حياة كاملة ، ويوحد بينهم فى عاطفة قوية ، فان هذه الحياة نفسها لها بالتالى نفس الأثر .

سعد توفيق
القاهرة ١٩٦٨

الفصـــــل الأول

مــاذا ولمــاذا

سيتحدث هذا الكتاب عن الرجل الذى وضع أسس التحليل النفسى ، والذى عرفته معرفة وثيقة منذ المراحل الأولى لعلمه الجديد حتى ختم الموت حياته . وما قصدت عند وضع هذا الكتاب أن يكون ترجمة كاملة وافية لحياته . اذ يلزم لعمل كهذا أشياء كثيرة ليست فى متناول يدى . من بينها الرغبة فى القيام به . ومن ثم فان هذا الكتاب لن يعنى بعرض علمه ، كما لن يعنى أولا وخصوصا بفرويد العالم بل بفرويد أســـتاذى وصديقى .

ويمكن اعتباره شاملا لقطعة من سيرتى الذاتية بمعنى من المعانى فهو يتعلق بشخصية الرجل الذى شغل ولا يزال يشغل أهم وأكبـر جزء من حياتى . أما ماعدا ذلك من بقية حياتى فليس بذى أهمية فى نظر الناس عامة مهما بلغت قيمته عندى . كانت لحظة القدر بالنســبة لى ، عندما فتحت صفحات كتابه «تفسير الاحلام»(١) للمرة الأولى . مثلها مثل الالتقاء بالمرأة المقدرة للانسان ولكن بنتائج أفضـل ولا شــك . كنت حينذاك يافعا « كشابا عليه أن يدرس القانون . ولكنه لم يكن يخضع حياته لذاك الغرض . وكانت حالى نمطا شائعا بين أبنــاء الطبقة المتوسطة بفيينا قرب نهاية القرن .

وما كدت أنتهى من قراءة الكتاب حتى تبينت انى قد اهتديت الى الشىء الوحيد الذى يستحق أن أعيش من أجله ، ثم اكتشفت بعد سنين عديدة أنه الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أعيش به .

---

(١) يعتبر كتاب « تفسير الاحلام » الذى نشره فرويد عام ١٩٠٠ حجر الزاوية فى مؤلفات فرويد ، وفيه اماط اللثام عن لغز الأحلام .

« المترجم ».

كان فرويد ، عندما التقيت به شخصيا الحدث الأكبر والمغامرة الأخطر فى حياتى ، فعندما أتطلع الى ماضى الآن أتبين أن العلامات المميزة هى المراحل المختلفة لعلاقاتنا المتبادلة واستجاباتى ازاء اكتشافاته الجديدة وأفكاره المستحدثة · وكل ما عداه مما جرى لى فى حياتى مهما كانت درجة انفعالى به ، لم يتبق لى منه غير ذكراه كأنه بعض دمى أو بعض عظامى ، وان بدا غريبا كأننى خبرته على سطح كوكب آخر · ولكن للأشياء المتعلقة بفرويد طابع مختلف · فهى منى الآن مثلما كانت من زمان مضى أعنى انها أشد خبراتى نبضا بالحياة ·

وليس معنى اعتبارى هذا الكتاب سيرتى الذاتية أننى سوف أخطف منه الأضواء · بل على النقيض ، لقد طرحت منذ أمد بعيد كارها فكرة الكتابة عن فرويد الا بطريقة يستبعد منها كل ما هو شخصى استبعادا تاما · فلست بالذى يؤثر أن يدرج فى عداد أولئك الأقزام الذين يزهون افتخارا بصداقتهم لعملاق · وتزداد هذه الصداقة فى أغلب الأحيان عراقة بعد أن يخترم الموت العملاق · ففى ذات يوم (حدث ذلك فعلا ذات يوم) تلفت حولى فتبينت أنه لم يتبق على قيد الحياة غير قلة من أولئك الذين كانوا من تلاميذه المقربين وعاشروه عديد السنين وكانت لهم بشخصيته أوثق الصلات · وعندئذ ادركت مسئوليتى وقبلتها ·

وثمة شخصية أخرى اتيحت لها فرص للملاحظة أفضل منى وكانت علاقتها بفرويد أوثق وأمتن وأعنى بها ابنته الصغيرة « أنا » · وانى لعلى يقين من أنها تشعر بعين المسئولية اذ تؤدى ما يمليه عليها واجبها الآن فى لندن من العناية بنفوس وأجسام الأطفال الذين أصابتهم أهوال الحرب بأفدح الأضرار ، مكرسة فى سبيلهم كل وقتها وطاقتها ، وستتحمل عبء هذه المسئولية فى الوقت المناسب · لقد كانت أبان توطد علاقتى بفرويد (١٩٠٩ ــ ١٩١٨) من الغضاضة بحيث لم تمكنها المساهمة فى الدور الذى ألقى على عاتقها فيما استقبلت من أيام · لكن لابد من اشتراكها اذا ما انعقدت النيات على تأريخ سيرة فرويد بطريقة كاملة شاملة · فهى تملك كل ما يمكن الاحتياج اليه فى هذا الصدد أعنى : المادة ، والوثائق ، والطاقة ، والمقدرة ·

ليس كتابى هذا قائما على البحث والدراسة · فهو لا يستهدف تناول منظورات تاريخية · بل يروى ما حدث أمام عينى ، ويصفه بطريقة كيفية تأثيره على ذكراتى · سيخبركم هذا الكتاب بما قاله فرويد ، ومتى وكيف · واذا كنت سأرسل الحديث فى صيغة المتكلم فلأن هذه الطريقة

تقزيني من رغبتي في الظهور بمظهر المسجل الأمين ، لا الممثل المكلف بأداء دور في مشهد • فلست راغبا في الحيدة عن طريقي لأتحدث عن أفعالي وأقوالي • وليس هذا بالأمر العسير ما دام الظل الذي تلقيه شخصيته يفوق ظلي فيحجبني تماما وينأى بي عن الأنظار •

لقد ذكرت أني بعد أن تبينت مسئوليتي تحركت للكتابة • أجل ، هذا واجب الذين لم يخترمهم الموت بعد من الذين خابروا رجلا عظيما وخبروا الصفات الوثيقة بشخصه، حيال الأجيال القادمة • وأين هذا الذي لا يرغب في نيل ما يوليه العالم بأسـره من تقدير لأولئك الذين تجشموا عناء تسجيل أحاديث المائدة للوثر يوما تلو يوم أو لاكرمان في أحاديثه مع جوته؟ و لما تتيحه للناس من فرص المتعة بشرارات الذكاء واشـراقات الحكمة، فبمقدرونا أن نجدها فيأعمالهم على نحوأفضل وأجمل، بل لما تبيحه لنا من فرص التعرف معرفة أوثق على شخصية ندين لها باحترام لا تنقص منه الأيام • اذ أننا بعد أن سمعناهم يحدثوننا بأصـواتهم الطبيعية وشهدناهم في طرقهم الخاصة يتصرفون ازاء أحداث الحياة اليومية تصبح أفكارهم كلها وأعمالهم جميعها خفاقة بالحياة مليئة بمشـاهد الواقع الجديدة • فالرجل وعمله يلقى كل منهما ضوءا على الآخر* •

هذا الاهتمام الذي يتحرك ابتداء من أعمال المؤلف ، يثيره أولئك الذين يعالجون المشـاكل الانفعالية كالشـعراء والفنانين ، والأنبياء ، والميتافيزيقيين ، ولكن ليست الحال على هذا المنوال ضرورة بالنسبة الى العلماء • فهم يثيروننا في حدود ما يهمنا من أعمالهم • فاذا أغلقوا خلفهم أبواب معاملهم أو مكتباتهم تلاشى اهتمامنا بهم في أفعالهم الخارجية على الأقل •ولكن ليس فرويد بالذي يدرج في عدادهم • لأن الرجل الذي جال في مجاهل العقل ، واكتشف ينابيع الحب الخفية ، والرغبة والوجدان يستحيل أن لا يكون شخصية مشوقة ــ بل فاتنة • لقد استحال عليه أن يبدو عاديا وأن تزول عنه سمات عمله ، لأن هذا لم يكن في طوقه لحظة واحدة • فهو قد جعل من عقله معملا رئيسيا له ، فصـار تحليله لذاته الذي لا يفتر أساسا لكل كشوفاته التحليلية • ورغم استبعاده لذاته من اعماله فانه لم يستطع تجنب تصـوير حياته الداخلية من حين لآخـر ، وخاصة في « تفسير الأحلام(٢) » ، فأصبحت شخصيته بالنسـبة لقرائه

---

(٢) يشتمل كتاب « تفسير الاحـلام » على قدر ليس بالقليل من احـلام فرويد الخـاصة •

« المترجم »

جامعة بين الوضـــوح والغموض مثلها مثل شخصية أى كاتب عظيم أو شاعر مجيد •

وفضـــل القليل من الكتب التى من هـــذا النوع العاطفى عـــام حتى أننا نأسف على عديد الفرص الذهبية التى ضاعت الى الأبد • وما الذى نشعر به حيال تسجيل من عصر اليزابيث ينقل الينا الأحاديث التى دارت رحاها فى حانة مرميد(٣) (اغلب الظن أنها لا تصلح للطبع) • وكم يكون مغنما لو ظهرت الى النور مذكرات دون فيها صديق من اصدقاء جاليليو أحداث حياته اليومية ، وصفاته الذاتية ، وشذورا من أحاديثه العادية ! انها قصة لا تفتأ تتكرر دوما • فما دام العظيم يسعى حيا بين الناس أو بعد رحيله لا يتبين المحيطون به ضرورة تدوين ما ينبض أمـــام عقولهم بالحيـــاة • اذ يبدو لهم هـــذا العمل معوقا لذكراه اكثر منـــه اثراء لها بالحياة • وتظهر موانع تعترض الحديث صراحة عن المســـائل الذاتية والمشاكل الشخصية •

ويشعر كاتب الذكريات ذو النظر البعيد شعور اليقين أن مشاعر نفر من الأصدقاء الأقدمين سينالها الأذى ان لم يتذرع بقدر كبير من الحرص • فاذا ما سلك هذا المسلك تبين أن ما يصفه لا يستحق عناء الكتابة • كما أن وضع مشاعر الآخرين ومشاعر المرء الخاصة موضـــع الحرج ليس بالأمر المشجع • ومن ثم يفلت الوقت الملائم وتغدو الكتابة فى غير أوانها عندما يزمع ذلك بعد سنوات قليلة •

ولا يستحق كل هذا أن يقال الا اذا افترضنا أن فرويد كان بلا جدال ندا لهؤلاء الأعاظم من الرجال ، وواحدا من أولئك الذين لا يجود بهم كل قرن ، والا يغدو كتاب كهذا عبثا • والآن هناك شـــكوك كثيرة فى ذهنى سأحاول الكشف عنها ومناقشتها ولكن ليس لدى ما أقوله حـــول هذه النقطة الحرجة ولن أعطيها فكرا آخر •

وأول نقص أواجهه هو افتقارى العام للموضوعية ، وهذا ما أعترف به صـــــراحة دون مواربة • فليس من المعقول أن ينتظر منى أن أكون موضوعيا اذ أعالج خير جوانب حياتى وأجدرها بالاعتبار • فأنا لم أفكر

---

(٣) حانة « حورية البحر » وكان يرتادها شكسبير ويخـــالط فيها روادهـــا من البحارة وحثالة القوم •

« المترجم »

قط فى الكتابة عن فرويد كموضوع ولن أشرع فى ذلك الآن · أيعنى هذا الحكم مقدما على ما أزمع الادلاء به بأنه مادة موثوق بها جمعها متحمس عميت عيناه عن الفحص والنقد ؟ أى بوزويل(٤) ، المقدس أقبل لنجدتى ! فأنت لم تر غضاضة فى مصارحة قرائك وكل من أراد أن يسمع (وكثيرون لم يريدوا) بأنك وضعت دكتور صموئيل جونســون موضع الوثن المعبود ، فهل بخع هذا عملك أو شوه أصالته ؟ على العكس تماما ، فجونســـون الذى وصفته أقرب الى الواقع وألصق بالحياة وأقرب الى الحقيقة من جونسون كما تكلم عنه جونسون نفسه كما يظهر فى كتابه Rassela أو كتابه* Rambler فالعبادة فى التقدير تضيف الى الحقيقة أكثر مما تحيف بها ،بشرط أن تبلغ الكمال فى أصالتها · اذن عندئذ يكون ذهن المؤرخ مفعما بموضوعه ويدفع الكلمات منه بدون توقف اندفاع الســيل من قمم الجبال ، لأن ايمانه بعظمة بطله وطيبته وامتيازه يكون من الرسوخ والوثوق بحيث ينأى به عن التفكير في استبعاد خطاياه أو عيوبه ، لأن كل من يشعر مرغما بوجوب الدفاع عن معبوده أو تجميله وتنزيهها مثله الأعلى ليس بالعابد الذى يقف موفور الايمان أمام محراب معبوده ·

ليست الذاتية(**) عين الزيف أو ما شـــاكله كالتسجيل المبتســـر للأحداث أو الســـرد الزمنى المضطرب · كما أن هناك باعثا ذاتيا محضا يعصمنى ويردنى ان أردت عن الصدق حيادا ، ألا ، وهو أن : موضوعى ومعبودى لن يســـمح لى بذلك · فبعض كلماته الســـاخرة القارصـــة ستصك أذنى ، وتجعلنى أسقط معجلا أية محاولة أبذلها للادعاء أو الاخفاء

---

(٤) هولى بوزويل كاتب انجليزى معروف عاش فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد عاشر الكاتب الناقد الانجليزى الشهير دكتور جونسون ، وكتب عنه كتابا رائعـــا يحوى تسجيلا لأحاديثه الخاصـــة ، وخصائصه الذاتية .

(*) يعتبر هذان الكتابان اللذان ألفهما دكتور جونسون من مشاهير الكتـــاب الانجليز ، من خيرة الكتب فى النقد الانجليزى .

(**) الذاتية منهج فى الدراسة والنقد يعتمد على تأثرات الباحث الدارس الخاصة ، وميوله الشخصية ، وانفعالاته الذاتية ، بحيث تكون أحـــكامه صادرة عن نفســه ، معبرة عن موقفه ووجدانه .

والذاتية نقيض الموضوعية التى تعتمد على (الشيء) أو الشــخص الذى تتناوله بالدراسة بما يحوى من صفات وما يظهر لنا منه من خصـــائص بحيث تكون احكامنا آخر الأمر مبنية على الموضـــوع الذى ندرسه ، دون أن يكون لميولنا وتأثراتنا الذاتية أدنى أثر فى هـــذه الأحكام .

« المترجم »

كما أن التزنييف سيغدو حين التحدث عن فرويد أمرا منفرا • « صاع بصاع » ! فالرجل الذى بدد أعذب أواهم البشرية وأزاح الستر عن أقدس ألوان خداع الذات ليس بالذى يصلح موضوعا لجميل الكلمات أو لأفعال التجميل •

وهنا أعلن مقدما أسفى على أنه ليس عندى ايحاءات لابداء عيوب دميمة خفية ضمنت الكتمان • انهم كثيرون أولئك الذين لم يتخلوا لحظة عن أملهم المفضل فى أن يتضح يوما أن الرجل الذى أبدع احساسا تلو احساس ، وكان اسمه محط القيل والقال ، كان يحيا حياة مفعمة بالمغامرات المثيرة مغامرات تندرج فى مجال العشق بطبيعة الحال • لكن خاب ما كانوا يأملون ، ولن يستطيع هذا الكتاب أو أى كتاب آخر يلتزم جانب الصدق أن يحقق لهم ما يرتجون • ومعنى هذا أنه ليس لدى شىء أمنحه غير حفنة من صفات شخصية عميقة فى انسانيتها تصلح لأن توضع فى كتاب يحكى قصة ، أعنى بعض صفات من تلك التى تكسب الوجه حياة يقصر دونها تمثال من الجص • ولم يحدثنا بوزويل أن دكتور جونسون قد ارتكب جريمة قتل أو انه هتك عرضا •

لقد أسلفت القول انى لم « أدرس » أبدا فرويد ولم يخطر بخاطرى لحظة أن أجعل من عقله مادة بحث منظم • فقد اعتبرت هذا « قلة أدب » والحياة تتردد بين شفتيه • ولازلت حتى اليوم أعتبره كذلك •

وان سئلت : « ماذا تعرف عنه ؟ » « أو » ما قيمة البصيرة التى استطعت أن تتطلع اليها ؟ « أجبت مؤيدا بوثائقى : » أعتقد انى استفدت من الفرص التى سنحت لى ، وقد كانت ذات عطاء سخى الى اقصى حد • ودامت علاقاتنا نيف وثلاثين عاما بدأتها عضوا ضمن جمهوره الضئيل العدد ، ثم أصبحت تلميذه ثم أضحيت أحد أتباعه المقربين ، ثم أمسيت زائرا دائم التردداد على بيته ، وصرت مساعده وزميله آخر الأمر • وكان طيلة الوقت أوضح شخصية فى حياتى وأهمها • أيكفى هذا ؟

أعتقد ذلك • اذا لم نخرج من الحسبان عاملا هاما ، الا وهو : ان كل الفرص فى الدنيا لا تمنح غير كتلة ثقيلة الوزن من المادة الخام ، ولو توافرت الرغبة فى الاستفادة منها الى اقصى درجة • وليس علماء النفس المسلحون بعلمهم خيرا من عامة الناس عندما تحدوهم الارادة الى فهم عقل مبدع تمارس عملها فيه عوامل غير عادية مستهدفة نتائج مدهشة • فأمثال هذه العقول تتضمن شيئا لا تسبره الافهام • أعنى انها تحوز

موهبة هي هبة من الطبيعة وغريزة خفية المصادر والأصول • وقد حازها فرويد في أقصى درجاتها • فقد كان سيكلوجيا يدرك الحقيقة « بالحدس » حتى قبل أن يخطو أولى خطواته على درب التحليل النفسي بوقت طويل(*) • فليس « تاريخ الحالات المرضية » التي سجلها فرويد مجرد مجموعات مكومة من « الدوافع » « والعقد » و « الكوابت » تماثل النماذج التشريحية اذ تبدو في مظهرها من العضلات والعظام • فالحالات الفردية تطبع نفسها على عقولنا كأنها شخصيات نابضة بالحياة • ويبدو اننا نحن الذين نبرز وجوهها وتعبيراتها الفردية • فهي نتيجة لذلك تسترعي انتباهنا بأساليبها وعاداتها وأفراحها واتراحها ، بطرقها في الحب والبغض كأنها شخصيات أبدعها فنان عظيم(*) • وهذه العلاقة الوثيقة بين الفنان والعالم ليست أمرا مثيرا للدهشة أو شيئا عديم النظر •• فابداع المؤلف في الأصل لشخصياته الدرامية واعادة ابداعها بواسطة العلم في صورة الأشخاص الأحياء ينبعان أساسا من نفس المعين • وينتج عن هذا ان السيكلوجي الكامل أو المؤرخ لسير الأشخاص ينبغي ألا يكون عالما فحسب بل فنانا كذلك وليس فنانا تافها ، لا يفضل عالما يستغلق عليه فهم كتاب مدرسي في علم النفس •

(★) يقصد ان العبقرية لغز لا يمكن حله ، مهما حاولنا تتبعها الى مصادرها ومنابعها الاولى ، ومهما تدرعنا في سبيل هذه الغاية ، بوسائل وطرق في البحث والدراسة . وحتى علم النفس لا يفضل في ذلك غيره من الوسائل . ان كل ما يستطيعه هو ان يكشف لنا عن بعض مظاهرها وخصائصها ، كما فعل فرويد نفسه في دراسته من « ليوناردو » .

« المترجم »

(★) في هذه الفقرة ايضاح لعبقرية الفنان الخالقة . فالفنان يخلق نماذجه بنفسه ، فهو لا يصور الاشخاص كما يبدون في الواقع بل يعيد خلق الاشخاص . فهو عندما يتناول من الواقع شخصية من الشخصيات ، يظهر ما خفي وكمن من نفسيتها ، ويوضحها ويحللها .

« المترجم »

وعندما يتناول عالم مثل فرويد شخصية من الشخصيات ، ولتكن « ليوناردو » مثلا ، فانه يفعل بها مثلما يفعل الفنان . فشخصية ليوناردو في واقع الحياة ليست من الوضوح والعمق النفسي كما صورها فرويد في كتابه المعروف عنه . وهو كان يفعل نفس الشيء مع كل شخصية تأتيه للتحليل ، فيصل ما بين الشذرات النفسية المتقطعة التي لا التئام بينها ولا انسجام ، ويبحث للعلة عن معلول ، ويوضح ويفسر ، حتى تكتسب الشخصية في النهاية العمق والابعاد النفسية الملتئمة ، وتلقى عبقريته هنا وهناك ساطع الضوء ، فاذا كل ما كان غامضا ، ومستورا ، ولا معنى له ، وأجزاء ممزقة متنافرة ، قد أضحى كلا ملتئم الأبعاض واضح السمات ، مفهوم البواعث والعلات .

« المترجم »

ان اظهار فرويد دونما زيف اثناء القيام برسم صورته السيكلوجية يبدو أمرا عسيرا بالنسبة لتابعه · مهما يكن من شيء فانى سأستجمع ذكرياتى عن سماته الشخصية الجوهرية ، وأنظم ما وسعنى الجهد ماقاله وما فعله فى كل ظرف من الظروف والمواقف ، كمعلم وككاتب ، وكمكتشف وكمناضل ، وكزوج وكوالد ، ســواء كان بين المقربين منه أو الغرباء عنه · وعلى هذا النحو ستنتج صــورة واضحة المعالم والســمات قد يتخللها ــ ان رضيت الآلهة ــ نفس من حياة يجعلها تلقى فى عيون الناس قبولا ، فاذا لم يأت الأمر كذلك ، فانها ستصبح كوما أصم ينتظر تنقيب المنقبين عن أحداث التاريخ فيما سيقبل من سنين ! مهما يكن الأمر ، فانى على يقين من أن المادة التى أحمل مفتاحها تستأهل الصون · وسأستخدمها بطريقة من الطرق ·

هل أنا الآن أكثر استقلالا ، أعنى أقل خضـــوعا لتأثيره الآن بعد سنين عديدة من رحيله ، مما كنت فى اثناء حياته ؟ هذا ما لا أظنه ولا أريده ، ولو أعاننى ذلك على تحقيق غرضى وان كنت اشك فى ذلك · لقد اقمت بعض قواعد تحدد ســلوكى ازاءه ، بمجرد ان بدأت أعتبر نفسى تلميذه (بمعنى شخصى خاص) · وهى تقدم فكرة واضحة عن مدى استقلالى الذى لم يزدد اتســاعا على مدى السنين · لقد قررت أن أتمسك بالموقف العلمى ازاء المســـــائل العلمية فلا أرتضى قبول شىء تسليما ، لكن على تحرر فى الأفق ، فاقف من آرائه موقفا متعاطفا مهما بدت للنظرة الأولى مثيرة للدهشة والغرابة · واعتقادى أنى ما أصبحت بعد وقت عميق الاقتناع بأنه ما جانب الصواب أبدا ، بسبب التحيز له · اذ بالنسبة للمادة المكونة لــ « نظرية التحليل النفسى » لا توجد غير بضع نقاط ضئيلة تساورنى حولها الشـــكوك لكن ما من نقطة واحدة أخالفه فيها · لكنى كنت أخالفه بالنســـبة للموضوعات العامة أعنى ما يسمى أمور الدنيا Weltanschauung · فكان يمــازح عادة تفاؤلى الراسخ · وحدث ذات مرة ابان الحرب العالمية الأولى أن جلسنا نأكل معا فى مطعم وكان زوج ابنته ثالثنا فقال : « طعمت اليوم بصحبة أعظم متشائم وأعظم متفائل بفيينا » · لكنه فى التشاؤم لم يكن بالناقم الساخط ·

فاذا وصل الأمر الى حد الأمور العلمية تغير موقفى تغييرا · فهنا كنت أرى الأجدر بى تجنيبه المنازعات والمجادلات بدلا من صـــون نفسى من التضـــحية الذهنية · كنت اذا اختلف رأيى مع رأيه اقرر ذلك أمامه صراحة · وكان يتيح لى المجال فى كل حال لأوضح وجها تنظرى معيرا

اياى عن طيب خاطر أذنا صاغية • لكنها نادرا ما حركت منه ساكنا • فقررت بعد ذلك الاتفاق مع قراراته بلا تحفظ ، والتصرف بالطريقة التى يريدها طارحا كل جدال ، وكان يتضح لى أحيانا صــواب الموقف الذى تنازلت عنه اكراما لخاطره • لكن قيمة الوقت المكتسب بفضـــل تحاشـــى المناقشـــــــات كانت تربو على قيمة ما نتج من خطأ غير مرتقب • لقد تبينت انه كان يصعب عليه امتثال آراء الآخرين بعد أن يكون قد كون رأيه بنفســـه على امعان وامهال • واعتقد أن الاكتشافات الكبرى تتم على هذا المنوال •

أريد أن أكون صادقا دونما ادعاء أو تواضع ، لكن ما دمت أنوى الادلاء بكل شىء سواء كان ســارا أو غير سار ، فليس بمقدورى أن أجنب نفسى اعترافا يكلف حبى لذاتى غرما أضخم مما لو كتمته ، ولكن كتمانه سيخلع على كل شىء هنا غموضا • فانجاز عملى بالطريقة التى أريدها يقتضى منى أن أحدد موقفى بوضوح •

وهذا هو اعترافى : لدى مايدعونى الى الاعتقاد بأن فرويد لم يكن يجد فى بعض تلك الصفات التى تقع من نفسه موقع التقدير الزائد • كان ثمة شــىء مفقود فى الرابطة التى تربط بيننا ــ ذلك الشىء الذى يؤدى الى التوافق التلقائى بين شخصيات من نفس النوع وعلى نفس المســتوى • ولست أعنى به التباين فى مســتوانا الذهنى ، ولا الهوة التى تفصــل العبقرى عن غيره من ذوى العقول العادية • ولم يغب هذا الفارق عن ذهنى أبدا غير انى سلمت به كأمر لابد منه ف العلاقة التى تجمع بين الأستاذ وتلميذه الدائم • ولكنه وجد هذه الصفة التى كنت افتقر اليها فى آخرين من الذين كانوا مثلى معتبرين ضمن أتباعه المقربين : وجدها فى فرنشيزى وابراهام ورانك على وجه التأكيد واليقين (الى أن جاء وقت طرأ فيه تغير كلى على شخصية رانك أودى بكل الروابط بينهما) • ثم وجدها فيما بعد ،بدرجة تزيد عما توافر لأى انســــان آخر ، فى ابنته « أنا » • ولكنه لم يفاتحنى أبدا فى هذا الشأن ، ولو بأقل اشــــارة • فهو ما وضع أبدا واحدا من الأقربين منه ازاء الآخرين موضـــــع المقارنة والتفضيل ، غير أن الشك يســــاورنى فى حقيقة مكانتى لديه • قد يبدو غريبا أن اعتبر نفسى رغم هذا له صديقا واجــزم على يقين أنى كنت حاملا لمودته • ولكن هكذا كانت الحال بلا جدال • كان يدعونى صديقه فى كتاباته المطبوعة والمخطوطة ، العام منها والخاص ، وكان يعبر عن

ثقته فى بمختلف الطرق · ولست بالجدير لأعبر عن وجهة نظره فى هذا التقدير · ولكنى استطيع أن أذكر بعضها · كان فرويد ذا حنان خاص « أو نقطة ضعف » ازاء أولئك الذين جاهدوا وناضلوا فى سبيل التحليل النفسي وهو لايزال فى طور الاضطهاد والعداء · ويعتبر بوجه عام انحرافا عقليا أو جنسيا أو كليهما معا على السواء · أما من أقبل بعد ذلك من الاتباع عندما أضحى التحليل النفسى « موضو » ذائعة أو تجارة رائجة فكان عليهم أن يثبتوا قيمتهم وتفانيهم — وبرغم ذلك ، ظلت الدائرة الداخلية قاصرة على المخضرمين · كان ولائى ذا اعتبار خاص لديه حين كشف المهاجمون عن نواجذهم وابان المنشقون عن تحيزهم · كان يقدره تقديرا جعلنى افضل اعتبار نفسى تلميذه على ما يمنحه الطموح الصغير المقنع بكلمات ضخمة مثل « حرية العلم » (*) من اكتفاء · واعتقد انه كان يقدر فى كفاحى الصادق من أجل الأمانة العلمية تقديرا جعله يغتفر لى بعض السخافات والأعمال الصبيانية التى اقترنت به · كما أن مستوى قراءاتى وان لم يعدل ثقافته سعة ، كان يفوق المستوى العادى فى دائرتنا مما جعل نواحى اهتمامنا تتلاقى فى أغلب الأحيان · فكان يستطيع أن يبادلنى الحديث حول بعض جوانب الفن الغامضة والأدب وتاريخ الأديان ·· الخ · واذا افتقرت معلوماتى الى الانتظام أو الالتئام فإن ذاكرة طيبة وفهما سريعا كانا يعوضان هذا النقص الى حد كبير · « والأعور ملك فى بلد العميان » · على اية حال مادمنا بصدد الحديث عن تلك الأوقات المبكرة من تاريخ التحليل النفسى التى خيم عليها الانعزال وشابها الاعراض والصدود ·

ارجو أن أكون قد أوضحت أنه ما من شىء مما فعلت أو فعل كان من شأنه أن يقف بيننا حائلا · ربما أكون قد أثرته بتصرفاتى فى بعض الأحيان · لكنه كان يعلم انى ما أتيتها عن قصد واع يستهدف الاساءة اليه بلا داع · فكان يهب الغفران دون استياء (أو لم أشعر به على الأقل) · مرة واحدة فقط اقترفت عامدا فعلا لم يقع منه موضع الرضى وعندما انقضى أمره خاطبنى بشأنه فى ثلاث كلمات أو أربع وبصوت

(*) يشير المؤلف هنا الى الانشقاقات التى حدثت فيما بعد بين فرويد واتباعه . فقد انشق ادلر عن فرويد واسس « علم النفس الفردى » ، وكذلك يونج ورانك ، وكانت دعواهم فى انشقاقاتهم ان فرويد بتعصبه الزائد لوجهات نظره فى التحليل النفسى ، يقف عثرة فى سبيل « حرية العلم » . وسنرى ان ساكس يفند هذا الزعم ، فيما بعد ، على صفحات هذا الكتاب .

لايكاد يسمع أشبه بالعتاب الذى يتهامس به الأصـــدقاء وراء الأبواب وقد ظلت هذه الكلمات ، وهى كل ما نالنى منه من الكلمات الحـــادة ، محفورة بقلبى على الدوام · وعندما انقضى أمرها لم يتبق منها أدنى أثر يؤثر على موقفه حيالى : واذا كنت حتى هذه اللحظة عاجزا عن استرجاع ذكراها دون الشعور بالخجل حيالها ، فمما يهون من حدة هذا الشعور ان الأمر لم يتجاوز المرة فى حياة بأكملها ، مرة واحدة خلال خمســـة وثلاثين عاما · فما هى بالشىء الكثير ·

كانت الحلقة المفقودة التى شـعرت بها فى علاقتنا برغم ضـروب الاستحسان والصداقة والائتمان ، من طبيعة ســلبية خالصـــة ، أعنى أنها قامت على أشياء لم أفعلها ولم أكن موضوعا لها · لقد كانت هــذه الحلقة المفقودة هى استجابة فرويد ازاء بعض الصفات التى تصمنى عنه بالتباين ويقدرها ، ان وجـدت فى الآخرين ، تقديرا ملحوظـا · ولست أرغب أن أبين ماهية هذه الصفات · كما لا أريد أن أبدو مثالا للتندم وتحقير الذات ، بل كل ما اريده هو ان لا ابدو فى صورة التلميذ الذى يضطجع على صـدر الاله على حـد تعبير أوسيبيوس (فى خطابه الى بوليكريتس اسقف افسوس) اذ يتحدث عن الرسول يوحنا ·



الحجرة التى كان يزاول فيها فرويد التحليل النفسى فى فيينا
وترى المكتبة التى يستلقى عليها المرضى ، كما نلاحظ أنها زاخرة
بالتحف المصرية القديمة التى كان فرويد مولعا بها كل الولع .

الفصـــل الثـانى

فيينــــا

يتردد من حين لآخـر القول القائل بأن عمل فرويد كان الحاصـل النموذجي لفيينا وجوها الأخلاقى المميز لها· ومن قبل قيل أيضا نفس القول عن موسيقى فرانز شوبير ولكن بقصـد أقل عداء · وتقع الشعارات فى مجال العلم موقع القبول والتسليم مثلما هو حالها فى أى مجال آخـر ما دام الفضول العقلى لدى أى انســان بحاجة الى مكان مهما كان يحط عنده الترحال · ولا يزال هذا الشـعار شائعا برغم أن فرويد قد قوض دعائمه منذ أمد بعيد عندما بين فى كتابه « تاريخ حركة التحليل النفسى » **الخطأ المنطقى فى الربط ربطا سببيا بين اكتشـافه وبين انحـلال الأخلاق الجنسية السـافر فى فيينا · ففرص العثور على تعليل علمى للعصـاب النفسى فى تكثيف الكبت الجنسى يكون أشـد ندرة حيث الكوابت أخف مما هى فى أى مكان آخر** (*) ثم أردف حجته بتلميحات دلل بها على أن السبب الرئيسى لهذا الزعم لا يستهدف النيل من فرويد الفينوى بل من فرويد اليهودى · اذ تكمن محاولة وصمه « عنصريا » خلف التفسـير الظاهر التعسف لنظرياته ذلك التفسير القائل بصدورها عن الحسـية الزائدة التى يلصقها خيال العامة بالدانوب الأزرق(**) وما على شاكلته · ففى تلك الأيام كان العلمـاء الذين يريدون الظهور بمظهـر المتمدينين يتورعون عن الجهر صراحة ومباشرة بما يصرح به الآن على الملأ أجمعين·

(★) يقصد المؤلف انه حيث تنتشر الاباحية الجنسية يقل الدافع الى الكبت الجنسى الذى يؤدى الى ظهور المرض النفسى (العصـاب) ، ومن ثم فتعليل المرض النفسى بالكبت ، وهـذا احدى النقاط الهامة فى التحليل النفسى ، ليس مستمدا من الاباحية الجنسية التى كانت سائدة فى فيينا على أيامه .

« المترجم »

(★★) رقصة فينوية شهيرة تشيع فيها النشوة والخدر الحسى .

وكان هناك الرأى المتعسف المتخلف القائل بأن العقل اليهودى (أو بعبارة أخرى «الشرقى» ، «البحر المتوسط» ، أو الفرنسى) منشغل انشغالا غير عادى بالمسائل ذات الطبيعة الجنسية • وقد صاغ تاكيتوس ، الذى لم يدع فرصة ليعبر عن عظمة الرومان التاريخية وفضيلتهم السماوية ، هذا الرأى بموهبته التى لا تبارى فى الابيجرام قائلا Projectissma ad libidinum (الشعب الذى يتمتع بأكبر قدر من الميل الطبيعى للأمور الشبقية » ، ولهذه الخرافة التى لها من العراقة مثلما لخرافة اليهودى التائه ، ما يجعلها غير قابلة للاندثار • فهى تظهر حيثما تعزل فئة عن بقية الجماعة ، نتيجة لبعض علامات خارجية تسمها بميسم الغرابة • فقد أستخدمت ضد المسيحيين الأوائل وما زالت تساعد فى اذكاء روح العداء فى بعض أجزاء من هذا البلد(*) •

ان الزعم القائل بأن فيينا قد طبعت عمل فرويد بطابعها الأصيل لهو ادعاء أجوف • ويغدو سخيفا عندما يقارن المرء بين السمة الخاصة بالجنسية الفينوية ، أو بالأحرى ما يمكن اعتباره كذلك (لأن الواقع ، أن الجنسية ليس لها غير بعض اللون المحلى) (الشبق الجنسى) أعنى النزق العابث العذب ، المحموم **بأفكار فرويد المؤسسية المرة عن طغيان اللبيدو**(**) •

على أية حال ، لم تكن غير ذات تأثير على شخصيته هذه المدينة التى أتاها صبيا لا يعدو الرابعة ، وعاش فى رحابها ما يقرب من ثمانين عاما وتردد على مدارسها طالبا ثم التقى فيما بعد بالمعلمين الذين فتحوا أمامه آفاق الفكر والبحث • ولكن ليس معنى هذا انه كان قريباً من قلب فيينا أو أن فيينا كانت قريبة من قلبه ، فقد اعلن الخلاف بينهما عن نفسه منذ بداية حياته العلمية وظل قائما حتى نهايتها • بل ظل فرويد ستين

(*) يقصد امريكا وما بها من تمييز عنصرى وكان المؤلف قد هاجر اليها فرارا من النازى •

(**) اللبيدو عند فرويد يقصد به مجموع الغرائز التىتدفع بالكائن الى الحياة. فهو عبارة عن مجموعة من الطاقة أو النشاط النفسى تناقض فى عملها مجموعة أخرى من الطاقة يسميها فرويد غريزة الموت التى تحاول أن تدفع بالكائن الحى فى أقصر طريق صوب الموت •

« المترجم »

عديدة دون أن يلتفت بنو وطنه لوجوده · وليس ذلك أمرا غريبا ، فما نهجوا الا نهج الذين ادعوا انهم أصحاب السلطان والكلمة الأولى فى مجال العلم الذى ابتدعه · وفى مقدمتهم خاصة الذين يشغلون مكانة « انصاف الآلهة » بالجامعة · فقد كان الاتجاه العام ينحو صوب تجاهله وتجاهل عمله ، وان انبعثت من حين لآخر محاولة للهزء به والنيل منه · وعندما كان المرضى يفدون اليه من جميع أنحاء العالم ، لم يكن من بينهم أبناء فيينا غير قلة نادرة · فلم تتأثر فيينا ـ خارج نطاق الدوائر العلمية طبعا ـ الا عندما طبقت شهرة فرويد الآفاق · لكن هذا التغير فى طبيعة الموقف لم يأت الا من جانب واحد فحسب · فقد ظل فرويد على استعلاء لا يبالى بشعبيته التى أتته متأخرة على استحياء وقد حدث بعد أن وضعت الحرب أوزارها أن وردت اليه مذكرة من مكتب الدخل القومى تقول ، « حيث انه من المعروف ان شهرتك تجتذب المرضى الذين يقدرون على دفع أجور عالية من جميع البلاد الأجنبية ·· » فرد عليها بقوته : « اننى أسجل بسرور هذا الاعتراف الرسمى الذى لقيه عملى فى النمسا ·· » ·

كان تأثير فيينا على فرويد موجودا ولا شك ، لكنه كان فى أغلبه سلبيا أعنى اعتراضا لا قبولا لفنونها · ربما يكون قد أثر عليه بعض أفراد عائلته الذين أقاموا بانجلترا ، مثل أخيه من والده الذى كان يفوقه سنا · وأغلب الظن أن هذه المعارضة هى التى جعلته يختار شريكة حياته المستقبلة فتاة ليست من بنات فيينا على الاطلاق (اذ ان هامبورج وفيينا تعتبران بوجه عام متعارضتين فى « جوهما الاجتماعى ») · ومن المؤكد كذلك ان أختها التى كانت ضمن أفراد الأسرة لم تبد أدنى ارتضاء لروح الحياة الفيينوية وأسلوبها · اذ بقيتا بعد انقضاء زهاء خمسين عاما على اقامتهما بفيينا « تتحدثان » اللغة الألمانية النقية غاية النقاء التى اشتهرت بها هامبورج · فكل أبناء فيينا يخلطون قليلا أو كثيرا من اللهجة المحلية فى حديثهم · ولذا كانتا توصفان دائما بأنهما على قدر من الاستعلاء · وكانت ـ لغتهما صعبة الفهم بالنسبة لغير المثقفين فكأنهما تتحدثان لغة أجنبية · وكان سوء التفاهم والناجم عن ذلك يسبب حادثة تثير الضحك بين الحين والحين · لكن موقفهما لم يتغير أبدا · كما ان موقفهما النافر هذا لم يبد فى اللغة فحسب بل فى التحدى الذى يتضح من ضروب السلوك المختلفة · حتى مظهر البيت كان يثير انطباعا بالغرابة ، كأنه جزيرة يسهل ادراكها ، ولكنها جزيرة على أية حال ·

كانت هنـاك ولا شـك فترة «. سـنوات تكوينية » عنـدما كانت الانطباعات الأولى يتم تأليفها أو رفضها وردود الأفعـال يتم تكوينها واستمرت هذه الفترة الى أن أصبح انعزال فرويد حقيقة واقعة · ولم أعرف فرويد ولا فيينا خلال هذه الفترة، لأنى ولدت سنتحصل علىشهادة التخصص فى الطب .M.D لكن فيينا التى عرفتها فى طفولتى كانت لاتزال تشبه فىنواح عدة ظروف شبابه ومراهقته · فالعصر التحررى الـذى بلغ أوجه فى النمسا فيما بين ١٨٦٦ و ١٨٧٨ كان لا يزال قائما أثنـاء صباى ، وان كان آخذا فى الأفول مسـرعا حتى اختفى مع مطلع القرن الجديد · كما أن كلانا قد انحدر من نفس الطبقة الاجتماعية · فكان هذا ولا شك سـببا فى أن تتماثل نشأتنا ونظرتنا الأولى الى العالم المحيط بنا · فكلانا ينتمى الى عائلة يهودية متوسطة الحال ، هاجرت منذ جيل أو جيلين من الأقاليم الى فيينا · فوالداه ووالداى أو أجدادنا قد انحدروا من بوهيميا ومورافيا ، وهو مصدر أثار فى ذلك الحين تعارضا قويا مع المهاجرين اليهود القادمين من « الشرق » الذين عاشوا حياة أكثر عزلة بأحياء اليهود فى غاليسيا وبولندا · اذ كان الغربيون الذين نشأنا بينهم على استعداد للتنازل عن قدر كبير من تقاليدهم الدينية وعقائدهم الأصلية مقابل الأفكار الحديثة والطريقة الأوربية فى الحياة · فكان مثالهم التماثل الكامل دون الذوبان الشامل ·

وهنا يلزمنى أن أقرر أنى أريد كذلك ذكر بضعة أشـياء عن فيينا ما قبل الحرب ، عن مدينة القيصـر العتيقة هذه منتهزا الفرصة ، فقد قرأت وسمعت قدرا طيبا من الآراء الضحلة والسطحية ومن الثناء بقدر الهجاء ، والآن ، بعد مضى خمسة وعشرين عاما من مغادرتى فيينا ظافرا يبدو أننى بلغت مسـافة آمنة يمكننى عنـدها الاستفادة من معلوماتى الخاصة دون أن تنالها خبرتى الشخصية بالحيف · ومادمت لم أعش فى فيينا « ما بعد الحرب(*) » ، بل قصدتها فى زيارات قصيرة فحسب ، فأن ذاكرتى لم تشبها انطباعات متأخرة ، بل تحتفظ بصورة واضحة صافية عن الفترة السابقة دون مقارنات يشوبها التحيز أو يشينها الغضب ، ومن جهة أخرى ، كانت فيينا القديمة هذه رغم كل مثالبها ، مركزا تشع منه تأثيرات ثقافية قوية ، فقد كان لمدرستها الطبية مثلا ، تأثير قوى على تقدم الطب فى الولايات المتحدة ·

(*) يقصد الحرب العالميـة الثانية .

عندما أرتد بنظرى الى الماضى متمليا أسـلوب الحياة بفيينا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أجد عدم الاخلاص العام هو الصفة السائدة مصحوبا بنفاق قليل نسبيا • وكان هذا هو السمة العامة للعصر من جانب ونتيجة لطبيعة الظروف الفينوية النمسـاوية الخاصة من جانب آخر • فقد نقض العصـــر الفيكتورى(*) الأخير ما تميزت به المرحلة المبكرة منه من تزمت وتحيز شديدين • (كانت القارة الأوربية تقلد المثل الذى تقدمه انجلترا قليـلا أو كثيرا) • فهو لم يعـد قادرا بعد على أن يطرح جانبا ويضرب صفحا عن كل مايناقض فكرته المبسطة تبسيطا مثاليا عن العالم • وكانت أسوأ الموانع وأبغضها ضد هذا التطهير الكلى ماسمى بأشد تعبيرا العصر التواء « حقائق الحياة » • وبالتالى كانت آية كلمة صـريحة عن الجنس تقيـد بأضـيق القيود ، مهما كان القصد منهـا جديا أو محصر فى نطاق اللغة الخاصة بالعلم • أما مدى كفاية هذا القيد فى المراحل الاولى من العصـر الفيكتورى فمسـألة عرضة للبحث ، لكن لاشك ان جانبا كبيرا منه قد تحطم عند نهاية الفترة وان ظل قائما بصفة رسمية على الصعيد الاجتماعى • فكان من المحظور مشـددا اسـتعمال كلمات مثل الجنسية(*) المثلية أو الزهرى فى الصحف اليومية • وكان يجب استخدام أغرب أشكال الكنايات حين يتجه الحديث الى هذه الأمور فيكنى عن العاهرة بكلمة (العاملة اليدوية) أى المرأة التى تعمل بيديها • وكان « المكان الذى يأتى منه الأطفال » كناية عن الأمور المحرمة التى يتهامس بها المراهقون على اسـتحياء بمنأى عن الأنظار فى الخفـايا والأركان ، ولكن الكتب التى تتحدى الحياء كانت موجودة فى كل مكان واسماؤها من الشيوع بحيث استرعت انتباهى قبل أن تنقضى طفولتى وأثرت على ذهنى تأثيرا عميقا • وأخذت أقرأها كيفما اتفق كلما تيسـر الأمر • كان اميل زولا شخصية العصر البارزة ، فقد كان تأثيره الذى يسلم به الجيل المعاصر لميزاته الأدبية فحسب ، يفوق الوصف • فى أى « بيت طيب » لم يكن فى الامكان ظهور « نانا » أو « غلطة الأب موريه » ومناقشتهما علنا • فأمثالهما على العموم كانت تخفى كأنها من السموم •

(*) العصر الفيكتورى نسبة الى فيكتوريا ملكة انجلترا . وقد امتد حكمها من ١٨٣٧ الى ١٩٠١ ، وامتاز عصرها بالتزمت الأخلاقى الشديد والرضاء النسبى . والتوسع الاستعمارى جعل الشعوب الاوربية تقلد نمط الحياة الذى كان سائدا فى انجلترا فى ذلك الوقت .

« المترجم »

(*) أن يكون المحب والمحبوب من جنس واحد .

ولا حاجة الى القول ان هذا لم يزدها الا اغراء وانتشارا • ولم تكن مسرحيات ابسن محاطة بمثل هذا التحريج ، فكان يمكن رؤية بعضها فعلا على المسرح • اذ كان هجومه على التقاليد والنفاق الاجتماعى نظريا أكثر منه عمليا ومباشرة ، ولكن جدله الدقيق الذى كان مؤيدا بتكتيك درامى جديد ، جعله رائد ثورة فى الأخلاق • وقد حطم العالم الفيذوى كرافت ايبينج بكتابه « الجنسية المرضية » Psychpathia sexualis حاجز الصمت المفروض على الانحراف الجنسى والأمور المماثلة • وأعطى اسماء لأشياء كانت قد ابعدت من الوجود عنوة عن طريق تجاهلها •

ومن جانب آخر اقضت بعض تعبيرات الحركة الروديكالية — وخاصة الفرع الاشتراكى منها — مضجع أشد عقول الطبقة المتوسطة مناعة • ولقى كتاب ألفه « بيل » زعيم الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى قراء كثيرين جادين • ويحلل فيه بيل الدور الموكل الى المرأة فى المجتمع الحديث ، ويناقش الدعارة كمشكلة اجتماعية تجب معالجتها ولا يمكن بعد السكوت عليها •

هذا الموقف المذبذب المائع الذى يجمع بين اقرار الأفكار سرا وانكارها علنا كان احدى العلامات العامّة المميزة لعصر تحول وانتقال • وقد تلاءم تلاؤما مثاليا مع بعض السمات الثابتة فى العقلية الفينوية التى لم تكن ابدا على درجة عالية من الاخلاص • فما كان التأدب الفينوى المشهوب بالارتياح Gemutlichkeit الا ضربا من الرفق بالنفس يحاول تجنب الصراعات الحادة والاقتناعات الجادة • اذ كانت الخلفية الاجتماعية والسياسية تؤثر الميل الى الأدبار أن اقتضى الأمر مواجهة الحقائق المزعجة • كانت النمسا مملكة دستورية مع كافة الخدع السياسية المعروفة • فثمة لائحة للحريات • ومجلسان للبرلمان ، ووزراء مسئولون ، ومحاكم ذات سلطة قضائية مستقلة ، وجهاز حكومى من النوع المألوف • لكن ، كان سرا ذائعا أنه ماحاز جهاز من هذه الاجهزة شذرة من السلطة الفعلية ، ولا حتى الطبقة الحاكمة نفسها • اذ كانت هذه المسألة فى يد « الثمانين عائلة » النمساوية ، التى كونت طبقة عليا متماسكة تماما تستبعد من مجال النفوذ آليا كل من يحاول أن يقف منها موقف المعارضة ، ثم اصبحت بفضل الزواج الداخلى الطويل المدى عائلة واحدة بالفعل • وكانت تعتبر نفسها كذلك • وكان الامبراطور ، الذى يمثل السلطة العليا ، عجوزا ، عنيدا ، معزولا عن حياة الامة بفضل القوانين الصارمة لآداب البلاط •

وكان كافة الذين يشغلون وظائف البلاط العليا الذين يحيطون به أعضاء فى هذه العائلات الثمانين الموحدة فى عائلة واحدة · وكان نفوذهم من المتانة بحيث ينأى عن أية مظنة واكسبه التقليد وميراث القرون حقا الهيا دعمته الثروة المكتنزة المرتكزة على ملكية الأرض · فقد كانوا يملكون خبرة أجراء الحقول والغابات والمراعى وثروة البلد عامة · ومنذ أمد ليس بالبعيد كان الفلاحون منهم بمنزلة العبيد · وكانوا من عمق اليقين بحقهم فى السيادة والحكم بحيث انهم ما فكروا فيه قط على أنه شىء قد يحتاج منهم دفاعا عنه أو عراكا دونه ، فقد تصوروه محقين أنه ضرب حقير من الواجب فرض عليهم بحكم مولدهم ، وليس امتيازا يقتضى منهم صفات وواجبات ، وتقبلوه بأسلوبهم الفروسى الخاص · كانوا كأفراد — حسب اتصالاتى الشخصية القليلة ببعضهم — خرعين وفاتنين ، يقدرون الأخلاق المرفهة أكثر من أى شىء آخر ، كما هو المنتظر من ارستوقراطية تمتعت مدى اجيال عديدة دون كفاح بكل اطايب الحياة · لم يكن لهم شىء من ضراوة الفارس المقاتل بل شيئا كثيرا من الرخاوة المتحذلقة المتأنقة · كان بعضهم ذكيا دمث الأخلاق ولكن تأثير عشرتهم حال بينهم وبين أية محاولة للمساهمة فى الحياة العامة فما كان امامهم سبيل آخر · وقد أدى ما يشملهم من ارتباط وثيق دون تنظيم أو قيادة الى أن يؤثر سلطانهم اللامسئول ، اللامحدود ، الغامض المعالم فى اتجاه واحد الا وهو : استبعاد أى تجديد ، واستئصال كل قوى جديدة من مجال العمل · وأدت بهم رغبتهم فى المحافظة الى أن يصبحوا بالضرورة رجعيين · وقد حدث ذات مرة أن قال استاذ على جرأة نادرة لأحد أبناء الارستقراطية عقب امتحان ابان عن جهله : « سيدى الكونت ، ليس بمقدورى أن أحول دون أن تصبح حاكما للنمسا السفلى ، ولكنى أستطيع أن اؤخر ذلك سنة » ·

كان هذا الغموض يسود كل شىء · فالأحزاب السياسية، والانتخابات والمناقشات البرلمانية الحامية والاقتراع على القوانين ، واقامة مؤسسات تعمل على وضعها موضع التنفيذ ، كل هذا كان يتم كما فى أية دولة ديمقراطية من الدرجة الأولى، لكنكل هذا كان واجهة مزيفة شيدت لخداع الغرباء وأولئك المصابين بالعمى الوراثى · فقد كان لابد للمرء ان أراد أن يخطو خطوة من سند من « أعلى » اما مباشرة أو خلال محظوظ من الذين فرضتهم الطبقة الحاكمة لتنفيذ مشيئتها ، وهذا أضعف الايمان ·· وبدون ذلك لا تتم أية حركة مهما كانت فى نطاق القانون ، وبدون ذلك يبطل كل قانون أو تصطنع لابطاله حيلة من الحيل · وكل ما يقال سواء على الملأ فى عبارات

طنانة أو على حدة بطريقة ودية هامسة ، لا علاقة له بالقرار الحقيقى ، فقد كانت الكلمات تستخدم نوعا من الوعد لا يقبلها غير الغبى مقابل النقد المالى ٠

وبطبيعة الحال أصبح أسلوب الطبقة الممتازة فى الحياة النموذج الذى تحاول الطبقة المتوسطة احتذاءه ، مقلدة أياه فى أضأل تفاصيله (وأصبح اليهود الأغنياء يعد أن تغلبوا على الحـــــاجز الدينى أولا) ٠ وتراوحت النتيجة ما بين العجرفة الساذجة السافرة ، والجماليات المتكلفة تكلفا ، وما خالف هذا الموقف ، كان يدعى « نهاية القرن » fin de siècle ويتغنى بأفضلية « الجمال » ــ لكن الجمال بين قوسين ــ على الأخـــلاق وأطلق على نفسه مفتخرا صفة « الانحلال » ٠

لم تكن هذه النتائج غير أعراض متفرقة ، فقد ذهب الأثر العام للمثل الساطع الذى تقدمه النبالة الحاكمة الى أبعد وأعمق من ذلك ٠ فكانت كلمة نبيل Nobel اسمى ثناء يسبغ على شىء ذى أسلوب رشيق ، مرغوب ومن هنا كان من الضرورى أن يلبس المرء ويتصرف بطريقة تجعله عضوا فى الطبقة الأرستقراطية أو تمكنه على الأقل من الاعتقاد فى امكانية حسبانه خطأ فى عدادها ٠ وكانت الطريقة المثلى لممارسة هذا الوهم المستطاب أن يمنح المرء « بقاشيش » جسيمة القدر وينفق نقوده كأنه « فارس » ، ولو كانت حياته المنزلية لا تعدو المتوسط ٠ لذا كانت فيينا كلها تعطى أو تأخذ بقشيشا بلا انقطاع ٠ فما من باب تطرقه الا ويفتحه لك امرؤ يطلب بقشيشا ٠ وما كان بمقدورك أن تدخل البيت الذى تسكنه بعد العاشرة مساء أو تأخذ مجلسك من « الحنطور » دون أن تدفع بقشيشا ٠ وقد عبر عن ذلك كارل كراوس ، ابن فيينا الهجاء بقوله : « ان أول شىء سـيراه ابن فيينا يوم النشور هو يد الرجل الذى فتح له باب تابوته مبسطة تطلب بقشيشا » ٠

هذا الولع بالبقشيش هو العلامة المميزة لوجهات النظر الاقطاعية ٠ فليس على امرىء من عامة الناس ، ميكانيكيا أو تاجرا ، من حرج أن يلتزم بعهد أمام من هو أقل منه رتبة ٠ لكن من كانت النبالة حسبه ، فانه يرى فى هذا كل المهانة ٠ فهو يفى بما عليه من دين مثلما يسبغ لقبا ، طوعا واختيارا ، غير مقر بحق عليه غير شرفه الذى يلزمه أن يحوز بمحض ارادته شهرة سيد بحق ٠

كان هذا الخيال الروائى « الفروسى » الذى ولى زمنه يسود حياة فيينا كلها ويخلع على الأعمال التجارية البسيطة مسحة رائعة ٠ فاذا تناولت

مثلا « وجبة » فى مطعم راق فالمنتظر منك أن تمنح أربعة أنواع مختلفة من البقشيش · الأول لرئيس الندل الذى يتلقى طلبك ولا يعود للظهور على المشهد الا حين تطلب قائمة حسابك ، ولكن المفروض أنه يشرف على العملية كلها من أعلى كشخصية مهيمنة والثانى تمنحه للنادل الذى يقوم بالخدمة أثناء تناولك الطعام والثالث للذى يحضر الشراب والرابع للذى يساعدك على ارتداء معطفك أو يعبر عن ذلك بالتمثيل الصامت ان لم يسعفه قصر قامته · وهم يخاطبونك بحسب مقدار البقشيش الذى يتوقعونه أو الذى منح لهم فى المرة الأخيرة ، فاما السيد الدكتور Herr Doktor (وهو أدنى الألقاب درجة) أو السيد النبيل (وهو يماثل اللقب الفرنسى سعادة Monsieur de) أو صاحب المعالى : « ومعالى البارون Herr Baron

وكانت القاعدة العامة ـ المميزة لهذا الرياء المرغوب ـ أن يعطى كل امرىء لقبا يفوق الذى يستحقه فعلا · فكانوا يخاطبوننى فى مقهاى بقلب « السيد الدكتور » وأنا لا أزال طالبا ، لكن يوم تخرجى أصبحت السيد فون ساكس أى نبيل ساكس ·

وكان النفور من طريقة الانتاج الجمعى الحديثة سمة أخرى فلم يكن الفينوى الأصيل يرضى عن شىء لا يتسم بالفردية الخالصة ، أولا يوهم بأنه قد صنع للاستهلاك الفردى على الأقل · فما من مؤسسة للانتاج العام كانت قائمة فى فيينا ما قبل الحرب · اذ كان لكل فرد محل خياطة و «بقالة» ثم « مقهاه » على وجه الخصوص والأهمية · وقد لا يخطر بالبال أن أمرا بسيطا مثل قدح قهوة ينطوى على تعبير عن طابع شخصى · ففى هذا البلد تقدم لك القهوة ، والكريمة ، والسكر ولا شىء أكثر · ولكن فى فيينا كان لكل زبون مستديم ذوقه الفردى الذى ينتظر من النادل أن يعرفه و يقوم بتلبيته دون أن يطلب منه ذلك · كان هناك نوع يدعى المزيج (وهو قهوة باللبن فى كوب) مع الكريمة الخفيفة أو الدوبل كريم (أى كريمة مخفوقة بسيطة أو مركبة) أو بدون ذلك · وهناك ما يعرف بأسم فنجان الشاى (وهو فنجان شاى لكنه مملوء قهوة) وما يدعى بندق (نصف فنجان بالبندق) ، والكابوتسينر (بن أسمر غامق) والفنجان الذهبى (فنجان قهوة ذهبى أسمر فاتح) ، وهكذا ·

كانت فيينا هي مدينة كابو(*) بالنسبة للأذهان وكابوا هى المدينة التى اجتمع بها جنود هانيبال وعرفوا فيها اللذة· عندما تصبح الحياة مزيجا من الشعر والواقع يضعف الدافع للابداع » · بهذه الكلمات التى تجمع بين الاعجاب والاتهام وصف فيينا أعظم بنيها وعاشقيها فرانز جريلبارتسر Franz Grillpartzer · قد يوجد هذا الفتور كفينوى اللطيف فى أماكن اخرى ، لكن كان الشىء الفريد هنا أن ــ أصبحت أوجه التنافر ، وقد تجمعت بأشد الطرق اهمالا ، النغمة المغرية السائدة على غيرها · كثيرون وجدوا هذا الذوبان مضنيا ، لكنما استطاعت مقاومة اغرائه غير قلة ·· فقد تآلفت الشوارع المقبضة وواجهات المنازل المشوهة ، والحجرات المرضة والضواحى المخربة تآلفا عجيبا مع ما فى الكاتدرائيات القوطية والقصور الباروكية من روعة ، وشع قوس التلال الخضراء الفاتن المحيط بالمدينة مرسلا تألق الغابات والمراعى الى كل ركن معتم · وبنفس الطريقة الغامضة نمى نوع من حاسة الجمال بجانب ما فى أذهان أولئك الذين عاشوا بين كل هذا الفقر والجلال من تحيزات وضيعة وشهوات رخيصة وازدهرت حيث لم يكن ينتظر لها أن تزدهر ·

وكانت الموسيقى والدراما قالبى الجمال اللذين يهفو اليهما قلب فيينا أكثر من أى شكل آخر من أشكال الجمال الذى أبدعه الانسان · أما بالنسبة للموسيقى فليس لدى ما أضيفه حول الثالوث الشائع : «فيينا ، والفالس ، وشتراوس » · فمن المعروف للعالم أجمع سلسلة الموسيقيين المجيدة من هايدن الى برامز ، الذين عملوا فى فيينا ومن أجلها · وقد ظل فرويد طيلة حياته لا يتذوق الموسيقى فكانت الفن الوحيد الذى لم تصله به علاقة شخصية من أى نوع ·

لكن لم يجتذب الدور الذى لعبه المسرح فى حياة فيينا نفس الانتباه · فقد كانت فيينا البلد الوحيد فى أوروبا فى العصور الحديثة ، أعنى بعد منتصف القرن السابع عشر ، الذى يحوى مسرحا للشعب ومن الشعب ، لا للبلاط ولا الطبقات العليا أو الارستقراطية فحسب · ولكن هذا المسرح الشعبى بالمعنى الكامل للكلمة لم تغذه أية الهامات أدبية · فلم تبلغ حكاياته الخرافية ومساخره التهريجية فى أى مكان مستوى الدراما فى عصر اليزابيث ولكنه تمخض عن شخصيتين قويتين هما فرديناند رايموند وجون نسترو ى

(*) كابوا هى المدينة التى استسلم فيها جنود هانيبال لاطايب الحياة وفقدوا حماستهم ·

(وكلاهما ممثل ومؤلف مسرحى) ، وكان الأخير عبقريا حقا ولكنه آثر الاستسلام للطريقة الفينوية السهلة فبدد الشذور اللامعة من ذكائه بأسراف كما لو كانت فطائر من النوع الرخيص ولم يركز قط قواه بحيث تتجلى فى تحفة فنية • ولكن كل هذا توقف فى منتصف القرن التاســـع عشـــر تقريبا ، ولم يتعد ما تبقى المستوى المتوسط فى الأقطار الأوربية الأخرى • لكن ذلك الشغف الولوع بالمســرح الذى دام عبر الاجيـــال لم يفتر فقد كانت فيينا كلها مفتونة بالمسرح • فكانت المسرحيات والممثلون وصفاتهم وطريقة ظهورهم أو اختفائهم على المنصة ذات اهتمام عــام وموضـــوع مناقشات لا تكل مثل ما يدور فى هذه البلاد من نقاش حول نجوم السينما ، وصيد السمك والجواهر • وكان الحديث عن المســـرح والممثلين يحتل المكانة الأولى فى المجتمعات • أما المشكلات الاجتماعية والسياسية فتأتى فى المؤخرة •

وقد امتد جنون المسرح الى أبعد من ذلك بكثير • فلم ينحصر داخل جدران المسرح بل امتد امتدادا خصبا حتى شمل مجالات الحياة المختلفة • وقد استطعت تبينه جيدا عندما قدمت فيينا بعد فترة من الاقامة بالخارج ، ســـهلت على اجراء المقارنات وفتحت عينى على الطرق المميزة لمســـقط رأسى • فرأيت أن كل حادثة كانت تســـــتخدم ذريعة للتمثيل ، دون أن يتعدى مضمونها أو غرضها الحقيقى تقليد جزء من ملهاة أو مأساة — مع تفضيل الأولى غالبا • فكان الشرطى الذى يحذر ســـــائقا ، وربة البيت التى تساوم على كرنباتها ، وقائد عربة الترام والمرأة التى تحمل حزمة ، والمحلف والمتهم ، يأخذون نصيبهم من التمثيل ، كلما سنحت لهم الفرصة ، بحمية وسرور ويمثلون أكثر مما يعيشون ليس بروح الانفعال والخطابة التى ترى فى البلاد اللاتينية ، بل بقصـــــــد يغلب عليه طابع تشـــخيص الذات وتقليد متكلف •

وكان التأدب والتلطف الفينويين المشهورين جزءا من هذه اللعبة • لم يكونا كذبا صريحا مقصودا ولكن الاعتقاد بأن مشهدا يؤدى باتقان تنتج عنه نتيجة حقيقية هو اعتقاد ســـاذج مثله مثل الاعتقاد بأن ممثلا سيستمر فى أداء دوره بعد أن يسدل الستار • فلم يكن البائع فى متجره فحسب ، بل صاحب المعالى فى مكتبه كذلك يؤكد لزائره (وكان الموظفون الأدنى درجة يقومون بأدوارهم كذلك ولكن بطريقة مغايرة) أنه قد دار رأسه نتيجة لكل هذا الاكرام والانعام ، ولكن بعد أن يمثل المشهد ينتهى

كل شيء لا يتبقى له أثر ٠ كما يصبح رجلان بعد عراك عنيف صديقين كأنهما ممثلون اقذع كل منهما الآخر سبابا فى مشهد من مسرحية ٠

كان كل هذا مثيرا ، ومسليا ، ومفرحا للسائحين وغيرهم من الزائرين الذين يأخذون مجالسهم أمام المشهد ثم يعودون الى بيوتهم عندما يسدل الستار بعد حين ٠ لكن كان الأمر مختلفا بالنسبة لمن يتحتم عليهم البقاء بينهم ، وخاصة أولئك الذين تبنوا قضية يدافعون عنها بتصميم وولاء ٠ فقد ووري موتسارت بمقبرة الفقراء الذين لا تعرف لهم هوية ، واشرف فرانز شوبير من الجوع على الهلاك وعانى هوجو ولف ما هو اقسى من هذا وذاك ٠ وهؤلاء هم الرجال الذين منحوا فيينا ما تقبلته وما تذوقته اكثر من أى شيء آخر ، وهو : « الموسيقى » ٠ اما المدرسون والعلماء والمفكرون فما كانوا ليطمعون فى شيء اكثر من النفور العام ٠

ولم تقر عين فرويد طويلا باباطيل التأدب فى ابداء الارتياح الفينوى فهو يقول فى كتابه تاريخ حركة التحليل النفسى : « لقد بذلت فيينا كل ما فى وسعها لتحول دون مشاركتها فى علم التحليل النفسى ٠ فلم يتضح بجلاء فى أى مكان آخر عدم الاحتفاء العدوانى من الدوائر المدرسية والمثقفة بقدر ما اتضح فى فيينا » ٠

« ربما أكون مسئولا الى حد عن هذه اللامبالاة كنتيجة لسياستى التى تجنبت الدعاية الواسعة النطاق ٠ لو كنت قد آثرت أو سمحت بمناقشات عن تحليل النفس فى اجتماعات صاخبة بالجميعيات الطبية فى فيينا ، لو سنحت مناسبات شحان ينطلق فيها كل وجدان من عقاله وتجهر الفرق المعادية بما فى أذهانها من لوم وتحيزات ــ لربما كان قد زال فى هذه الحال ما يقف دون التحليل النفسى من حائل » ٠

وينهى كلامه بفقرة بالغة الدلالة يقتبسها من مسرحية فالنشتين لشيللر Wallenstein (لم ير شيللر فيينا قط كما انه لم يزر سويسرا أبدا ولكنه عرفهما معرفة الشاعر الحدسية) ٠

لكن لن يغفر لى أبناء فيينا أبدا

انى قد حرمت أعينهم مشهدا

من الواضح أن شخصية فرويد ، وطريقته فى التفكير والمعيشة كذلك ، تمثل النقيض التام لكل شيء وصف هنا بأنه يميز فيينا ، اذ أنه بدلا من الرياء ، والتأدب السطحى والرغبة فى الازورار عن الحقائق

المكدرة ، اعتنق الاصرار على حقيقة لاترحم • وتجشم العناء الذى يقتضيه البحث الدؤوب ، وتذرع بالشجاعة اللازمة « لازعاج نوم العالم » • فاذا كانت الظروف المحيطة قد أثرت على شخصيته تأثيرا ما — ربما تكون قد استقرت قبل « سنوات التكوين » — فانها أحدثت ما يدعى بلغة التحليل النفسى » التكوين العكسى(*) » ، أو ما يوصف بانه « تأثير سلبى » •

لقد شعر بعض الناس بخيبة الأمل عندما اتصلوا بفرويد ، لأن الرجل الذى وجدوا عمله مثيرا ومشوقا كان يحيا حياة مفعمة بالهدوء — كما خيل اليهم — والجفاف والرتابة • فلم يكن هناك شىء ملون — لا احداث مفجعة ، ولا انفعالات مركزة فما من شىء كان أبعد عنه أكثر من الغلواء ، وبدلا من أن يلائم نفسه ويكيفها بحسب الطريقة الفيينوية المسرحية نأى بنفسه عنها أكثر فأكثر حتى أصبح من الوجهة العلمية بمنأى عن الأنظار •

لقد كانت محاولة فهم فيينا من أصعب الأمور ، فلم تكن بالغادة اللعوب ولا بالقديسة العجوز ، بل شابة وعجوز هوائية وقديسة فى وقت واحد • وها أنذا ، بعد أن أفضت القول عن ريائها وسطحيتها أجدنى مضطرا أن أضيف أنها وهبت الحياة ، ومع الحيـاة الحيوية والطاقة الابداعية لأكثر من رجل عظيم

ومن الحقائق الغريبة انه فى فيينا ، حيث كونت الطبقة المتوسطة كتلة كبيرة موطدة الدعائم اقتصاديا ، لم توجد تقريبا طبقة متوسطة مثقفة • فكانت لغالبية الناس اهتمامات ثقافية ضحلة الغور ، ضيقة الافق • كان يمكنك اذا تحدثت مع رجل الشارع أن تسمع من حين لآخر شيئا مسليا أو فكها ، لكن نادرا ما تسمع رأيا ذا رصانة أو فكرة على شىء من الفطانة • ولم يكن الأمر أكثر اختلافا فى أوساط الميسورين والذين يقال عنهم مثقفين • فقد حالت الحذلقة المدرسية التقليدية ونفوذ الكنيسة الكاثوليكية المطلق مدى قرون دون الرغبة فى البحث ودون تقدم الدراسة المستقلة • وكانت متعة الاستفاضة والاستطابة من الطعام والشراب بحيث تعدو المعروف فى باقى الدنيا مصدر فخر ليس بالقليل ، ومن الكفاية بحيث تسغرق فى أطايبها أغلب أبناء فيينا ، أما الأذهان الأفضل التى لم تكن آفاقها مشبعة بها وبغيرها من اللذائذ الحسية فقد فضلت الاشتغال بالأمور الفنية على مباهج الذهن المضنية •

(*) يقصد بالتكوين العكسى سمة من سمات الخلق نشأت كرد فعل على ميل غريزى مرفوض لدى الأنا . فهو ينتج عن عملية كبت سابقة ويدعم وجودها .

« المترجم »

لكن كان يحدث أحيانا ، فى أوساط محدودة ، أو بين أفراد فرادى أن تندلع فى بهاء صافى الرواء شعلة الفكر وحب المعرفة بارزة أمام هذه الخلفية من الركود الذهنى أو نتيجة لها مادامت الأشياء تتجه غالبا الى احداث نقائضها • وكان هذا يمكن أن يحدث فى أية طبقة اجتماعية ، بين العمال الكادحين أو الطلاب المحدثين أو فى الثكنات العليا من المجتمع • وقد زود الشعور بالوحدة هؤلاء الأباة طاقة غير عادية ، فعالجوا مشاكلهم بتوفز شخصى ، كان العلم الألمانى المحدود النطاق مفتقرا اليه فى نهاية القرن • وقد قابلت كثيرين من هذه النجوم المتفردة والمجرات المتلالئة قبل لقائى بفرويد وبعده • لكن فرويد كان من بينهم علما يفوقهم جميعا لألأء • لكن لم يكن ثمة شك فى أنه أيضا ، كان عارفا عالما شاعرا بهم • فهو برغم انعزاله لم يكن ضائعا فى الفراغ كما كان على اتصال شخصى ببعضهم • واذا ذكرنا فقط القلة ، التى تندثر اسماؤها واعمالها بمرور السنين ، نجد من بينهم بريكه مدرس فرويد ، وأحد مؤسسى الفسيولوجيا الحديثة ومانيرت رائد تشخيص جراحة المخ • وكان صديقه وحاميه أول الأمر ثم عدوه بعد ذلك ، وبروير الذى أصبحت ملاحظاته نقطة البداية بالنسبة للتحليل النفسى ، وكوللر الذى اكتشف فائدة الكاكايين بالنسبة لجراحة العين ، وتشروباك طبيب الأمراض النسائية الشهير ، وفيكتور ادلر منظم الحركة الديمقراطية الاشتراكية النمساوية ، ولينكيوس بوبر ، مؤلف « فانتازيات واقعى » (الذى أعجب فرويد بعمله واستشهد به ، ولكن لم يقابله شخصيا أبدا) •

لكن لا جدال أن الجو الذى هيأته فيينا لعقل الصبى اليهودى المتفتح الحائز لقوى ذهنية نادرة المثال • كان منبها بطريقة أو بأخرى • فقد كان خلوا من الثقل الميت للنهاية ، ومن سطوة وسلاطة حقيقة دوجماطيقية(*) ، مطلقة • الا أن مدى ما ساهمت به هذه العوامل فى نمو فرويد يظل غير قابل للتحديد •

(*) لعل المؤلف يقصد بعبارة « الثقل الميت للنهائية the dead weight of finally حالة من حالات المجتمع يبلغ فيها درجة الركود واليقين المطلق الذى لا يسمح بأية مناقشة ، والانغلاق على نفسه والانحصار التام داخل ذاته ، كما كان الحال فى المجتمعات البدائية القديمة أما ما يقصده بقوله « سطوة وسلاطة حقيقية دوجما طيقية » ، فهو أن تكون للمجتمع فلسفة معينة يتمسك بها ويدعو اليها ، ويتذرع بالعنف والقوة فى ردع كل من تحدثه نفسه بمخالفتها والحيدة عنها .
« المترجم »

الفصــــل الثـــالث

المعرفـــة الأولى

أخذت طريقي ذات مســـاء معتم من شـــتاء ١٩٠٤ عـــبر ابهاء المستشفى العام الطويلة ، وطرقاته الضيقة ، متجها صـوب مدرج عيادة الطب العقلى الذى يقع عند نهاية مجمع الأبنية • كان هذا المدرج يقع قريبا من برج المجانين Narrenturm ، وكان بناء مستديرا يكون جانبا من عيـادة الطب العقـلى ، وكان المرضـى العقليون يبقون به مقيدين بسلاسل الى الجدران حتى مطلع القرن التاسع عشر •

تبدو هذه البداية أشبه بالحيلة التى يحتال بها الروائى حتى يستدرج خيال قرائه • وعلى الرغم من أن هذه الحـادثة لا تخبر غيـر الحقيقة الصراح ، فان على أن أدفع ضريبة الروائى وأذكر أشياء ســبقت هذا المساء •

كنت فى ذلك الحين قد أنهيت دراســتى بكلية الحقوق وأديت بطريقة أو بأخرى الامتحانات المقررة • ولم يـكن القانون يثير اهتمامى كما لم أكن أشـعر بميل خاص الى الطب • وانما كانت اهتماماتى مركزة فى الأدب ، الى حد استبعاد كل ما عداه • وقد يبدو غريبا أن ينتهى بى حبى للأدب الى عيادة الطب العقلى ، لكن هذا كان نتيجة منطقية للغاية ، وان تكن غير مباشـرة • وقد تكونت حلقة الصـلة نتيجة اعجاب لا حـد له بدستوفيسكى • فقد أردت أن أكتشف ، مقودا بيد العلم أسرار الروح التى استطاع تجليتها فى عريها الوضاح ، وحدا بى الأمل أن أمضى فى رائعة النهار خلال دروب الأهواء المتشابكة الغامضة التى أتابع معالمها • وقد طرقت أولا أبواب علم النفس • الذى كان لواؤه قد انعقـد حـين ذاك لفونت فالفيته مثبطا اذ بدا فى أغلبه مركبا من مصطحات جوفاء ، لا تؤدى

الى شيء معين ولا تقرب المرء خاصة من الينابيع الغامضة للانفعالات الانسانية . فأخذت أقرأ عن الصرع الذى لعب دورا ليس بالقليل فى حياة دستوفيسكى وعمله ، ومنه انزلق اهتمامى الى الميادين المجاورة للطب العقلى وعلم النفس المرضى . ولاح ما وجدته مبشرا . فأصبحت شديد الولع بها . كما حوت هذه العلوم فتنة الغريب الغامض من الأمور. أعنى شيئا أشبه بـ (العلوم السحرية) . التى أثارت تطلعات شبابى للحسى والمستغرب . وكان كل هذا أقرب الى من مختصرات « علم النفس السوى » اذ كانت المعلومات مثيرة على الأقل وان بدت الايضاحات لاتلقى ضوءا كافيا فى أغلب الأحيان وعلى ضحالة مثبطة أحيانا أخرى . وفى غضون هذه الدراسات المشعثة وقع بين يدى كتاب ذو عنوان خلاب ، لكن يثير بالذهن الحيرة والاضطراب ، وهو «تفسير الأحلام» وشعرت مذ شرعت فى قراءته أننى قد انفعلت بأصالته البينة واندهشت للزاوية الجديدة التى حازت فى ظلها الحقائق البسيطة المعروفة ، منذ أمد بعيد ، معنى مذهلا . فما من كتاب علمى آخر أخبرنى عن المشاكل التى كانت تقع منى مثلما تقع من أى فرد آخر موقع الرؤية الدائمة لكنى ما ارتأيت فهمها أو حاولته . وما من كتاب غيره جعل الحياة تبدو بمثل هذه الغرابة . وما من كتاب عداه فسر الغازها وتناقضاتها بوضوح كاف . وقلت لنفسى ان هذه الكشوف المذهلة تحتاج لأوفى فحص بل وتستحقه ، وما كنت لآسف على الوقت الضائع لو اتضح فى نهاية الأمر أن كل نظرية مسطورة فى صفحاته لا تعدو أن تكون من سقط المتاع . وعقدت العزم أن أكرس له شهورا .. بل سنينا لو اقتضى الأمر .

وعرفت أن مؤلف هذا الكتاب المكهرب يعيش معى فى نفس المدينة بالقرب من بيتى . وسمعت أناسا يعرفونه ويعرفون عائلته ويذكرون اسمه بين الحين والحين وعرفت أيضا أن الدوائر الاكاديمية الرسمية قد نبذته وعلمه ولكنه منح لقب أستاذ زائر اعترافا بعمله السابق فى الأمراض العصبية . ووجدت فى قائمة الاسماء بالجامعة أن الأستاذ فرويد يحاضر بمدرج عيادة الطب العقلى فى أمسيات السبت لمدة ساعتين — وهو وقت غير ملائم لا يستدرج جمهورا . والآن نعود الى النقطة التى بدأنا منها .

كنت أعرف قاعة المحاضرات جيدا لأنى تعودت ارتيادها لأستمع الى محاضرات عن الطب العقلى يلقيها الاستاذ المتفرغ فاجنر فون جورج Wagner Von Jauregg (وقد حاز جائزة نوبل فيمابعد لكتابهعن علاج

حمى الشلل النصفى ، ولم يكن ذهنه متفتحا لدقائق علم النفس ، والتحليل النفسى خاصة وكان وفرويد يطلبان الطب سويا وسادت بينهما مودة تنقصها الحرارة ، ولكنها مفعمة بالاحترام المتبادل • وكانت القاعة عندما رأيتها من قبل ترتع فى ضوء النهار الساطع ، والمقاعد كلها مكتظة بالطلاب • اما الآن فالنوافذ معتمة والضوء الوحيد ينساب من مصابيح قليلة استقرت على منضدة المحاضر ، وخلعت صفوف المقاعد المتصاعدة الخاوية على القاعة مظهرا شبحيا • ولما كنت أعرف تمام المعرفة حيائى وتخاذلى أمام أية مغامرة جديدة ، ولو كانت مغامرة متواضعة مثل هذه، فقد اصطحبت معى ابن عمى ، آملا أن يزودنى وجوده بالشجاعة اللازمة • ولكنى شعرت فى هذه الظروف بخوف يتزايد كل لحظة ، وعندما دخل سيد نصف واضح انه استاذ ، اتجهت صوب الباب ، هامسا لابن عمى فى اضطراب اننا قد اخطأنا المكان ، فماذا كان عساه يحدث لو نجحت محاولتى فى الهرب ؟ يقينا ، كان دخولى مجال التحليل يتأخر سنة أو أكثر ، لكن كان من المستحيل أن تأخذ حياتى كلها مجرى مغايرا • ولحسن الحظ ، لم أفلح • كان السيد النصف الملتحى لحية بلون القسطل ، نحيلا متوسط الحجم ، وكانت عيناه عميقتين نفاذتين وجبهته ذات ارتفاع ملحوظ عند الصدغين • قال بألطف طريقة ، مشيرا لصف من ثمانى أو عشر مقاعد فى نصف دائرة بمقدمة المقاعد ، قرب منضدة المحاضر ، حيث جلس نفر من الناس : « هلا ازددتم اقترابا وتفضلتم بالجلوس « أيها السادة ؟ » •

واستجبنا لدعوته وعندما بدأ محاضرته فقدت حالا كل أثر للحياء أو « الكف » فقد تحللت وذابت كلها فى اهتمامى الشديد بما كان يقوله وبأعجابى بالطريقة التى قاله بها وكان هذا التأثير يزداد امتدادا وعمقا كلما ازددت اصغاء وتعلما • وتبدد حيائى الذى ازاحه جانبا عن لقائنا الأول وتلاشت معه موانع أخرى كثيرة وعقبات داخلية كانت تعترض طريقى •

كانت الكراسى قد صفت فى مقدمة المقاعد الخاوية لأن فرويد كان يكره أن يعلى صوته الذى كان ينقصه ما يدعى بالرنين « المعدنى » فى الأصوات • وبعد اثنى عشر عاما عندما اجتذبت شهرته المتزايدة جماهير أكثر عددا كان يحاضر فى مدرج آخر أكثر اتساعا ، لكن ليس بسعة المسرح ، وكان قادرا على أن يجعل نفسه مسموعا بوضوح فى كل جزء من حديثه • لكن هذا كان يعنى بذل جهد لا يحبه ، وعندما فسد

لدى هذه الجماهير الجديدة الاهتمام العلمى الجدى بمقادير كبيرة من الغطرسة والفضول العامى تخلى سريعا عن محاضراته الاكاديمية · وبعد الحرب تحدث فى مناسبات قليلة فقط فى اجتماعات جمعية التحليل النفسى ومؤتمراتها · وقد جعله منطقة السليم وبيانه القويم مسموعا بوضوح برغم أن صوته كان يفتقر الى النغمات الثرية السخية التى تندفع مباشرة الى الأذن وتعير الكلمات قوة موحية · وما سمعته أبدا يعلى صوته فى حالة الغضب أو الاستشاطة ·

وكان الجو وديا وغير رسمي فى أمسيات السبت هذه التى سرعان ما أصبحت محورا يدور حوله عالمى الخاص ، وكان عدد « الحواريين » ستة أو سبعة ولم يبلغ أبدا خمسة عشر · وكان أغلبهم ينتمى الى الحلقة التى أخذت تتكون حول فرويد وأصبحت فيما بعد نواة جمعية التحليل النفسى الأولى · وكانت تطرح للمناقشة موضوعات التحليل النفسى ومشاكله القائمة أو التى لاتزال فى طور التكوين · وكان تفسير الأحلام ، واللاشعور والكبت ، والشكل العام للعصاب هى الموضوعات المفضلة بطبيعة الحال · وقد أضافت الآفاق العديدة الجديدة المتفتحة أمام عيوننا ، والامكانيات التى لا تنفد لميادين جديدة ، ومناهج البحث المستحدثة فى كل فرع من فروع هذا العلم قدرا كبيرا الى ما فى هذه الساعات من تشويق شامل · وتعلمنا شيئا عن طبيعة التحويل وبدأنا نفهم اللاشعور على انه وجود قدر داخلى يقضى بأن يعود نفس النموذج الى الحياة مادامت عجلة الحياة تدور حول محور ثابت ، وما دامت أقدم الخبرات تكرر نفسها مرة بعد أخرى تحت أقنعة مختلفة (التكرار القهرى) · كما حصلنا على لمحة أولى عن « التحليل التطبيقى » أعنى استخدام المعرفة باللاشعور والتكنيك التحليلى لتفسير أعمال الفن والأدب ، وبحث المشاكل الاجتماعية وكذلك مشاكل العصاب والأحلام · ولم يزج كل هذا بطريقة ادعائية مفتعلة ، فما من كلمات ضخمة اعلنت عن عظمة الاكتشافات الجديدة · اذ لم يدع فرويد دور النبى الذى يخبر عن الغوامض التى تكشفت له وحده · فكانت النغمة السائدة فى حديثه هى نغمة الحديث الهادىء ، تزينها غالبا الملحوظات الساخرة أو الحاذقة ، لأن يقينه بالنتائج البعيدة المدى للحقيقة الجديدة (التحليل النفسى) كان من العمق بحيث يحول بينه وبين محاولة تأكيدها والاصرار عليها ·

لم يكن فرويد يحاضر فى كل أمسية من هذه الأمسيات · فقد كانت لدينا فترات تخصص للدراسة عندما كان أفراد الجمهور فى

خلالهـا ينقسمون مجموعات ليقدموا عرضـا ونقدا لكتاب أو مقـال ، يشفع بمناقشة عامة . وثمة مناسبة لا تبرح ذاكرتى بصفة خاصـة ، كان يتعين على كل وافد جديد علينا لا اعرفه أن يلقى تقريرا عن تجربة التداعى(*) . فشرع يوضح قصده قائلا : « انه يتعين أن ينطق المختبر سـلسلة من الـكلمات ويتوقع من المختبر أن ينطق بعد كل منها الكلمة التى تخطـر الى ذهنه أولا . وأردف قائلا : « فالمختـبر مثلا يقـول « حصان » فيرد المختبر بكلمة (مكتبة) « .. وهنا قاطعه فرويد » اذا لم أكن مخطئا فأنت ضابط سـابق بسـلاح الفرسان وكتبت كتابا عن علم نفس الجياد ؟ » « أجل » (ها أنت ذا قد قدمت عفوا خير برهان عن الحتمية الدقيقة لقوانين التداعى . وقدمت نفسـك ومجـال اهتمامك للجمهور عن طريق المثال الذى اخترته كيفما اتفق . »

ودارت بيننا فى مناسـبات اخرى سلسلة من المناقشـات حـول المنهج الصـحيح لتفسـير الفن الأدبى . وهل يلزم هنا وهل يمكن استخدام نفس التكنيك الذى يسـتخدم فى اعـادة تركيب المضـمون اللاشـعورى لحلم من الأحلام وقد أصـر على هذا الرأى « الجناح الراديكالى » وانصار خيال « رحم الأم » وحاولوا أن يجدوا له مثالا فى هاملت .

وانى لأذكر مناسـبة أوضـح فيهـا فرويد مبدأ علميـا عن طريق نكتة استمدها من خبرته الخاصة لا يمكن اغفالها لما لها من الأهمية . كانت المشكلة التى عالجها هى « الحتمية المغالية » أى ، السببية المتعددة التى توجد فى كل مكان ولـكنها ذات أهمية خاصـة بالنسبة لمنتجات اللاشعور . فنبهنا الى خطورة الاكتفاء السهل حتى عندما تبدو الأسباب المعروفة من الكفاية بحيث تنتج عنها النتيجة ، فأخبرنا قائلا « منذ سنين مضت قضى استاذ طب نحبه وكان قد نص فى وصيته على وجوب تشريح جثته وأجرى التشريح والفحص مشرح باثولوجى ذائع الصيت وعملت له فى ذلك مساعدا . وقال لى المشرح : « انظر هاهنا ، ارأيت الى هذه الشرايين ! انها صلبة وكثيفة كالحبال . بالطبع ما كان بمقدور الرجل أن يعيش بها » . فأجبته « حسنا ، ولكن الواقع أن الرجل قد عاش حتى الأمس بهذه الشرايين » .

وعندما ناقش معنا العـلاج التحليلى النفسى للعصـاب استخدم صـورة فى حجم الكرت بوسـتال من النوع العادى ليجلو مقصده .

(*) التداعى النفسى .

كانت الصـــورة تمثل فلاحا ــ أو بدويا من قاطنى الجبال ــ فى حجرة نوم بفندق يحاول أن يطفىء مصباحا كهربائيا كما تطفأ الشمعة · ثم قال : « ان أنت هاجمت العرض مباشــرة فانك تتصــرف كما يتصرف هذا الرجل · ولذا يجب عليك أن تبحث عن السويتش » ·

ولقد أخــبرنا فرويد عن ماضى التحليل النفسى وعن مســتقبله وخاصــة عن المراحــل الأولية لعمله ، التى قادته خطوة فخطوة نحو التحليل النفسى · وتحدث بحرارة وتقدير عن « تشاركوه » كرجل ومعلم عظيم بالفعل مد يد العون للغريب المغمور بأن ادمجه فى دائرة اتباعه الخلصاء · وكان يحب أن يستشهد باجابة « تشــاركوه » اذا ما حاول امرؤ أن ينقص ما اثبتته التجربة بالالتجاء الى ســلطة من الســلطات Cela n'empeche Pas d'exister (ذلك لا يمنع من وجوده) · وكان واضحا أن « ليبوه » هو الاثير لديه ، ذلك الطبيب الريفى البسيط الذى وجد فى نفسه الشجاعة ليعالج مرضاه بالتنويم ، وهو منهج كان يعتبر حتى ذلك الحين غير علمى وغيــر كريم ، غيــر قاصــد من وراء ذلك مطمحا شخصيا ، وغير مؤيد بهيئة عيادية مدربة ، وانى لأذكر الآن بشىء من الأسف ، أن فرويد المبرأ من كل تمييز « عنصرى » أوضــح فيما هو يرينا صورة « ليبوه » كيف كان وجهه غير لاتينى un-latin (والكلمة اليوم تعنى « نوردى ») وكيف يتلاءم هذا مع اسمه الذى كان الواضح انه تحريف للاسم الألمانى ليتبولد Luitpold ·

وقد تحدث الى فرويد ــ فيما تلا من سنين ــ أكثر من مرة عن أيام طلبه فى باريس التى يحتفظ عنها بأطيب الذكريات ، فقال لى يوما · «انى اذكر أنه ذات يوم من أيام الربيع ، كانت تسير أمامى جماعة من الشباب والشابات فى شارع ســان ميشيل · وكانت الجماعة تتوقف بين الحين والحين عن المسير ويأخذ أفرادها فى القيام ببضعة خطوات راقصــة تلقائيا دون سبب أو باعث ظاهر ، اللهم الا لأنهم فى ريعان الشــباب وفى باريس والوقتربيع » ·

وبينما كنت أصغى بشغف الى محاضــرات فرويد كنت أدرس بجد طريقته الفنيــة فى العرض (بقصــد تقليده) . فقــد كان العجب يتولانى لنجاحه دائما فى الوصول الى أمر غير متوقع مثير للدهشة بينما ينساب حديثه هادئا فى ألفاظ بســيطة ، دونما حاجة الى الألفاظ النارية ذات العمق المحير أو المفارقات البراقة · وتبينت انه كان يحسن الاســتفادة

من الوصفة التى يصفها شوبنهور لبلوغ الأسلوب الجميل : « قل أشياء غير عادية مستخدما كلمات عادية » وكان يتبع هذه النصيحة بالحدس دون أن يعرفها (فأنا أعرف يقينا انه قرأ شوبنهور لأول مرة بعد سنين عديدة من ذلك عندما استعار نسختى من طبعة الجيب الرخيصة ليقرأها أثناء الصيف) • وكان الأثر المذهل الناجم عن محاضراته قائما على تضاد من نوع خاص • فقد كان يقدم كل الوقائع الضرورية ، ويشرح المبادىء الرئيسية ، حتى تلك التى سلم بها المرء تسليما بأكبر قدر من الدقة • وعندئذ يقدم نتائجه بحرص على أساس متين وقبل أن يخطو الخطوة التالية كان يوضح كل المعارضات الممكنة ، ويصوغها بجلاء ويفندها باستيفاء ، بحيث يبدو اذا ما تحرك فى اتجاه غير متوقع وكأنه يقوم بأكثر الأشياء طبيعية • وكان اذا اضطر الى ترك حجة ناقصة ، يشير الى ذلك ثم يعود اليها فى اللحظة المناسبة • وبهذه الطريقة كان يقود مستمعيه تلقائيا ، دون أن يشعرهم ابدا بأنهم يشاركون فى بحث عسير بالغ الأصالة •

فى خلال هذا الوقت كانت الخيوط الأولى لعلاقاتنا الشخصية قد تثبتت فى أكثر من موضع • فانعقدت أواصر الصداقة بينى وبين كثيرين من أولئك الذين كانوا يحضرون المحاضرات ويشتركون أيضا فى الاجتماعات الخاصة التى تعقد ببيت فرويد • فنشأت صداقة بينى وبين اوتورانك الذى كان حينذاك والذى ظل لوقت طويل « رجل الذراع اليمنى » بالنسبة لفرويد • وأدى بى عرض تعين على تقديمه عن مقال لفرنشيزى حول « الاسقاط والامتصاص(*) » الى الاتصال بالمؤلف • ثم أقبل اليوم الذى وطئت فيه بيت فرويد وظفرت لأول مرة بحديث طويل أليف معه •

كانت ترجمتى لكتاب « أنشودة غرفة الثكنات Barrack-Room Ballad لكبلنج قد نشرت حينذاك وقد كانت الوداع أو النصب التذكارى ، لاهتماماتى الأدبية الخاصة » • وذهبت ذات مساء بقلب خافق ، لأقدم نسخة لفرويد •

كان فرويد يعيش حينذاك فى نفس المنزل الذى ظل يعيش به الى أن غادر فيينا ، أى ١٩ شارع الجبل • وكان الشارع اسما على مسمى ،

(*) الامتصاص هو تشرب الأشياء والأشخاص تشربا لا واعيا داخل النفس البشرية •

« المترجم »

اذ كان جانب منه ظاهر الانحدار حتى بالنسبة لأرض فيينا المتعرجة ، وكان طرفا الشارع ينتميان الى عالمين مختلفين ، كما هو الحال غالبا فى المدن القديمة • فكان يبدأ من « سوق المبيعات الرخيصة » وهو سوق فيينا التاريخى «للخردة» ، وينتهى عند الكنيسة التذكارية ، وهى كاتدرائية على الطراز القوطى تشرف على أكثر ميادين فيينا أناقة ، تحوطها الجامعة وبعض الأبنية العامة الأخرى • وكان رقم ١٩ يقع فى الجانب الراقى من الشارع قريبا من سوق المبيعات الرخيصة ولكن الجيرة التى تحوطه تتميز بالهدوء والاحترام ، وان لم تكن متميزة عن غيرها فى كل شىء وكان مكتب فرويد يقع بادىء الأمر فى الطابق الأرضى وبيته بالطابق الثانى وفى وقت زيارتى كان المكتب قد نقل الى الطابق الثانى فأصبح من ثم قاطنه الوحيد • وكان البيت والمكتب يتصلان من الداخل ، لكن كان لكل باب على الجانب المقابل (بالطبع على أى جانب يختار المرء أن يدق الجرس ، يفتح الباب المواجه له) • وقد أخبرنى فرويد بعد بضع سنين أن الطابق قد شغله قبله دكتور فيكتور ادلر تابعه وتلميذه السابق ، وزعيم الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، والذى أصبح بعد الحرب أمين سر الدولة لفترة قصيرة من الوقت • وكانت الحجرة التى يشغلها مكتب فرويد حجرة مهد ابن ادلر الذى اشتهر ابان الحرب العالمية الأولى ، لاغتياله الكونت اشتركخ ، احتجاجا على حكمه الجائر • وقد خفف حكم الاعدام الذى صدر ضده ثم اطلق سراحه بعد توقيع الهدنة •

وكان المكتب يتكون من دهليز صغير معتم وثلاث حجرات ــ حجرة الانتظار ، وحجرة لعيادة المرضى ، وخلفهما حجرة المكتبة • وكان لكل حجرة نافذة تطل على فناء قامت بمنتصفه شجرة باسقة فرعاء • ولم يكن النور أو ضياء الشمس يغمر أية حجرة من هذه الحجرات وكانت مؤثثة تأثيثا مريحا بحسب الذوق والأسلوب السائدين فى بيوت الطبقة المتوسطة فى السنوات الثمانين ، مثلها مثل البيت الذى ترعرعت فى رحابه • ولم يكن بها شىء يتميز بالطرافة أو التفرد ولا الحجرات التى يعيش فيها والتى رأيتها فيما بعد • كانت حجرة المكتب فحسب تتميز بمسحة فردية واضحة لا تعزى الى أسلوب الأثاث ، بل الى أرفف الكتب المفعمة التى تغطى الجدران حتى تبلغ السقف والقوارير الزجاجية التى احتوت مجموعة فرويد من التحف الأثرية ، وبالرغم من أن الأخيرة كانت فى مراحلها الأولى الا أن بعضها كان يجتذب عين الزائر لأول وهلة • وسأتحدث عن ذلك فيما بعد •

لقد نسيت بالضبط ما تحدثنا عنه أثناء هذه الزيارة الأولى · وكل ما أذكره أن فرويد استقبلنى بحفاوته المميزة · وكان الأدب هو الموضوع العالم للحديث بسبب كتابى كما أذكر أيضا اننا اشتركنا فى ازجاء المديح للشاعر الروائى السويسرى الكبير كونراد فرديناند ماير · وكنت فى ذلك الحين معجبا متحمسا له ، لشغفى بوجه خاص بكتابه « اغراء بيسكارا » (ولا زلت كذلك ولكن ليس كما كنت من قبل) وقد تبينت من استشهادات فرويد فى محاضراته ومن بعض اشارات طفيفة انه هو أيضا قد عرف نفس المؤلف وأحبه · ثم علمت فى الشتاء التالى أن الجماعة التى ظلت حتى الآن غير رسمية قد كونت جمعية للتحليل النفسى · فكتبت خطابا للدكتور الفريد ادلر الذى كان يشغل منصب الرئيس حينذاك ملتمسا قبولى عضوا ، مستوصيا بالأستاذ فرويد ، وقد حزت القبول وحضرت الاجتماع التالى وحضر معى أيضا اثنان أو ثلاثة أعضاء جدد كانوا مثلى يحضرون محاضرات فرويد بانتظام · وكان مكان الاجتماع عبارة عن حجرة كبيرة تخص (كلية الأطباء) وقد أجرتها الجماعة مساء الثلاثاء من كل أسبوع · وكنا نحن الأعضاء الجدد على شىء من التهيب بالطبع أول الأمر فلم نشترك بالنقاش الى أن قال فرويد : « لسنا نريد أن ننقسم الى طبقة عليا تقوم بالحديث كله وطبقة سفلى تستمع سلبيا » · فذاب الجليد وحلت الألسنة · وقد دار الموضوع ، ان لم تخنى الذاكرة ، حول بعض الأمثلة التعليمية لتفسير الأحلام بواسطة فرويد ·

وكان الدكتور ادلر فى هذا الاجتماع وبعض الاجتماعات الأخرى يتولى منصب الرئاسة ، ولكن سرعان ما بدأ النزاع الذى نجم عن نظرياته الجديدة وآرائه المخالفة وكان يعطى من المجال فسحة كافية ليعرض آراءه عرضا وافيا ويدافع عنها من يشاء وينتقدها ويفندها من يريد · وكان فرويد يقوم فى المناقشة بدور بارز ، فهو ما هادن خصمه ابدا وما توانى عن استخدام الكلمات القاصمة والملحوظات الحازمة لكنها ما انحطت ابدا الى مستوى النيل من الشخصيات · وكل من خبر هذا النوع من المناقشات يعرف انها تتجه الى الذوبان فى التفاصيل الضئيلة بدلا من اجتلاء الأسس ولكن هذا لم يحدث بفضل حزم فرويد · وكانت النتيجة الخالصة أن نظريات ادلر بعد أن استبعدت منها أهمية الجنسية الطفلية ، والكبت واللاشعور لم يعد يجمعها بالتحليل النفسى سوى القليل · وترتب على ذلك منطقيا أن فارق ادلر التحليل النفسى · واعتزل معه بعض الأعضاء الآخرين ومن بينهم الأعضاء المستجدون

الذين انضموا معى الى الجمعية • ولم يكن اغلبهم يشارك ادلر آراءه • وانما بنى قراراهم على أن المسالة برمتها تهدم « حرية العلم » • ولعل نقد فرويد الحاد قد آذى مشاعرهم الرقيقة وجعلهم يعتقدون أن أدلر كان محقا فى شكواه من عدم التسامح • ودعت جماعة ادلر الجديدة نفسها « جماعة التحليل النفسى الحر » • ثم تخلى فى المراحل الأبعد مدى من موقفه الجديد عن اصطلاح « التحليل النفسى » واستبدله باصطلاح « علم النفس الفردى » ومن المناسب هنا أن نقول كلمة عن « حرية العلم » حيث ان هذا الشعار قد استعمل على نطاق واسع منذ هذه المناسبة الأولى حتى يومنا هذا بزعم الدفاع عن «المبدأ الديمقراطى» فى بعض الحالات ، ومن المحتمل انه لن يقل فى المستقبل استعمالا عندما يحلل الأمر تحليلا نفسيا • والذى دلى به هنا عن هذا الأمر يمثل وجهةنظر فرويد — ووجهة نظرى كذلك — التى سمعته يعبر عنها بطرق متنوعة فى عديد المناسبات بحيث اجدنى عاجزا عن نقل كلماته فى مبناها ، فكل ما استطيعه هو توصيل معناها •

تعنى حرية العلم أن كل مؤمن بها يستطيع أن ينشر رأيه الشخصى فيما يتعلق بأية مشكلة يتخيلها الفكر دون التقيد فى اختياره بمصادر المعلومات أو أشكال البحث وتعنى كذلك أن أى فرد يمكنه صياغة هذه الآراء ونشرها وبذل المحاولة لاقناع الآخرين الذين يقبلون الاصغاء اليه ، بأن يطلعهم على مالديه من مادة وحجج يستند اليها • ويتأتى الخطر على هذه الحرية من أولئك الذين يمكنهم الحيلولة دونها بالقوة والقمع سواء كانوا يشكلون حكومة ، أو حزبا سياسيا ، أو كنيسة أو أية جماعة ذات سلطان تستطيع بواسطته التأثير على الرأى العام • ومبدأ السلطة لا يهم الجماعات العلمية فى شىء مادامت لا تستخدم اسم العلم ستارا يستر دعاية سياسية أو دينية • والتحليل النفسى سليم من هذه الوجهة تماما ، لأنه كان موضوع اضطهاد ، ولا زال كذلك من الأغلبية الساحقة •

أما مشكلة من ينتمى الى جماعة علمية أو لا ينتمى فلا علاقة لها بحرية العلم فهى مسالة مزاج بكل ما فى هذه الكلمة من معنى • اذ لا يؤتى التعاون بين العلماء بقصد البحث أو المناقشة ثمرة الا اذا أجمع كافة المشتركين على انهم متفقين على المبادىء الأساسية • فكلما ازدادت المشاكل فى ظل البحث تحديدا ، ازداد مقدار الأفكار التى تقتضى تفاهما تاما • فاذا تكونت جماعة من الاقتصاديين لدراسة بعض المصاعب

النظرية المتعلقة بالقيمة المتغيرة للسلعة ، فلا يمكن أن تلام الجماعة اذا رفضت أن ينضم اليها ماركسيون متعصبون يصرون على أن القيمة الاقتصادية للسلعة ليست ذاتية على الاطلاق ، بل تعتمد على مقدار الجهد المبذول • ولا يسلم أساس البراهين العلمية من اعادة بحث المراحل الأولى وفحصها ، ولكن لا يمكن أن يقع هذا البحث المعاد من نفس الجماعة موقع القبول بينما هى مشغولة بتشييد الطابق الخامس أو السادس من البناء • ومعنى هذا ، أنه عندما يتنكر فرد أو جماعة من أعضاء منظمة علمية كهذه للأساس المشترك الذى كان سبب تجمعهم فليس أمامهم سوى الانفصال كحل معقول • فاذا ترددوا فى ذلك طويلا ، يكون الآخرون الذين تعوق المشاحنات العقيمة عملهم باستمرار محقين • فى الاشارة الى الباب • وليس هذا التصرف خنقا لحرية الفكر والضمير ولا عقبة تعترض طريق البحث عن الحقيقة ، ولا حاجزا دون الجهر بالمخالفة فى الرأى • ان مناقشة الأساس العريض للمبادىء العامة من أى فرد يهمه الأمر ، يمكن أن يصيب نفعا بين الحين والحين • ولكن هذه المناقشة لن تكون ذات نفع بالنسبة لأولئك الذين انضموا الى بعضهم بقصد قطف ثمار من شجرة المعرفة اذا لم يتفقوا بادىء ذى بدء على مكان الشجرة • وبالتالى اذا ما أسس المدافعون عن الحرية مدرسة خاصة بهم ، فعليهم أن يتبينوا بانتظام ان جماعتهم تكون من عناصر متجانسة فهذا أبسط شىء فى مقدورهم • وما من محلل نفسى أصيل اشتكى من انه لم يقبل فى جمعيا تيونج أو ادلر • ولم يريد ذلك ؟ •

تحدثنا ذات مرة عن استاذ ألمانى كان يرفع عقيرته بطريقة صاخبة داعيا لقمع كل ضوضاء لا ضرورة لها ، مطالبا بتدخل الشرطة ، ، لتكوين جمعية تكافح الضوضاء فقال فرويد مبتسما : « انه يريد أن يثير الضوضاء كلها وحده » •

كما أن هناك بالطبع خطورة ضيق الأفق • فالاختلاف على النقاط الضئيلة قد يصبح أداة خطيرة فى يد خصم شخصى ، أو خصوم متعصبين ، أو أفراد قصيرى النظر يركزون انتباههم على تفاهات وهى أشياء يمكن أن تحدث بين العلماء كما تحدث بين غيرهم ، ولكن الانفصال الصريح خير من الجفاء المتزايد • وقد بردت حمى هذه الصراعات الآن بحيث يمكن النظر اليها الآن دون تحيز • وبالنسبة لى شخصيا — برغم أنه يفيدنى أن أمثل دور السيد الصامت فى مسرحية هنرى الرابع « فاقر أواصر السلام » — اعتقد أنه يجب الاشارة بحزم

الى الانفصال بمجرد ما تدل المجادلات والمحاجاة عن اتجاه ثابت للسير فى نطاق دائرة معينة ، والنكوص الى نفس الموضوع ·

بعد رحيل أدلر ومن تابعوه لم يكن لفرويد معدى عن تولى الرئاسة الرسمية للجماعة الفينوية · وعلى الرغم من انه كان يؤثر كل الايثار ترك كافة الوظائف الرسمية لغيره الا انه احتفظ بمنصب الرئيس منذ ذلك الحين حتى تقدم به العمر وحتم عليه المرض الاعتزال · فشغل وظيفة رسمية ، والظهور فى مركز الصدارة ، والتميز والبروز كانت كلها أمورا ضد ارادته · كان يريد فحسب أن يحيط نفسه بأناس يشاركونه أفكاره ويكرسون أنفسهم للتحليل النفسى دون هدف آخر ، وأن يبقى بمعزل عن أولئك الذين يتبعونه بعماء « منومين » بشخصيته أو مقادين « بتحويلهم الايجابى » كما نقول نحن المحللين · لهذا السبب أقر ادلر فى كرسى الرئاسة ، وهو خطأ كرره بعد ذلك على نطاق أوسع عندما أصر على تعيين يونج رئيسا « للجمعية الدولية للتحليل النفس » ·

بيد أن هذه السلسلة المستمرة من الأخطاء فى الحكم على الذين يحيطون به لا تتناسب مع شهرته كواحد من أعظم السيكلوجيين يتحتم أن لا يكتم العقل عنه سرا · وهو نفسه يؤكد دائما انه ليس قارئا للعقول أو عارفا للناس وقد دهشت بل ذهلت عندما سمعته يقول ذلك · اذ أنه لم يهدم فكرتى الخاصة عن الفوائد الطيبة لعلم النفس فحسب ، بل هدم خبراتى الفعلية معه كذلك · فقد أجبرتنى قسوة الظروف مرة أو مرتين على أن أكشف له جانبا من حياتى أبقيته مشددا حتى ذلك الحين طى الكتمان · فتبينت لدهشتى ، بل لفزعى ، أنه كان عالما بسرى طوال الوقت · فقد كان يستخلص نتائجه من ملاحظة أبسط العلامات وأدقها ، فروح كتابه « علم النفس المرضى للحياة اليومية » تدل على ذلك · لكنه لم يجانب الصواب اذ نسب لنفسه افتقاره الى المقدرة على قراءة عقول الآخرين · فهو قد تبين بكل عمق ووضوح كل صفة فردية وكل عامل خبىء ، ولكنه سما بشخصه الى مستوى أسمى بكثير من المستوى الذى تدور فى نطاقه العقول العادية عادة · لقد تبين الغيرة الجامحة والصحة ، والعذاب والدوافع العقلية فى صورها الراقية متنزهة عن أى قصد سوى القصد العلمى · وكان ذلك بالنسبة له كصبى فى متاهة ولكن بمعنى مخالف تماما ·

وبالاضافة الى كراهيته لان يبدو فى مركز الضوء كان هناك سبب آخر لتفضيله عدم التدخل فى اتجاه الجماعة ونظامها ، الا وهو · التوتر

الذى كان يتزايد حتى يبلغ حد العـداء بين أفراد من الجمـاعة أو بين مجموعات صغيرة منها • والسبب فى انه لم يبلغ أبدا حد تكوين معسكرين متعارضين يعزى فحسب الى تشابك التنافرات الشخصية المتنوعة بحيث انها لم تصل أبدا الى حد التكتل • فان رجلين يشـتركان فى كراهيتهما لثالث ، قد يبلغ كره أحدهما للآخر أحيانا حدا يجعل عداءهما المشترك قاصرا عن تكوين رابطة بينهما • كان المنتظر المأمول ان جماعة قليلة العدد ، افرادها منشغلون انشغالا عميقا مخلصاً بأمر معين ـ وهو ما كان واقعا بالفعل ويعانون من عداء العالم الخـارجى ، أن يرتبط افرادها بشعور الزمالة ، فقد شبت مرة بعد أخرى بقوة متزايدة ضروب الحسد ، وادعاءات الأفضلية ، والنقد الجارح والاحساسات المجروحة أشبه بنار تزداد اوارا • وكان خوض غمار هذه المشادات التافهة والاتهامات السافلة عملا لا نهاية له ولا فائدة فيه وأمرا عسيرا على فرويد الذى كان السبب فى كل هذا الشقاق أغلب الأحيان على كره منه • فقد كان التنافس بغية الحصول على رضاه واستحسانه الينبوع الرئيسى لهذه المشاحنات •

ربما كان هذا الموقف عـاملا من العـوامل التى سـاهمت فى أن يرشحنى عضوا فى الطليعة (لجنة التنفيذ القيادية) اعنى عندما أصبح من الضرورى اعادة تنظيم الجماعة بعد انفصـال ادلر وأعوانه • وفى نفس الوقت بلغت صداقتى لاوتورانك مبلغ الاخاء المتبادل كما هو الممكن مع شخص يتمتع بمثل ما كان يتمتع به من دماثة فى كـافة الأمـور الشخصية • ومن المحتمل أن فرويد قد ارتأى انه من الأفضل أن يحتفظ بالقرب منه برجلين على استعداد لأن يتعاون كلاهما دونما ضغائن أو حزازات • وقد دامت صداقتنا الى أن أدار رانك ظهره لفرويد والتحليل النفسى ، وكانت علاقاتنا الطيبة خلال تلك السنين ذات عون كبير لفرويد فى تثبيت دعائم التحليل النفسى ونشر مجلتى «تسايتشريفت» وايماجو • ثم الفت بالاشـتراك مع رانك كتابا عن التحليل النفسى التطبيقى كان دعامة نافعة فى سبيل الجهود المبكرة الرامية لاستخدام التحليل النفسى فى ميادين كثيرة مستحدثة ، ثم صرنا شريكين فى كتابة كل شىء وقد أعاننا فى هذا السـبيل أننا كنا نتبادل خططنا وأفكارنا ، بحيث ان أى نتاج فى هذه الفترة كان يحمل علامات تدل على مناقشاتنا ، ولكن توقف كل هذا عندما اصدر رانك كتابه عن « صدمة الولادة » ولم يصرح لى بكلمة عن أفكاره الجديدة الى أن قدم لى نسخة من كتابه ، برغم اننا كنا قد قضينا الصيف بنفس المصيف وكان كل منا يرى الآخر يوميا أثناء انشغاله بوضع الكتاب •

ولم نكن أثناء الفترة التى استغرقت صداقتنا نتفانى فى عملنا سويا فى صمت فحسب بل كنا نصيب شيئا كثيرا من المرح ، فقد كان كل منا شغوفا بمساعدة الآخر كلما سنحت الفرصة لذلك · وكانت هذه الصـــداقة تبدو متبادلة تماما ، الا بالنسبة لملاحظ يقظ مثل فرويد يحوز ما سماه سقراط فى محاورة ليسيس لافلاطون « موهبة الآلهة » التى تميز فى كل اثنين بين المحب والمحبوب · ولـــكنه لم يبد أية بادرة تدل على ادراكه الحالة الحقيقيـة لعلاقاتنا الا حين حدثت القطيعة · فعندما سمعنى أبدى أسفى على خسارتى خيرة أصدقائى ، قال مبتسما : « كنت أعلم طيلة الوقت أن صداقتكما كانت من جانب واحد » ·

وبالنسبة للوقت الذى أتحدث عنه كانت هذه النهاية التى انتهت اليها صداقتنا لاتزال جزءا من المستقبل المجهول · ومهما كان دافعه فقد رشحنى فرويد لأشغل مقعدا فى الطليعة ، واذا حدث هذا فى أقل من سنة من العضوية كان دليلا قاطعا على الثقة · وما جاء ذلك نتيجة لأنى اشغل منصبا هاما من أى نوع · وكان فرويد يدرك قيمة التنظيم ولكنه كره فى هذا المجال وفى غيره « الشكليات الجوفاء » ، فلاشك أنه كان يتبين ببصيرته النافذة مدى تأثير الامتياز السطحى الناتج عن اللقب ، أو المنصب ، أو المركز الاجتماعى على العقول الضحلة فى موقفها من التقدم العلمى · وكنا نجتمع مرة فى العام اجتماعا عمليا يفتتحه فرويد بقوله : « يجب علينا اليوم أن نمارس بعض اللعب » أو كلمات من هذا القبيل · ثم كان على حارس الخزانة أن يتلو بعض الأرقام ويقرر أن الجمعية خالية من الديون · ويعلن أحد الموجودين موافقته ويقترح اعادة انتخاب الطليعة التى كان يجب أن تحوز الأغلبية وعليها يقع عبء العمل العلمى · وأظن أننى عينت أولا أمينا للمكتبة ·· وكانت تتكون حينذاك من صفين أو ثلاثة صفوف من الكتب · وكان العمل القليل المرتبط بها يقوم به رانك ، أمين السر ، الذى كان « المهيمن على كل شىء آخر » باستثناء الرئاسة أثناء الاجتماعات ·

وتحدد التغيير الفعلى فى مركزى بالجلوس من الآن فصـــاعدا عند الطرف الأعلى من المنضدة (، بأعلى الملح » كما يقال) بجوار رانك الذى كان مجلسه الى يسار فرويد باعتباره أمين السر ــ وكان هذا ذا أهمية فعلية ــ اذ كنا رانك وأنا نصطحب فرويد عادة فى طريق عودته الى بيته · وكان فرويد بالرغم من عمله الذى يقتضيه عادة الجلوس ، مشاء لا يكل · وكان الطريق الى بيته عبارة عن نزهة طويلة خلال الشـــوارع الســـاكنة (فقد كانت فيينا تستغرق فى النوم قبل الحادية عشـــرة ، فيما عدا بعض الأماكن العامة) · وكنا أثناء هذه النزهات نعيد بحث الموضـــوعات التى

نوقشت أثناء الاجتماعات ونفحصها من جديد · وكان فرويد فى تلك الأثناء يطلعنا على أفكاره الجديدة ونظرياته التى لاتزال فى طور التكوين ، وقد أدرج بعضها فى كتبه فيما بعد وتخلى عن بعضها الآخر عندما تبين أنها لم تثبت تحت المزيد من الفحص · وقد بين لنا أن صـــفا طويلا من علامات الاستفهام يكمن خلف كل إكتشاف وعلمنا كيف نتقدم بلا توقف عند نقطة معينة · فلم يكن عنصر الاكتفاء موجودا فى طبيعته · وكثيرا ما أبدى فرويد أسفه أثناء هذه المناقشات من أن الاهتمام بنظرية تفسير الاحلام وتكنيكها ، بدلا من أن يحتل مكانته الواجبة فى مقدمة البحث يمر به غالبا مر الكرام أولئك الذين يفضلون تناول التحليل النفسى تناولا سهلا عابرا وقد اعتاد أن يقول انه يمكنه الحكم على مقدرة المحلل وبصيرته السيكلوجية برؤية كيفية معالجته لتفسير حلم من الأحلام · وكان يبغض المجهودات التى ترمى الى تبسيط تركيب الأحلام بالاصرار على أهمية التأويل الروحى وعرض مضمون الحلم أو مادته · وتعلمت فى هذه الساعات الليلية أشياء كثيرة عن « الطريق السلطانى لفهم اللاشعور » ، كما دعاه فرويد ، والذى لم أستطع فهمه من كتابه ·

كان فرويد فى هذه الحالة المسترضية من هذه النزهات الليلية يستغرق فى بحرية أكثر مما فى أى وقت آخر على عادته فى توضيح نقطة صعبة بواسطة احدى القصص · وعندما كان يعثر فى جعبته الثرية بالنكات على واحدة تجيب على قصده اجابة دقيقة لم يكن يعبأ بما اذا كانت « جيدة » أم لا · وقد ناقش معنا ذات مرة الظاهرة الغريبة فى أن بعض الناس يستطيعون تأمل قدر كبير من نقائصهم الأخلاقية وسوء فعالهم بضـــمير مرتاح بينما قد يثيرهم أيما اثارة أمر أقل نسبيا مما « يضرب على الوتر الحســـاس » واستشهد بحكاية فكاهية لاناتول فرانس (وقد ناقش وأوضح نفس النقطة فى مقاله عن «نماذج شخصية بتحليل ربيكاوست فى روزمرشولم لابسن) · وقد لخص رأيه فى القصة : فى نادى مانجاتن ببودابست (وكان فى ذلك الوقت أكثر النوادى اناقة ولا يفتح أبوابه الا للطبقة الارستقراطية فحسب) تراهن أحد الأعضاء مع آخرين على أنه يستطيع أن يتناول قدرا كبيرا من مادة برازية · وقد قدمت له على طبق مذهب بالطبع ، وانكب عليها برغبة وفجأة توقف ، وزوى حاجبيه ، ولم يستطع الاستمرار فى الأكل · لقد وجد فيها شعرة ·

وأثناء الشتاء الأول من هذه المشاوير خطوت خطوة أبعد نحو علاقة أوثق بفرويد فقد اقترحت عليه تأســـيس مجلة دورية للتحليل النفسى التطبيقى بعنوان « تطبيق التحليل النفسى على العلوم العقلية » وقد شرحت

له فيما بعد فائدة دورية كهذه وقيمتها بمذكرة أرسلتها اليه عنونتها بعنوان: «الولاء والتفانى الدائمين» مستخدما على سبيل المزاح عنوان الوثيقة التى أوصى فيها جوته (الذى كان على ما يبدو مغرما بهذه الصيغ الباروكية(*) التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر بالنسبة لمراسيم البلاط) الدوق العظيم كارل أغسطس بتعيين شيللر أستاذ للتاريخ بجامعة فيينا (بدون مرتب طبعا) • وقد أقر فرويد بالوقع الحسن الذى وقعه اقتراحى من نفسه وأبدى ذلك بطريقته الخاصة به • فقد استخدم فى الاجتماع التالى فقرة منه أثناء ملاحظاته عن الموضوعات المدرجة للمناقشة • وتبنى مشروعى وتعهده بنشاطه المعتاد • وكانت خطوته الأولى هى المحاولة مع ناشر كتبه لضمان تأييده • وقد قابلنا أعنى رانك وأنا - الناشر ومدير أعماله فى مكتب فرويد وناقشنا خططنا ، فلاح بادىء الأمر ميالا الى الموافقة ، ولكنه عاد فقرر فيما بعد أن مشروعنا يتضمن بالنسبة له مخاطرة مالية • وقد تبين هذا الناشر الألمانى العجوز الحريص بعد بضع سنين أن تهيبه دفعه الى رفض مشروع من خيرة المشروعات العملية التى عرضت عليه ، حيث أنه كان يستطيع بصفته ناشرا للمجلة الدورية أن يحصل بالطبع على حقوق نشر « الطوطم والتابو » وغيره من المقالات التى نشرت بالمجلة أولا • ثم عثر فرويد على رجل أنضر شبابا وأوفر جرأة رضى أن يصدر مجلتنا • وق دسبب لنا عنوان المجلة الجديدة بعض المتاعب • فقد اعتاد فرويد أن يقول : « يجب أن لا يكون العنوان تلخيصا مكثفا للمواد ، بل تخطيطا عاما يستثير الأفكار كما أن الأسماء الطنانة ذات الطابع الشعرى لم تكن تقع منه موقع الرضى• وأخيرا ساد اقتراحى وسميت المجلة « ايماجو » على غرار رواية كارل سبتلر التى تبدو فيها ألاعيب اللاشعور وهجماته على الشعور ، واثارته للقوى الابداعية فى أستاذية مهيمنة • أما كارل سبتلر الذى زرته مرات عديدة أثناء رحلاتى الى لوسرن ، فكان المديح يزجى اليه بأنه أصبح الأب الروحى لمجلة علمية ، ولكنه لم يعن أبدا ببحث طبيعة اللاشعور بحثا منظما • فقد ابتعد بالغريزة عن كل ما من شأنه أن يعكر صفو حدسه الفنى •

الى هنا كنت قد تعرفت على عائلة فرويد ودعيت مرات عديدة الى بيته ولكن بعد تأسيس الايماجو وبداية تعاونى المستمر معه أصبحت زائرا منتظما فى أمسيات معينة - بصحبة أوتورانك غالبا - العضوا مستديما فى « الحلقة الداخلية » وعندئذ أتيحت لى خير فرصة لألاحظ فرويد ، وأشاهد الكيفية التى يمارس بها عمله ومنهجه فى الحياة •

(*) أسلوب فى فن العمارة ينحو منحى المبالغة والتهويل •

ما كان للكثيرين أصبح لك وحدك

THAT DUE OF MANY NOW IS THINE ALONE

عندما قرأت السوناتا الحادية والثلاثين لشكسبير لأول مرة شـــعرت بهزة لازالت تتردد فى ذهنى منذ ذلك الحين • فقد كشفت القصيدة بطريقة لم يستطعها أى « تحليل نفسى » ، عن أن الحب بالنسبة للمحب العظيم لا يعنى حادثة منعزلة عن غيرها ، بل حادثة تتضمن استحياء لكل ميول حياته (أو « التثبيتات » كما يقال بلغة التحليل النفسى) وتركزها على موضوع متفرد متميز يمنح كل كنوز الماضى ،

things removed that hidden in thee lie

وقد كان المحبوب فى السوناتا كائنا انسانيا ، وشخصا حقيقيا من لحم ودم ، ولكن طبيعة الحب التى كشفها شكسبير تظل كما هى عندما تتعلق بأى موضوع آخر ، مهما بدت الصورة التى يركع عند مذبحها العابد من التجريد ، والجمود ، والبرود بالنسبة لبقية الناس ، وأولئك الذين يكرسون حياتهم لأمثال هذه المعبودات يقدمون تضحيتهم بلا شكاية وبلا من فليس أمامهم سبيل آخر للاختيار •

«And thou — all they — hast all the all of me».

هنا يكمن تفسير منهج فرويد المميز فى الحياة الذى لم يكن أكثر تميزا من منهج كثيرين ممن سبقوه من عظماء العلماء والدارسين وموقفه ازاء أولئك الذين مدوا لعمله يد العون وأولئك الذين وضعوا فى طريقه العقبات •

ويفسر كذلك امعان علمه الخاص ، أى التحليل النفسى ، فى استغراق كافة دراساته المبكرة وارهاصات البحث المبشـــرة التى بدأها من قبل فى الفسيولوجيا والأمراض العصبية ، وعلم العقاقير النفسية • (فمقالة عن

نبات الكوكايين قد أعطى الدلالة الأولى عن امكانياته الواسعة كمخدر) • ان هذا التخلى عن طموحاته السابقة لم يكن الا مقدمة لعملية دائمة من التكامل ادمجت بواسطتها كل اهتماماته السابقة فى وحدة جديدة • وقد اذعنت لنفس التغيير حشود الأفكار ، بأشـــكالها الغريبة المحيرة ، التى شغلت أفق ذهنه الواسع • ونمت وتكاثرت سنة بعد أخرى حتى فى أواخر عمره ، ولكنها كلها اشتقت من نفس المصدر وأســـتمدت مادتها من نفس التربة •

كان التحليل النفسى « الخيط الأحمر » المشهور الذى يدل على أن كل شذرة تنتمى الى الكل • (نحن نسمع عن نظام خاص للأسطول البريطانى. فكل حبال الأسطول الملكى ، من أضخم قلاع الى أصغر دوبارة ، تحتوى على خيط أحمر منسوج بداخلها بحيث لا يمكن نزعه منها دون فكها كلها وبذا ينطبع أصـــغر جزء بطابع التبعية للتاج • وعلى هذا النحو كانت مذكرات أوتيللا يسودها خيط عاطفة يربط أجزاءها كلها ويحدد خصائصها كافة (جوته ، فى كتابه اختيار الأقرباء ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى) •

كان التحليل النفســـى محور الاهتمام فى حياة فرويد • كانت الابرة المغناطيسية لحياته تشير الى هذا القطب ولا تحيد عنه أبدا • فلم تكن به حاجة لأن يعقد فى سبيل ذلك قرارا • وكان فرويد يعجب ويستشهد غالبا بكلمات كرمويل : « لا يبلغ المرة وطره ، ان لم يحدد مقدما هدفه » •

كما كان فرويد على استعداد لأن يوسع نطاق دراساته ويغزو ميادين المعرفة المتنوعة المتباينة كلما وجدها نافعة لبحثه • فهو مثلا قد قرأ عددا كبيرا من المؤلفين فلاسفة وســـيكلوجيين ، قدماء ومحدثين ، عندما أزمع وضع كتابه « تفسير الأحلام » وفى سبيل تأليف كتابه « النكتة وعلاقتها باللاشعور » شق طريقه خـــلال قدر جســـيم من المحاولات الاســـتطيقية (الجمالية) والفلسفية • علاوة على قراءته لكافة المؤلفين المشـــــهورين بنكاتهم أو روحهم الفكاهية ، مثـــل رابليه ، وســـرفانتيس ، ومولبيين وليشتنبرج ، وهاينى ونسترروا ، ومارك توين ، وسبيتزر ، ولاداعى للحديث عن المجموعات الهائلة من النكات والحكايات الشعبية وما على شاكلتها • وعندما أراد كتابة «الطوطم والتابو» اطلع على الحقائق الرئيسية والنظريات الأساسية ــ ولا حاجة لكليهما ــ التى جمعها أو ألفها أعلام الأنثروبولوجيا (علم الانسان) وعلماء سلالات الأجناس (الانثرولوجى) • ومن أجل « وراء » مبدأ اللذة « اضـــطر الى أن يدرس دراســـة الفاحص الخبـــير

البيولوجيا ، كما درس علم الاجتماع عندما أزمع وضع كتابه « علم النفس الجمعى » ٠

وثمة اهتمامات ، كان يأخذها مأخذ الهوايات دون باعث خارجي أو غرض خاص ولكن كان مآلها دائما الذوبان فى الفكر الذى يهيمن فيه التحليل النفسى على كل شىء ٠ وثمة حادثة من حوادث عديدة توضح هذا ٠ لم يكن فرويد يقضى أمسية واحدة بالمسرح ، ولكنه استثنى ليلة خصصها لمشاهدة مسرحية « الملك أوديب » عندما عرض المخرج المسرحى المشهور ماكس راينهارت مأساة سوفوكل فى فيينا ٠ وقابلته فى اليوم التالى وكان ممتلئا حماسا ، ولكن لم يكن التمثيل أو الاخراج سبب تأثره بل حادثة من حوادث المسرحية كان معناها الكامل قد زاغ منه حتى ذلك الحين أثناء قراءاته للمسرحية ثم اتضحت له عن طريق العرض المسرحى ٠ قال : « أنت تعرف أن المحتوى المكبوت يطفو دائما على السطح مكشوفا ، غير مقنع تقريبا ، ولكنه ذو بواعث ودوافع خفية بحيث يظل بمنأى عن الفهم ٠ (نحن ندعو هذا «عودة المكبوت») وهانحن نرى من خلال المسرحية أوديب الذى أقضت مضجعه النبوءة القائلةبأنه سب قتل والده وهو يعلم أن والده قد مات ٠ ولكنه ، فى الحقيقة ، ليس والده الفعلى ، بل الملك الذى تبناه ويعتقد أنه والده ٠ وعندما يسمع نبأ الموت الطبيعى لوالده الذائع الصيت ، ينزاح عن عقله النير الثقيل الذى سببته له نبوءة دلف ٠ ويتصرف تصرف المنتصر الصاخب وها أنت ذا ترى أن الفرح الناجم عن موت الأب ماثل بوضوح مثوله فى الجريمة نفسها التى يقترفها أوديب غير عامد ، مذعنا لمصيره » ٠

لقد عرف فرويد ماتعنيه سيادة فكرة واحدة مسيطرة على المرء ولكنه اعتبرها شرطا ضروريا لكل عمل عظيم ٠ وقد تحدث عن ذلك فى احدى محاضراته المبكرة قائلا « عندما كنت طبيب امتياز حديث السن بالمستشفى العام ، كان لى صديق لاح محاصرا بفكرة العثور على علاج جديد لأمراض العيون٠ ومهما كانت المشكلة الطبية المطروحة للبحث، كانت أفكارهوأسئلته تتجه دائما فى نفس الاتجاه أيمكن أن يستخدم هذا لفائدة العين؟ ــ حتى أصبح مضجرا بعض الشىء بسبب هذه الفكرة المتسلطة عليه ٠ حسنا ، وذات يوم كنت واقفا فى الفناء مع بعض الزملاء وكان بينهم ذلك الصديق، فمر بنا طبيب امتياز آخر مبديا علامات ألم شديد٠ «وهنا أخبرنا فرويد عن موضع الألم ، ولكنى نسيته، » فقلت له : « أظن انى أستطيع مساعدتك» وذهبنا جميعا الى حجرتى حيث استخدمت قطرات قليلة من عقار أزال الألم فى الحال٠ وأوضحت لأصدقائى أن هذا العقار قد استخرج من نبات بأمريكا

الجنوبية ، يدعى الكوكايين ، بدا انه ذو صفات تزيل الألم ، وكنت اعد عنه بحثا • ولم يقل شيئا ذلك الرجل الدائم الانشغال بالعين ، وكان يدعى كوللر ، ولكنى علمت بعد أشهر قلائل أنه احدث ثورة فى جراحة العين ، نتيجة استخدام الكوكايين الذى ييسر العمليات التى ظلت حتى ذلك الحين مستحيلة • **وهذا هو السبيل الوحيد لانجاز اكتشافات ذات قيمة الا وهو : تركيز كافة أفكار المرء على موضوع يكون مدار كل اهتمام •**

ومثل هذا التفانى المطلق فى خدمة هدف واحد متفرد فى الحياة ليس بالأمر النادر ولا بالقيم الثمين فى حد ذاته • اذ أنه يمكن أن يتنوع ابتداء من جنون تجميع التحف الى أسمى الأهداف ، ويمكن أن تجعل صاحبها جدبا ممحلا أو تحيله الى مصدر سيل دائم من الالهام ، فالأمر يتوقف على ما اذا كانت تستخدم وسيلة لتحرير الذات أو أداة للتغرير بها • فكثير من العقول قد صغرت حتى صارت كرأس الدبوس نتيجة لقصر الاهتمام على موضوع معين ، ولكنه بالنسبة للقلة المصطفاة أستخدم كوسيلة للامتداد على الأرض وصوب السماء • وكان بالنسبة لفرويد مصدر عطاء لكون جديد فوهب نفســــه كلها فى مقابل ذلك ما كان يمكن أن يقوله • فلم يقله ، بل عاشه •

انت القبر الذى فيه يعيش الحب مدفونا
تدل عليه أنصاب أحبائى الراحلين
الذين أسلموا اليك كل ما ظفروا به منى
هوذا الآن كل ما يخص كثيرين غيرك
قد أصبح ملكك أنت وحدك

قد يبدو هذا للمتعجل نوعا باردا من الهوى ، لأنه لم ينجسم أبدا فى كلمات ضخمة ، وأعمال تأكيدية أو فى انفجارات انفعالية ، لكنه اندلع فى لهيب ثابت يذوب فى لفحه كل شىء وفرض مثل أية عقيدة أخرى ، على حياة المؤمن قيودا ونظما قاسية ، فتشكل بحسب أمره وسلطانه كل شىء فى حياة فرويد بإبتداء من التفاصيل البسيطة لروتين الحياة اليومية حتى اللحظات الحاسمة التى تتخذ فيها أخطر القرارات •

ولم يلتزم فرويد وحده بهذه القيود راضيا ، بل التزمها أولئك المحيطون به كذلك • وكان اندماج أصـــدقائه فى طرقه ومنهج حياته نتيجة انتخاب طبيعى ، فقد أسقط من الحسبان قدامى الأصدقاء الذين ينتمون الى فترة

ما قبل التحليل النفسى ، أعنى قلت فرص لقائهم دون أن يستبعدوا تماما وشغل مكانهم أولئك الذين يسهمون فى عمله ، أعنى حلقة الاتباع المقربين

ومن المثير للملاحظة أن عائلته — أعنى زوجته وأخت زوجته والاطفال ساروا على نفس الدرب ، دون أدنى تذمر · لقد أتى على فرويد حين من الدهر — وكان قد انقشع عندما توثق اتصالى بالعائلة — ضحى فى اثنائه — عمله المزدهر ليكرس نفسه كلية لعلمه الجديد · وتضاءل بسرعة دخله عن طريق الوظيفة ، وهو الوسيلة الوحيدة لحفظ نفقات المعيشة ، فى الوقت الذى تزايدت فيه عائلته (ستة أطفال ثلاثة أولاد وثلاث بنات ولدوا فى أقل من عشر سنوات) وكان الحاضر مقبضا والتطلع الى المستقبل مثبطا · وكان موقف الأصدقاء والمعارف عامة موقف الاشفاق على المرأة المسكينة ، التى كان زوجها فيما مضىعالما ماهرا ، فاستحال مأفونا منفرا ولكنها ما اهتزت فى اعجابها بزوجها — وأكاد أقول عبادتها له · (ولست أدرى مدى ادراكها لقيمة عمله، كان ذكاؤها وتربيتها كافيين بالتأكيد لذلك) ، ولكنى واثق أنه كان فى عينيها عظيما قبل أن يخط كلمة من كتبه وبعد ذلك أيضا · وظل كذلك بالنسبة لها حتى النهاية (فى وقت كتابة هذه السطور عام ١٩٤٤ تعيش حرم البروفسور متقدمة فى العمر فى لندن وموضع حفاوة وتكريم من كافة الذينيعرفونها مثلما كانت فى فيينا) · وقد شاطرها أطفالها ولاءها · وكان أصدقاء العائلة يسخرون عادة من الطريقة التبجيلية فى حديثهم عن كل شىء يتعلق بوالدهم · فقد قيل مثلا أنه اذا تغيب أحد الأطفال بعض الوقت ثم قابل طفلا آخر منهم فأول كلمة يقولها الحاضر للغائب : الوالد يشرب الشاى الآن من الكوب الأخضر بدلا من الأزرق وأمثال هذه النكات والنوادر تحوى دائما بذرة حية ، بل أكثر من بذرة من بذور الحقيقة · فقد دارت حياة العائلة حول الوالد مثلما دارت حياة الوالد حول عمله ، ولم تنطق الشفاه بهذا قط ، فليس ثمة حاجة للكلمات والأقوال ، مادامت الأفعال تصدر عن سماح وتلقائية ·

كانت الأختان ، مارتا وميتا ، أو حرم «البروفسور» و «تانت مينا» مختلفتين تماما فكانت « حرم البروفسور » فى مظهرها الخارجى ضئيلة الحجم نحيلة العود كثيرة الحركة مثال ربة البيت المعنية دائما بوضع كل شىء فى موضعه أو تنظيفه وتفريشه وكانت تانت مينا بائنة الطول على غير نحول ، أميل الى الامتلاء والاعتماد على الذات مقلة فى كلامها على ثقة وذكاء ، وكانت كلتا السيدتين تحمل سيماء المربيات — لعل مرجعه الى كلامهما وسلوكهما على طريقة أهل هامبورج ، لأن خبيرة

المربيات فى فيينا كن يأتين من هامبورج (أعتقد أن كليتهمـا كانت بالفعـل مربية ، ولكنى متأكد من ذلك فقط بالنسبة لتانت مينا) · وكانت الأحباث الذهنية والناصـب المدرســية فى عائلتهما لأجيـال عـديدة · فقد كان احد أسلافهما ــ أعتقد أنه جدهما ــ هو الكاهن رابى برنيز من هامبورج الذى ذكر مرارا فى خطابات هينريش هاينى كرجل على مستوى عال من الذكاء وثمة برنيز آخر ، وهو العم الأكبر على ما يبدو وكان على علاقة أوثق بالشاعر الكبير · فقد كان يشرف على تحرير جريدة راديكالية تصدر باللغة الألمانية فى باريس فى الأربعينيات ، تدعى الطليعة نشـر بها هاينى بعض أشعاره · وقد أرسل الشاعر « التحيات الى برنيز » فى خطاب الى كارل ماركس الذى كان يتعاون أيضا مع الطليعــة · وكان عمهمـا البروفسور يعقوب برنيز من جامعة هيدلبرج دارسا مشهورا ونالت مؤلفاته تقديرا كبيرا واستخدمها الباحثون الكلاسيكيون فى فقه اللغة (الفيلولوجيا) وقد استمر هذا التراث فى شخص الخالة مينا التى كانت قارئة بشكل خارق للعادة كما كانت ذات موهبة فى التمييز النقدى (الحاد فى بعض الأحيان) وسرعان ما وجدت أنها وأنا كنا معجبين جدا بنفس المؤلف تيودور فونتين وأصبحنا أصدقاء نتبادل الكتب وخاصة مجموعات المكاتبات والاقتباسات·

أما حرم البروفســور كما ذكرت فقد كانت نموذجا لربة البيت وكانت دقيقة جدا فى ترتيبها ونظامها · ولكن من ناحية واحدة فقط لم تكن تتفق مع هذا الوصف ·· فلم تكن تحب أن تكون موضع سخط خادميها كما كان الأمر عادة لمثـل هذا النوع من ربات البيوت · ولهذا كانت شعبية معهم · ومعظمهم تقريبا ظلوا يعملون بانتظام فى البيت لمدة عشر سنوات وعادوا اليه ــ وأحدهم عاد من أمريكا ــ فى المناسبات الهامة مثل زواج كبرى البنات وترجع هذه الغرابة أو المفارقة فى طبعها الى طيبتها الكبيرة واحســاسها الانسانى العميق مما جعلها لا تفضل حالة الأثاث على حياة الانسان · وأبدت عطفا كبيرا فى البحث عن هدايا عيد الميلاد المناسبة لكل من كانوا مرتبطين بخدمة الأسرة لا من العاملين فقط ولكن من أقاربهم أيضا « ونشـير أيضـا الى ابنة شقيق اللبان » · وهذه العبارة صدرت طبعا من الخالة مينا ·

واشتهرت السيدتان شهرة كبيرة لجمال ودقة أشغالهما بالابرة · ·· وأثناء الحرب العالمية الأولى أعطيت بعض أعمالهما الرائعة للسيدة صاحبة محل التبغ الذى اعتاد فرويد أن يشترى منه سيجاره (فى عملية تهريب الدخان) من أجل ارضائها حتى تقدم لفرويد اكثر من النصاب المقرر ·

وتلك واحدة من الخصــائص العديدة التى تصور كيف كان التفكير والعمل بالنسبة الى كل شىء يتم بطريقة أو بأخرى فى ارتباط وثيق بالمركز

الرئيسى المشترك • وسيكون من الخطأ على أى حال أن نرى فى شخصه ضربا من الوثن Moloch يتحتم أن تسفح عند أعتابه قرابين السعادة والراحة يوميا • وكان فرويد رأس عائلته ولاشك ، ولكنه كان أيضا جزءا منها غير متعال عن حياتها وأحداثها السارة وغير السارة ، وان شغل عمله مكان الصدارة منها ومنه • وكان جو المنزل وئاما وسلاما• ولم تتكشف لى قط العلاقات الداخلية الخاصة بين أولئك الذين يعيشــــون فى رحابه • فلم يكونوا عائلة من ذلك النوع ولم تحدنى رغبة لاستطلاع أسرارهم •

كان فرويد « الأب بالنسبة للأطفال » وسيجى « اختصار سيجموند » بالنسبة للسيدتين • وكان « البروفسور » فى دائرتنا من الأصدقاء والاتباع ويبدو أن هذا التقليد قد انتشر بعدا وسعة فقد وجدت فى أوروبا وفى هذا البلد أن فرويد يقع من نفوس الناس موقع « البروفسور » أكثر من كثير من العلماء الآخرين الذين يستحقون نفس اللقب ، فالبروفسور اينشتاين مثلا • وقد وقع هذا من نفسى موقع التفكه ، لأن فرويد لم يكن بروفسور « أستاذا قط وما كان بمقدوره أن يكونه• وفهم هذه الحقيقة يحتاج منا جولة قصيرة فى غمار الألقاب الأكاديمية فى فيينا والجامعات الألمانية عامة •

اعترافا بقيمة أبحاثه فى الأمراض العصبية المنشورة بعنوان : الشـــلل النصفى الدماغى فى أعمار الأطفال •
Die cerebralen Hemiplegien des Kindesalters
أصبح فرويد محاضرا Privat-dozant بالطريقة المعتادة : ترشيح بواسطة الكلية وتعيين بواسطة وزير المعارف العامة • وهذا يعنى أن له حق المحاضــــرة بالجــامعة ، لكنه ليس مــــكلفا بذلك • أما لقب (المكلف بالتدريس (فكان امتياز أعضاء الكلية ، من الأساتذة المساعدين والعاديين (يماثل ما عندنا من « الأساتذة المساعدين » و « الأساتذة ») وكان الأمل فى الترقى الى هذه الحلقة المقدســـــة دون مناله ــ وهو رجــــل خارج الدائرة وبدون « صلات » ، ويهودى ــ كما أن علمه الغريب المستهجن قضى على كل أمل فى ذلك •

وقد أخبرنى فرويد بنفسه بالحادثة التالية : قام وزير المعارف (أظن أنه كان يدعى هارتل) بزيارة لمنزل سيدة فينوية ثرية وقادته ربة البيت خلال بهو الصور وتصادف أنها كانت من بين المرضى الذين يترددون على فرويد، وأعجب فخامتهبصورة للرسام السويسرىارنولد بوكلين، الذى كان فىقمة شهرته حينذاك ثم أخذ ينحدر منها بسرعة ورغب الوزير فى صــــورة تدعى

أطلال القلعة لوضعها بأحد المعارض العامة التى كانت تقع تحت اشرافه (أظن أنه كان يدعى المعرض الحديث وكان حينذاك فى دور التكوين ، وكان وجود معرض حديث بدون صورة لبوكلين أمرا لا يتصور فى ذلك الحين) وألح فى طلبها • فقالت السيدة بشىء من المزاح أنه يستطيع أخذها بشرط أن يخلع على المدرس المساعد Privat-dozent فرويد لقب أستاذ غير عادى » وتمت الصفقة برضى الطرفين •

ولكن اللقب الجديد لم يحدث تغييرا فى وضع فرويد الأكاديمى ، فلم تكن له حقوق عضو الكلية ولا واجباته • وبعد مضى فترة من الوقت ، أى بعد الحرب ، عندما طبقت شهرة فرويد الآفاق ، منح بلا حياء لقب « استاذ عادى » ولكن دون أعطائه مقعدا فى الكلية وما كان ليقبله حينذاك ، نظرا لبلوغه السبعين وانشغاله بأشياء أكثر أهمية بالنسبة له • وهكذا لم يكن « الأستاذ » الذى علم الدنيا جديدا أستاذا فى واقع الأمر ، أعنى معلما أكاديميا منتظما •

أما فرويد نفسه فلم يكن الأمر ليقع منه موقع الاكتراث • فما داخله الوهم لحظة فى عدالة وســـلامة أدراك التافهين عندما يتنســمون مناكب الســلطة وقد اتضـــح لى جانب من وجهة نظره خـــلال احدى نزهاتنا وأحاديثنا الليلية • كنا منفردين ، فقد كان رانك متغيبا لســـبب لا أذكره الآن • فعبرت عن شكواى من أحد أعضائنا الذى لم يكن محللا، بل مشتغلا بالفولكلور • وكانت صـــلته بالتحليل ترجع الى اهتمامه الزائد بالأمور الجنسية ، وكان يجمع المواد وينشرها فى شكلها الخام دون أن يستخرج منها فائدتها العلمية « أو هذا على الأقل ما بدا لى حينذاك وان لزمنى الاعتراف بأنه قد أدى بعض العمل الجانبى الذى لا يخلو من قيمة حـــول الموقف الشائع ازاء الجنس والأمور المتعلقة به كما تبدو فى الأســـاطير ، والنكات ، والكتابات على الجدران •• الخ) • وكان فى هذا المساء قد قام ببعض المساهمات القيمة فى مناقشاتنا ولكن ينقصها التهذيب ، فقلت بشىء من الامتعاض أنه لا يتفق بحث المشاكل الجنسية مع التعلق بالأمور الغريبة الشاذة • وأشرت الى أن على من يريد المساهمة فى عملنا أن ينأى بنفسه عن ذلك وعن كل ما يشين كأنه أحد الفرسان المدافعين عن العفة • فأجاب فرويد برقة غير عادية فى صوته : «انك محق فيما تقوله عن ن•ن• فهناك قدر كبير من الهوس الجنسى فيما يفعله • ولكنك ترى ، أن كثيرين من الأساتذة والمدرسين المبجلين يفكرون ويتصـــرفون بكل الطرق الحقيرة ولا يؤاخذون لأنهم يتسترون خلف واجهـــة مزوقة وتظاهـــرهم الســـلطة

الرسمية • فلماذا نتعنت مع هذا الرجل الذى لا يفوقهم سوءا لمجرد أنه يعرض نفسه للنقد بأخلاصه ؟ « فلم أعد أشعر من وقتها بكبرياء الصليبى الشرير الذى يسعى للوقيعة » •

لقد رحب فرويد عموما باستبعاده من الوظائف الأكاديمية مما جنبه مشاكل لا ضرورة لها ووفر له وقتا يحرص عليه • والقضية التى كرس لها حياته متفانيا لم تكن ذات صلة بنوع العمل الذى يتم فى اجتماعات الكلية ، فلقد استبعد من حياته كل مالا يلتقى مع هدف حياته على اتفاق • فما خلقت لأجله الزيارات ، والدعوات الاجتماعية ، ــ والحفلات • ولكنه ما افتقر وقتا لاستقبال الأصدقاء ساعة يلتمسون معونته ومشورته ، ما بدا أبدا على انشغال أو عدم احتفال فى اصغائه اليهم ولو فى أشد الأيام ازدحاما بالأعمال ومانسى قط أن يعودهم ان عدى عليهم المرض ، ولكن نادرا ماتعدى ما يبذله من الوقت على الوظائف الاجتماعية الربع من الساعة • وكان قضاؤه أمسية بالمسرح أمرا نادرا • لم يحدث منه هذا الا عندما كان يستلفت انتباهه عرض مسرحية ذات أهمية خاصة ، مثل أوديب أو هاملت • وكان يزور متحف الفن والاعمال المعمارية ، وما تعلق منها بمصر القديمة خاصة ، فى أيام الآحاد ما وسعته الزيارة ، وما كانت أمثال هذه الزيارات تفوته قط اذا ما عرض عمل أثرى ذو أهمية خاصة ، مثل اللوحات الهلينية فى العصر السكندرى • وما شذ عن هذه القاعدة الحازمة من التركيز سوى حفلة لعب الورق فى أمسيات السبت ، عندما كان يلعب مع بعض قدامى الأصدقاء الذين لا يقلون عنه خبرة فى لعبة الورق الفينوية التقليدية التى تدعى «الطاروقة» والتى أضافوا اليها بعض الزيادات الخاصة والتعقيدات •

وكان روتينه اليومى كالآتى : العمل مع المرضى من التاسعة صباحا حتى الواحدة بعد الظهر • ثم تنـاول وجبة الظهيرة مع العائلة • وتعقبها ساعة من السير على القدم تكرس عادة لزيارة بائع الكتب والحلاق ، وبائع السيجار ، أو بائع العاديات بحثا عن تحفة جديدة يضيفها الى مجموعته • وكانت الساعة التالية تخصص للاستشارات الطبية التى كان يجب أن تحدد مقدما • ثم العمل مع المرضى حتى السابعة أو السابعة والنصف وكان نظام أمسية فرويد دقيقا كذلك ولكن كان ثمة تنويع قليل فى ضروب نشاطه • كان معتادا عند عودته الى ثكنات العائلة أن يعبر عن ارتياحه لانقضاء الشطر الأول من اليوم بأحداث صوت مرح يجمع بين الزمجرة والهمهمة يستدف به ابنته الصغرى عادة وبعد أن يتناول وجبة المساء ينسحب الى مكتبه ، عدا أيام الثلاثاء التى كانت تخصص لاجتماعات جمعية التحليل النفسى وأيام

السبت التى كان يكرس لها شطرا من عصرها لاعداد محاضرته وشطرا من مسائها لالقائها ، ثم ينصرف الى لعب الورق • وحوالى مرة فى الأسبوع كان رانك بمفرده أو هو وأنا نزوره لتناول العشاء ثم نبقى معه بعد ذلك ساعات عديدة ، نعد الطبعات التالية من الدوريات ونناقش المقالات التى حازت القبول • ولا أبالغ اذا قلت ان فرويد قد قرأ وأقر كل مقال أعد للنشر فى كل دورية من الدوريات(*) التى كان يرأس تحريرها مهما كان طول بعضها أو فتوره •

وكنا بعد أن ينتهى العمل الفعلى نجلس ساعات فى مكتبه الذى يكون قد أفعم بدخان السيجار • وفى ظل التحديق الصامت للأوثان والآلهة التى جسمت فى صور الحيوان نستمع الى بعض المقالات الجديدة من فرويد ونناقش انتاجنا ، أو نتحدث عن الأشياء التى تهمنا فحسب • وكان فرويد فى هذه المناسبات الليلية غالبا ما يبدع فى جملة أو اثنتين ، صورة كاركاتيرية لشخصية من الشخصيات • فذات مرة ، مثلا قال بعد زيارته لصديق قديم كان فيما مضى فى مجال السياسة شخصية مرموقة « أسد عجوز ، يكاد يصبح غطاء سرير » •

وفى الأمسيات الأخرى ، كان فرويد يعمل بمفرده ، دارسا كاتبا حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • وعندما عبرت لمدام فرويد عن افتقاره الى النوم، أجابتنى أنه يروح فىالنوم حالا ويستيقظ فى نفسالموعد بلا ابطاء كل صباح • (كانت هذه القدرة ، على اطفاء طاقته العقلية فى أقصر وقت ، واشعالها فى كامل قوتها حسب الارادة ، صفة ملحوظة فى نابليون) •

وليس من المستغرب أن يكون الانتظار عداء أصيلا لرجل يحرص على وقته كل هذا الحرص • فذات مرة قال لى مازحا : « ما عرفت شيئا أكثر سرفا من كل ذلك الفحم اللازم لاذكاء نار الجحيم • كان الأفضل اجراء المحاكمة المعتادة مباشرة والحكم على المذنب بالشىء مئات الالوف من السنين ، ثم يساق الى الحجرة المجاورة ويترك لينتظر فحسب اذ سرعان ما يصبح الانتظار عقابا أسوأ من الحرق بالفعل » •

ولكن التناقض سمة الطبيعة الانسانية • فقد كانت المناسبة الوحيدة التى يضيع فيها فرويد وقته عبثا هى اذا ما اضطر الى حجز مكانه من

(*) الكتاب السنوى ومجلة العصر وايماجو وكتابات حول علم الروح التطبيقى .

القطار • فكان يذهب قبل الموعد بوقت طويل ويضطر الى الانتظار بالمحطة ساعة أو أكثر •

كان فرويد يدخن طول النهار بلا انقطاع ، بمجرد أن ينتهى من افطاره حتى يذهب لفراشه ، فقد كان مدخنا مدمنا بكل معنى الكلمة • وكان مقننه اليومى عشرون سيجارا من نوع يدعى ترابوكوس وهو خير ما تحتكره الحكومة النمساوية من منتجات التبغ • كان مغرما بالتدخين حتى أنه كان يشعر بالحرج ان كان المحيطون به من غير المدخنين • ونتيجة لذلك أصبح أغلب الذين كونوا الدائرة الداخلية مغرمين بتدخين السيجار على درجات متفاوتة وبعد أن ألم به المرض وما استتبعه من عمليات متنوعة اضطر الى أن يخفض مقدار ما يدخنه بدرجة ملحوظة ، ولكنه لم يقلع عنه تماما حتى فى الأسابيع السابقة لوفاته وقد استمر يمنحنى السيجار المعتاد كلما رآنى حسب عادته دائما • وقد رفضته ذات مرة قائلا اننى انهيت لتوى سيجارا • فضحك من قولى هذا — وكانت هذه آخر مرة سمعته يضحك فيها •

ولم يكن فرويد ليأبه للعطلات العـــديدة التى تقررها نتيجة فيينا الكاثوليكية • فهو ماكان يحب أن يقطع ايقاع عمله بفترات قصيرة من الراحة ، ولكنه كان كل عام يأخذ أجازة صيفية طويلة تستمر ثلاثة أشهر كاملة ، « تبتدىء » من نهاية يونيه الى نهاية سبتمبر وكان يقضى الشطر الأول منها مع عائلته فى بعض المصايف الالبية ، أو ألت سزية ، أو بمصيف من جزر دلماشيا ، وكانت الأسابيع الأخيرة تخصص للسفر والتجوال فى ربوع ايطاليا ، بصحبة أخيه أو فرنشيزى غالبا • وقد ظل سنين عديدة بمنأى عن زيارة روما ، وهى هدف رغبته القوية ، لاعتقاده أنه فى سبتمبر يكون المرء هناك أكثر ما يكون تعرضا لمرض الملاريا • وبعد أن اكتشف أن هذا الاعتقاد ، مثل كثير غيره ، قد أقيم على مجرد التوهم (وهذا ما قاله فى تفســـير الأحلام) لم يكل أبدا عن استكشاف المكان وأن يعيد فى مخيلته بناء مدينة القياصرة وروما فى عصر النهضة • وفى الســـنوات الأخيرة من حياته ، أصبحت أثينا منافسة لروما فى زياراته •

وكانت رحلته الى الولايات المتحدة أقل رحلاته نجاحا ، برغم أنها بدأت فى ظل أكثر الظروف ملاءمة • وكانت الدعوة الصادرة عن جامعة كلارك ليلقى سلسلة من المحاضرات ويتقبل درجة شرفية بمناسبة عيدها العشرينى أول اعتراف عام بعلمه الجديد ، وأصبحت المحاضرات نصرا مبينا • كما أن فرويد كان ممتنا لما أظهره نحوه البروفسور ســـتانلى هول ، عميد الجامعة ، من مجاملة ، كما كان يشعر باحترام خالص نحو البروفسور بتمان

فى بوسطن الذى أخذ على عاتقه الدفاع عن التحليل « النفسى اللاأخلاقى » بالرغم من «خلفيته» البيوريتانية المتطهرة • وما كان عبور المحيط له مكدرا فقد كان فرويد بصحبة خير أصدقائه ، فرنشيزى ، وجونز ، ويونج • وقد قال فى تاريخه الذاتى القصير (حياتى ١٩٢٥) : « كنت أشعر فى أوروبا كأنى مذنب « وهاأناذا أرى أفاضل الرجال يستقبلوننى كأننى صنو لهم •• وعندما اعتليت مقعد المحاضر فى ورشستر لألقى محاضراتى الخمس عن التحليل النفسى بدا لى الأمر كأنه تحقيق لحلم يقظة خيالى • فلم يعد التحليل النفسى وهما ، بل قطعة ثمينة من الواقع « ولكن كل شىء من هذه الرحلة جانب طريق الصواب وعاد فرويد الى وطنه مثقلا بانطباعات قاتمة عكرت صورته عن امريكا طول الوقت • وبعد سنوات قليلة قال لى : « امريكا أعظم تجربة شهدها العالم ، ولكنى ، أخشى ، أن أقول أنها ليست فى طريقها الى أن تكون تجربة ناجحة » •

وما أعرفه عن هذا الأمر يرجع الى ملاحظات عارضة وأوصـــاف جزئية سمعتها منه فيما تلا ذلك من سنين ، من ســوء الحظ انه وقت زيارته للولايات المتحدة ـ ١٩٠٩ ـ كانت سـيطرة الحيــاء والكبت على أشدها وما كان بمقدور أحد غير حفنة من أدق الملاحظين نظرا التنبؤ بما سيطرأ على هذا الموقف من تغيير • كما أن فرويد قد اتعبه وآلمه أن يكون محط الأنظار طول الوقت ، فقد كان هذا ما يخالف طبيعته • وثمة جانب آخر من استجابته أمكننى أن أكونه فيما بعد نتيجة لخبرتى الشخصية • وهو : أن أفضل شىء بالنسبة لمن يزور قطرا من الأقطار هو أن يسمح له بأن يختار بنفسه ما يريد رؤيته ويعطى من حين لآخر لمحة عن كيفية الاستفادة منه • ولكن معظم أصدقائى الامريكيين يستبد بهم الفضول اذا ما وقع فى أيديهم زائر ذو مكانة خاصـــة(*) • وهكذا يصـــبح بعض الناس ، وخاصـــة أولئك الذين يتمتعون بارادة مســتقلة ، على كدر وضيق اذا ما دفع بهم من مكان الى آخر ليروا أشياء لا تستثير منهم اهتماما •

وكان العمل مع المرضى يتوقف تماما أثناء العطلة الصيفية الطويلة المدى • فقد اعتاد أن يقول ان مريضـــا واحدا يربط أفكارك بمشـــاكل التحليل مثل نصف دستة منهم • وقد تغير كل هــذا عندما جعل مرضه السفر مضنيا والبقاء فى مكان ناء عن طبيبه امرا خطيرا • فكان يترك

(*) تغير كل هذا الآن طبعا نتيجة الهجرة الواسعة النطـاق التى جعلت الرجال ذوى الشهرة الاوربية برخص التوت الاسود .

« المترجم »

فيينا كل صيف لفترة غير محددة ويذهب الى الجبال المجاورة ، مستأجرا منزلا ذا حديقة ليتمكن من البقاء بمعزل عن تطفل الزائرين الفضوليين الذين تزايدت رغبته فى تجنبهم أكثر من ذى قبل. اذ بالاضافة الى كراهيته العامة للظهور امام الناس اضيفت حساسيته بالتشويهات التى سببتها العمليات والأعضاء الصناعية فى فمه • وفيما تقدم من سنين كان يقضى اصيافه بأحدى ضواحى فيينا ذات الحدائق ، أولا فى بتسليندروف ثم جرينتسيح •

وأصبحت الدائرة التى يتحرك فرويد فى نطاقها تتزايد ضيقا وتحديدا ، ولكن احتفاله بأى شىء يتسم بالجمال ظل كما هو : فكان يلاحظ كل ما يجرى فى حديقته بنفس الحماس ويدلى لأصدقائه بأشياء عديدة بالغة الطرافة مثلما يخبر عن فن حضارة البلاد الأجنبية وماضيها البعيد ، تلك التى تناولها بالدراسة فى أوقات أوفر شبابا • لقد تأمل دورة حياة الزهرة ، فى نموها وتحللها وبعثها ، بنفس العين التى نظر بها الى الصراع بين ايروس وغريزة الموت فى تاريخ التطور البشرى(*) •

فى هذه السنوات المتقدمة من حياته لم يقطع عمله التحليلى منصرفا عنه ، بل قصره على الحالات العاجلة أو المرضى ذوى الحيثية الخاصة •

ان أشهر العطلة الثلاثة التى واظب عليها فرويد عندما كانت صحته فى ابانها قد هيأت له من وقته فسحة للكتابة • وقد أحسن الاستفادة من

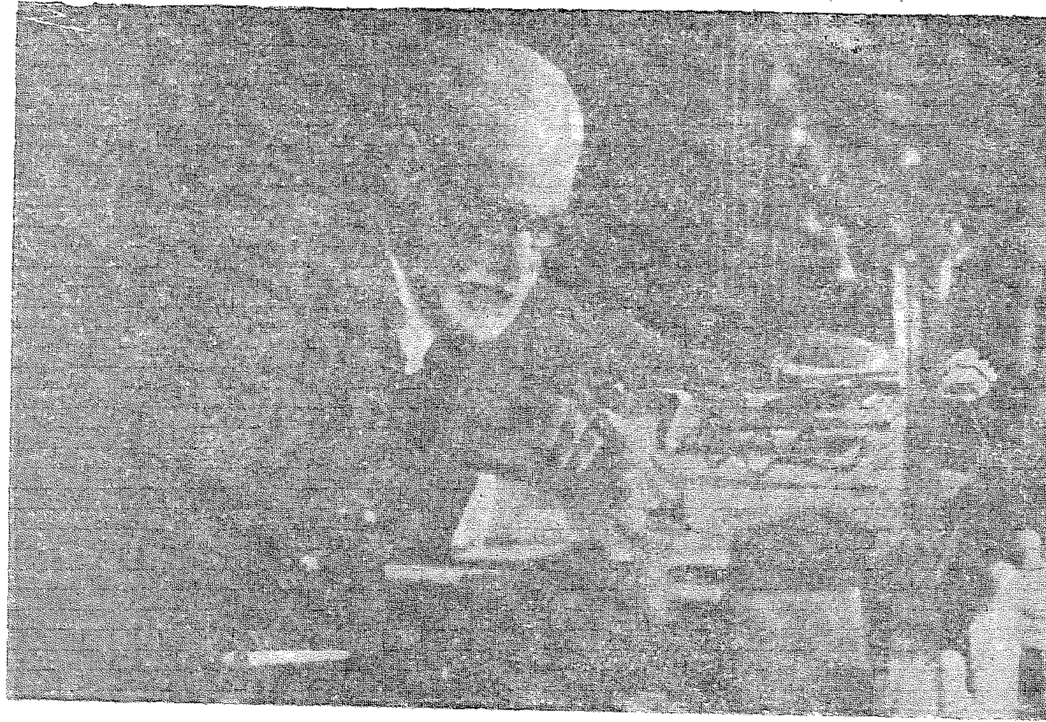
(*) الايروس عند فرويد هو الحب • هو المطلع من اللاوجود الى الوجود • هو غريزة الحياة التى تتجه بالكائن من الحالة اللاعضوية الجامدة الى الحالة العضوية • ولكن هذه الغريزة تصارعها غريزة اخرى هى تناتوس (اله الموت عند الاغريق) أو غريزة الموت وهدفها الاسراع بالكائن العضوى الحى فى أقصر طريق صوب الموت • وكاد الأمر يكون كذلك بالنسبة للكائن الحى لو لم تنازعها غريزة الحياة •

وثمة تجربة للشاعر العربى ميخائيل نعيمة ، يعبر فيها عن ذلك بحدس الفنان :

هلمى ، هلمى نحى القبور
وتمتص منها رحيق الدهور
عساانا اذا ما راينا قبورا
يفتق منها الربيع الزهور
عرفنا بأن الفناء بقاء
وأن الحياة قبور تدور

« المؤلف »

هذه المناسبات الذهبية ، ولكن من الخطأ الزعم بأن عمله قد انجز نتيجة لما توافر لديه من وقت ، بل على النقيض ، لقد كان قادرا على المضى قدما فى أشد الأعمال صعوبة واستغراقا للفكر رغم الروتين اليومى الدقيق الذى كان يشغل ساعاته وافكاره من الصباح حتى المساء . فبعض الأعمال التى تطلبت أكبر قدر من التركيز اقتضت تجميع مواد جديدة أو تنمية دراسة غير متوقعة، مثل الطوطم والتابو Totem and Tabo قد كتبت خلال الجهد والعناء اللذين يقتضيهما روتين التحليل النفسى العلاجى ولم تتأثر صياغتها الدقيقة فى ظل هذه الظروف التى أقل ما يقال فيها انها لم تكن ملائمة كما أن فرويد لم يقلل بسببها من ضروب نشاطه الأخرى . « فهناك دائما وقت لمتاعب الحب » .



Freud in his Study

فرويد في مكتبه

الفصل الخامس

بروز واضح

كيف يتم عمل التفكير المبدع ؟ وكيف تدخل الأفكار الجديدة والأصيلة مجال التصور ، وكيف تبعث الى النور آخر الأمر ، بعد أن يكون قد تم نضجها ؟ ان أولئك الذين يعيشون عن قرب من عقل ذى سيادة أستاذية يجب أن يكون فى مقدورهم ابلاغ العالم عن ذلك ، ولكنهم لا يستطيعون أن يتعلموا منه أكثر مما يعرف هو نفسه • ولن يكفى هذا للاجابة على مشكلتنا مادام استبطان الشاعر ، والفنان ، والعالم ــ بما فيهم السيكلوجى ــ يضلل بالطرق التى يتحرك بحسبها الهامه(*) •

عندما يشيد رجل مثل فرويد أسلوب حياته بطريقة دقيقة التخطيط بقصد افساح المجال أمام عمله الباحث ، فثمة شىء يمكن تعلمه عن الصحة النفسية التى وجدها ذات فائدة • وتكون لدينا على الأقل الفرصة لملاحظة الشمع الذى طبع عليه خاتم ارادته • وعلى هذا يكون من المناسب هنا البدء بتعداد ضروب النشاط التى كانت قوام عمله اليومى •

(*) ان اللاشعور هو ذلك الجانب من النفس الذى يشترك فيه أفراد الانسانية جمعاء • وهو يتضمن كل ما لا تقره الذات أو الأنا • وقد أصبح اللاشعور كذلك نتيجة حيلة دفاعية يقوم بها الأنا تدعى « الكبت » • ولكن المحتوى المكبوت يتحرق شوقا الى الظهور من أعماق « اللاشعور » الى مستوى « الوعى » أو الشعور • وهو فى سبيل ذلك يتخذ سبلا كثيرة أهمها : الأحلام وأحلام اليقظة وأحلام اليقظة المتبادلة ، والابداع الفنى وفلتات اللسان • ولكنه حين يظهر الى سطح « الوعى » لا نعرف مصدره العميق الخبىء والقوة التى دفعت به الى السطح • فيظل المريض يأتى أقوالا أو أفعالا لا يعرف سببها وباعثها • والتحليل النفسى احدى الوسائل الرئيسية واهمها فى سبيل تبصير المريض بحقيقة هذه الأقوال او الافعال التى تصدر عنه وتبدو له غريبة عليه •
« المترجم »

ان ثماني أو تسع ساعات من التحليل العلاجي أو التدريبي (ليس ثمة خلاف علمي أساسي بين هذين النوعين) تكون في حد ذاتها عمــلا يوميا مضنيا • ويمكنني أن أشــهد بذلك بعد خبرة دامت زهاء خمســة وعشرين عاما • ولست أتحدث عن النشاط الذهني وضــرورة الانتباه الدائم اللذين يجب أن يعتادهما العاملون بأذهانهم • ولا يستحق أن يذكر على حدة التوظيف الدقيق للذاكرة ، ذلك الذي يدهش المشــاهد ، لأن النتيجة الطبيعية لموقف المحلل ازاء المادة التي يمارس عليها عمله • وهو يكتسب هذا الموقف بتحليله الخاص لذاته ذلك التحليل ينتج عن التوظيف التلقائي الناعم للاشعوره متى احتاج اليه ، والا ظل معوقا بمقاومته الخاصة ، ولم تغنه ارادته الطيبة أو محاولته الدائمة فتيلا(*) ولا ينتج الخطر الحقيقي (الذي لا يستطيع استبعاده خير مران تحليلي) ، عن استخدام اللا شعور الخاص بحرية ، بل عن خطر المبالغة في ارخــاء سيطرة الأنا الواعية •

ان فهم عقل شخص آخر – فيمــا عدا العمليات الذهنية التجريدية والرياضية ، أو المنطقية – يعني الدخول في بارقة أو سلسلة بوارق من التقمص مع هذا الشخص نفسه • ويعتمد عمق الفهم على كثافة التقمص لا طول مدته • فعلى هذا القانون يقوم الفهم التحليلي • فاللاشعور هــو ذلك الجزء من العقل الذي يحوي الانفعالات والخبرات الأكثر شــيوعا بين أفراد النوع البشري • فهو على هذا يقوم بأكثر الأدوار أهمية في عملية التقمص هذه واذا أفلت زمامه جمح وعدا بعيدا عن الوضع الصــالح لأغراض التحليل • فأي صراع بين الهدف الشعوري واغراء اللاشعور يتجه نحو احداث مقاومة ، مع كل ما ينتج عنها من نتائج معوقة • وهذا يجعل التحليل الذاتي المستمر الى مالا نهاية فرضا ضروريا على كل محلل حتى يضمن ضبط النفس المستمر الذي يحفظ الفاصل ثابتا بين علاقات الشخصين ، رغم اقترابهما الوثيق وتشابكهما العارض في اللاشعور ، والا ما أمكن استخدام التقمص لما جعل له من أغراض أعني وسيلة »

(★) والمحلل النفسي الذي يقوم بهــذا العمــل مثله في ذلك مثل اي شــخص آخر • ومن ثم فان عليه أن يحلل نفسه أولا حتى يتمكن من القيام بتحليل الآخرين • فاذا ما حلل نفســه بواسـطة أستاذه (وهذا ما يدعى التحليــل التدريبي) وتعرف على لا شعوره الذاتي (وهو كما قلنا لا يختلف عن لاشعور غيره) استطاع ، أن يفهم مرضاه ، وأن يصــل الى ادراك المعاني المختفية في حنايا خواطر مرضاه واحلامهم ، وبدون أن يدرك طيئته » أولا ، فانه سيظل يرحى الآخرين •

« المترجم »

لازمة لفهم واع نزيه • كما تلزم المحافظة على المسافة التى تضمن توظيف الملكات الناقدة • ولذا يمكن انجاز المعالجة والمحافظة على التوازن الدقيق للتقمص دون جهاد للذهن الى اقصى درجة • والمحلل الذى يحول نفسه الى سبعة أو ثمانية أشخاص مختلفين فى اليوم الواحد ، مالكا زمام نفسه طول الوقت ، يحتاج ولا شك الى الاختلاء بنفسه للاستجمام •

وقد بلغ فهم فرويد الحدسى للاشعور أقصى ما يمكن أن تبلغه البصيرة السيكلوجية • كان قادراً على تتبع أكثر متاهاته تشابكا ، تلك التى ما كان يمكن لسواه أن يرتادها أو يجوس خلالها • وقد كان هذا الاسترشاد بحدسه ضربة لازب حتى يمكن البدء فى هذا العمل الخطير العظيم ، اذ أن كل خطوة تقود قدما نحو المناطق الخطيرة المظلمة من النفس البشرية وفى المراحل المبكرة عندما لم تكن لديه نظرية ولا خبرة تكنيكية يستند اليها كانت قوى خطيرة من المقاومة تهدد عمله من كل جانب • وبدلا من التشجيع والتأييد لم يتلق من معاصريه غير الاحتجاجات والتثبيط • وكان العمل مع محلليه سلسلة لا تنتهى من التجارب تفتقر الى ما فى ظروف المعمل من ميزات • وكانت المادة التى تقدمها وسيلة التداعيات الحرة وقد شوهتها الأحداث الخفية والعواصف الانفعالية أدنى شبها ببوتقة ساحرمن أنبوبةاختبار أنيقة • وكانت النتائج والنجاحات والاخفاقات تتمايز تدريجيا فحسب ثم تنظم فى سبيل الفائدة العلمية • ولما كان يبغى أن ينتزع من تجاربه وانطباعاته كل قطرة من قطرات المعرفة فانه ما كان بوسعه أن يصرف عنها انتباهه بعد أن تنقضى ساعات العمل التحليلى • فلم يكن لمثله ترف الاختلاء بنفسه • كان عليه أن يسجل مادته ، ويفحصها مدققا ، ويقطرها ناقدا وهى لاتزال فى ذهنه طازجة فقد كان يعرف أنه ما من طريقة غير هذه لحفظها من الضياع • وأن تسجيل « قطعة حديث » تحليلية أو مشهد درامى دون تكلف أى زخزف ، عمل يعسر على خيرة الخبراء • ومنذ بداية عمله كمحلل حتى نهاية حياته تقريبا (أى زهاء خمسين عاما) سجل فرويد بلا انقطاع الحالات التاريخية لكافة المرضى الذين أثارت مشاكلهم فيه اهتماما خاصا موضحا الجوانب البالغة الأهمية بأكبر قدر من التفصيل ، كلمة بكلمة غالبا • ولم يكن يفعل هذا مباشرة ، عقب براح المريض ، فيماعدا مسودة قصيرة من بضعة سطور • كان يضع الموضوع فى صورة سرد ملتئم ، مضيفا اليه كل أسبوع بعض التفاصيل ، بدلا من

كتابته ساعة بعد أخرى • وهو ما كان يعنى افلات الخيوط ثم التقاطها باستمرار • وقد طبعت ونشـــرت أربع من هذه الحالات التاريخية على حدة ، ويمكن العثور على أجزاء من غيرها موزعة خلال أوراقه العيادية وغير العيادية • هذا — أى التحليل والتسجيل — يمثل فى كمه فحسب يوما حافلا بالعمل بالنسبة لشخص مجد ، أى من ثمانى ســـاعات الى عشر يوميا •

وخطابات فرويد ذات كثرة مثلما هى ذات عمق • وعندما تنشـــر ، ســيبلغ عدد خطاباته بضــع آلاف ، ولو استثنى منهــا تلك الخطابات الشخصية البحته وتلك التى فقدت وضاعت نتيجة الكوارث الخاصة أو العامة ، مثلما حدث لأغلب الخطابات التى تلقيتها منه • أقصد الخطابات الى الأصدقاء من التلاميذ والأتباع ، والغرباء ، والنقاد ، والخصوم ، والمؤيدين ، والى المحللين السابقين والمنتظرين ، والى المدرسين الذين أثير اهتمامهم ، والى المؤلفين الذين صـــدم عمله حدسهم السيكلوجى • فهو نادرا ما نسى أن يجيب على خطابات ترد اليه مهما كان اتجاهها بل ولو قصد بها الهجوم والنيل منه ان أثارت تعاطفه أو دلت على أدنى أثر للأصالة • وكان يوجه الشطر الأكبر من خطاباته الى تلاميذه الذين يعيشون فى البلاد الأخرى ، فكان بذلك معينا دائما من العون والنصح بالنسبة لهم ، وفى بعض الأحيان مصـــدر تصويب وارشـــاد فى كافة الأمور التى تتعلق بالتحليل • وبالاضافة الى ذلك ، كان هؤلاء الرجال والنســاء الذين تتجاوز مشاكل شخصياتهم الحدود البسيطة والعادية يتطلعون اليه ملتمسين التوجيه والارشــاد فيما يتعلق بمشاكل حياتهم الخاصة ومتاعبها ، فما خيب لهم أبدا رجاء • وفى خطاباته الى أتباعه كان يناقش المشــاكل النظرية والتكنيكية ، ويحل المصــاعب ، وينتقد ويقترح التصويبات ، ويعرض أفكاره الجديدة ، ويســـاعد مراســـليه على تطور أفكارهم وتوضيحها • وليست بأقل أهمية خطاباته بخصوص الأمور التنظيمية مثل تكوين الجمعيات الجديدة وعضويتها ، والعلاقات الشخصـــية بها ، والبرامج الدراسية ، والمحاضرات واصـــدار دوريات جديدة ، أو التعاون مع الموجود منها •

كان يحتفظ على مكتبه بقطعة كبيرة من الورق ، ويكتب تحت تاريخ كل يوم الى اليسار الخطابات التى تلقاها ، والى اليمين الخطابات التى رد بها • وكان يكتب كافة خطاباته بخط يده ، وحتى فى أواخــر عمره لم يستخدم ابنته « أنا » كسكرتيرة الا فى مناسبات خاصـــة ، بل انه فى

الأســـابيع التى ســـبقت وفاته عندما كان محتاجا الى كل قوته ليمسك بالقلم ، كتب بخط يده الخطابات القليلة التى استطاع كتابتها ٠

وعندما تجمع خطاباته وتنشر فان ما تحويه من حمكة وبصـيرة وعمق ذهنه وجرأته ، وقوة تعبيره وطرافته ســـتدهش حتى أولئك ــ وعددهم يتزايد الآن بثبات ــ الذين تذوقوا وأعجبوا بهذه الصفات فى كتبه ٠ وأستطيع التحدث عن هذا واثقا ، فقد تسلمت بنفسى عددا منها ، وسمعته يقرأ غيرها مما تتضمن أشياء ارادنا ــ رانك وانا ــ وأن نعرفها ، كما اطلعت بالمصادفة على بعض خطاباته عن طريق أولئك الذين أرسلت اليهم ٠

وقد عجبت طوال الوقت الذى عشته بجواره من قدرته على انجاز مثل هذا القدر الجسيم من الخطابات ٠ اذ يبدو أن العمل الآلى يستغرق وقتا أطول مما استغرقه فى كتابة رسائله ، دون أن ندرج فى الحســبان التفكير الذى استلزمته وعناء صياغتها وقد ســألت عائلته عن الكيفية التى ينجز بها كل هذا فأجــابوا بأنهم لا يعرفونه أيضـــا ٠ فهــو يذهب الى مكتبه ٠ وبعد ســاعة يحضر لنا عشر خطابات ينبغى تصـديرها » ٠ وقد شعرت بالحيرة لعجزى عن ادراك ســر هذا الى أن عثرت على فقرة توازى ذلك ، لدى سويتونيوس عن حياة قيصــر حيث يستشهد بقــول مأثور عن هرتيوس ، صديق قيصر بصدد « التعليقات » : « ان اعجابى يفوق اعجاب الآخرين ، لان هؤلاء يعرفون فقط ما فى كتابته من جمال ، ولكنى أعرف السهولة واليسر اللذين أنجزت بهما » ٠

ان انتاج فرويد العلمى وأبحاثه واكتشافاته تحدد بداية مرحلة فى فهم الانسان للانســـان ٠ وهذا ما أثار فيه الرغبة التى لا تفتر فى بذل المحـــاولة التى لا تكل لجعل هذا الانتـــاج فى متناول أى انســـان على استعداد لاستيعاب هذا النوع الجديد من المعرفة ٠ ومن هنا جاء ذلك الموكب المتصل من الكتب ، والمقالات ، والمحاضرات الذى اســتمر ستين عاما ونيف ٠ واذا لم ندرج فى الحسبان كتبه المبكرة فى الفسيولوجيا والنيورلوجيا ، نجد أنها استغرقت اثنى عشر مجلدا فى الطبعة الكاملة لأعماله يضـــاف اليها كتابه عن « موسى والوحـــدانية » ككتاب ثالث عشر ٠ ولكن الكلام عن الكم هنا لا معنى له ، فأى انســان يستطيع أن يملأ اثنى عشر مجلدا بالكتابة ، كما أن هذا المكان ليس بالملائم لتقييم أعماله ٠ فنها سيكون ازجاء المدح أو اضفاء القدح أمرا لا يتجاوز حدوده

السطح · ولذا فانى لا أريد الافاضة فى الحديث عن كتبه التى توجد مفتوحة أمام أعين العالم كله ، بل أعود مرة أخرى الى الشخصية الكامنة خلف هذه الأعمال ، الى الرجل الذى عرفته قلة مثلما عرفته · وسأحاول أن أدلى بما استطعت ملاحظته عن طريقته فى الكتابة ·

لقد كتب كل كتبه ومقالاته ، ورسائله كذلك بالخط العادى · وكان خطه اليدوى ذا خصائص مميزة فالحروف كبيرة نسبيا وبالخط القوطى ، ضيقة الفراغات متلاصقة الخطوط حتى لتكاد الكلمات أن تتشابك · وكانت رؤية صفحة من الصفحات المكتوبة بخط يده ، توحى لأول وهلة بمتاهة معقدة يضل فيها النظر · ولكن المرء سرعان ما يتبين بشىء من الفحص الدقيق أن هذه المتاهة واضحة مقروءة بما فيه الكفاية · فالحروف ظاهرة بارزة ، وما من شىء قد ترك سهوا أو اهمالا ، وانما كتابة تكشف عن تمعن وحرص · وأكثر الصفات مدعاة للالتفات فى كتاباته صفة لاحظها بن جونسون كذلك فى صديقه وليام شكسبير (مثلما قارنت فرويد بسقراط ، ونابليون ، وقيصر ، يمكننى كذلك أن أقارنه بشكسبير) : « فهو فى كل ما كتب لم يتسر سطرا » وقد سألته مرة عن كيفية تمكنه من هذا ، لأنه كان يعالج أفكارا عسيرة فى تكوينها وأشد عسرا فى صياغتها · وأبديت عجبى من أنى لم أره قط وقد أعجزه التعبير فراح يتلمسه ، فلعله كان يدون أولا الملاحظات ثم يظل يقطرها ويصوبها الى أن تبلغ حد الكمال · فأجابنى بأنه ليس من عادته أن يدون شيئا قبل اكتماله ، فهو قبل أن يضع القلم على الورق يظل يلوك خطة كل مقال أو فصل بطريقة عامة ، ليس فى مضمونه وتكوينه فحسب ، بل فى الصياغة الدقيقة لكل جملة ، ولذا تكون العملية آلية تقريبا عندما يجلس للكتابة نتيجة للاملاء الداخلى للجمل التى تكونت من قبل ·

ولا يعنى انتفاء التصويبات التفصيلية انه كان ينظر الى كل ما يكتبه بعين كليلة عن العيوب · فقد كان اذا شعر بعدم الرضى عن طريقة العرض أو تبين أن بناء حججه لا ينهض بالمطلوب منه ، يمزق الموضوع كله ويعيد كتابته من جديد · ويستوى لديه فى ذلك المقال القصير أو الفصل من الكتاب، أو الكتاب بأكمله · فابتسار الأشياء ، سواء فى المجال الذهنى أو الانفعالى ، كان يقع من نفسه موقع العداء · وهذا ما فعله بكتابه « المنع ، والعرض ، والحصر » وهذا ما فعله أيضا بكتابه « تفسير الأحلام » الى حد كبير فقد حال بينه وبين النشر سنين عديد معيدا كتابة بعض فصوله مرارا حتى شعر نحوها بالاكتفاء ·

وقد كان نقده لذاته بقسوة سببا فى تغييرات ، وتأخيرات ، وتعويقات فى بعض الأحيان · وكان يرحب بنقد الآخرين ، الذين يعتبرهم قضاة شرفاء عادلين · وعندما كان يقرأ أعماله مخطوطة سواء لأصدقائه الخلصاء أو « لجماعة فيينا » أو فى اجتماعات الاتحاد الدولى للتحليل النفسى ، كانت تعقب قراءته مناقشة مشبوبة الأوار ، فينفذ بحرص الى روح كل معاضة ويحاول أن يقدر وزنها ويعجم قوتها لكن نادرا ما بلغ به الاقتناع بكل ما قيل حدا يشعر معه بضرورة اجراء أى تعديل· فما كانت هذه الحجج عليه بالجديدة · ذلك لانه كان يثيرها كلها اذ هو لايزال فى مرحلة جمع أفكاره وتبويبها ، ويظل يعجم عودها كلها من حين لآخر بحسب أهميتها ·

وما كان يظهره فرويد من الصبر العظيم فى الاصغاء الى الحجج والرد عليها ، مهما ضؤلت قيمتها ، كان يختص به المعارضين الشرفاء فحسب الذين لا يسفلون بالمناقشة دون مستوى البحث الموضوعى للحقيقة · أما أولئك الذين يتذرعون بالمظاهر الاستعراضية والكلمات الطنانة الجوفاء بدلا من الحجج والبراهين فلم يكن يبدى ازاءهم تساهلا على الاطلاق · وقد أخبرونى بحادثة وقعت أثناء المراحل الأولى للتحليل النفسى وقتما لم يكن فرويد قد اعتزل النقاش العام تمام الاعتزال · كان الموضوع المطروح للنقاش أمام جماعة من الطلبة هو « الزهد الجنسى » فعرض فرويد وجهة نظر التحليل النفسى ، دون أن يتحيز لأحد الفريقين ، وأجاب على الأسئلة التى طرحت عليه وأوضح الحقائق · ولكن عندما اعتلى خصمه الرئيسى وهو استاذ بقسم الفلسفة ، متن حصانه العالى الجناب ذى الوطاء الأخلاقى (وكان هذا جواد الهواية المفضال وبقرته الحلوب كذلك) تناول فرويد قبعته ومعطفه وغادر الحجرة دون أن ينبس بحرف ·

وعلى الرغم من أن فرويد لم يكن يحتاج الى وقت طويل فى تدوين أعماله فانه استغرق قدرا كبيرا من الوقت فى التحضير لها · فقد قرأ قدرا جسيما من الكتب بالنسبة لأعماله قبل أن يدخل المرحلة الحاسمة فى تكوين أفكاره · أما مدى ما أنفقه من وقت وطاقة فى تأمل مشاكله فى بعض الحالات فيمكن أن يدرك على سبيل الحدس والتخمين وليس على سبيل القياس واليقين ·

وطريقة نمو أفكار فرويد لا يمكن لانسان ادراكها الا على سبيل الظن والتخمين · فما كان في البدء نواة ضئيلة في علم النفس المرضى قد نما واتسع نتيجة لتركيز لا يكل لعقل ذى أصالة ، حتى استحال بالفعل في آخر الأمر نظرية أساسية في علم النفس ، والحضارة البشرية ، وكل تطور عضوى · وبعض الاستنارات الفجائية التى حددت خطوة في هذا التطور قد وصفها فرويد نفسه ، مثل كيفية اكتشافه لمدرك التسامى ـ أى العملية التى يستبدل ، عن طريقها ، موضوع بدائى لدافع ما بآخر أسمى مرتبة ، ومتكيف مع المجتمع · وقد حدث هذا الكشف أثناء تطلعه الى صورة كارتونية في دورية هزلية (مجلة أوراق طائرة) كانت تصور مجرى حياة فتاة خلال مرحلتين متتاليتين · كانت تبدو في الصورة الأولى وهى ترعى قطيعا من الأوز الصغير بعصاها ، وظهرت في الصورة الثانية مربية ترشد مجموعة من الفتيات الصغيرات بمسطرتها · وكانت الفتيات في الصورة الثانية قد انتظمن على نفس النسق الذى انتظمت بمقتضاه صغار الأوز في الصورة الاولى ·

ويختلف أسلوب فرويد في كتابته عن طريقته السهلة المبسطة التى ميزت محاضراته · كان الوضوح هدفه في كليهما ، ولكنه كان في الكتابة يضع الدقة في المحل الأول · فهو في هذا المجال لم يكن سهل الاكتفاء ، فكان يشكل جملة ويضغطها ، ويلويها أحيانا ، الى أن تعبر عن فكره بدقة ، فلا تزيد ولا تقل · ولذا كانت جمله ثرية بالظلال الرقيقة للمعنى ، لكن بناءها ، اذ هو واضح ومنطقى ، وليس بالسهل البسيط في غالب الأحيان ، ولذا يتعسر على القراءة العابرة · ربما لا يوجد غير قلة من الناس أوثق معرفة بأعماله منى ، لكنى كلما احتجت الى الاستعلام عن نقطة أو أخرى ، بقصد المحاضرة أو الاستفهام عن مشكلة صادفتنى أثناء عملى مع محلل ، أجدنى مضطرا الى قراءة كلماته بأقصى انتباه وغالبا ما أتبين شيئا جديدا كنت قد تخطيته أثناء قراءاتى السابقة كلها · وهذا يعنى أن فرويد قد كتب لقراء يريدون الحصول على المعرفة متكلفين جهد الدراسة لالأولئك الذين وردوا للتسلية والاستعلام السريع ، أو شغل وقت شاغر ·

وقد قرأ فرويد قدرا جسيما من الكتب والمقالات العلمية عن موضوعات كان يشعر نحوها بالاهتمام · وكان منها في المحل

الأول ، فدراسة الحياة وطرق الفن فى روما واليونان القديمة كانت له مصـــدر افتتان ، ولكن يفوقهما الشرق الأدنى : مثل مصـــر ، وبابل ، وسوريا ، وفينيقيا · فكان يتتبع التقارير عن الحفريات الجديدة وكان كل اكتشاف جديد يثير روحه الجامعة · ولما كان يدرس الأوصـــــاف والتفاصيل بشغف وكلف ، فانه كان يقارن مايدرس بمقتنياته المكتنزة · وما كان يفتر فى اظهار بعض النقاط ذات الأهمية الخاصة أو فى ايضاح التقنية الرديئة · أو الجيدة ، وامكانية التزييف ، الخ · بفهم صـــاحب المجموعات الواعى وطريقته · وكان يقع من نفسى موقع الايثار تمثال فرعونى صغير لقرد استقر على مكتبه ، اذ كان يمثل الوضع المميز لهذا الحيوان المبجل فى خطوط قليلة تدل على الأســـتاذية وذا تعبير قد يدل على أعمق تفكير أو أتم جمود ولا شىء وسط بينهما ·

وكان لفرويد عادة تناول قطعة أو أخرى من مجموعته من مكانها ، وفحصها بالنظر والملمس ، أثناء حديثه · ولكنه لم يكن يفعل هذا أبدا عندما كان يستمع الى الآخرين ، فحينئذ كان يجلس ســاكنا ، وعيناه تنظران الى الداخل ، ولا يحرك غير خاتمه فحسب من حين لآخر · وما كان تعبير من تعبيرات وجهــة أو هــزة فى وضـعه تبين أقل ابانة عن ارتياحه أو عدمه بما سمع · ولكن تعليقاته الأخيرة لم تكن تترك شـــكا فى مدى انتباهه أثناء استماعه ·

وفى سنوات شهرته المتزايدة تزايدت مجموعته من التحف بسرعة كذلك فأضيف اليها الكثير من القطع الهامة التى أحضـرت من جميـع أنحاء العالم اهداء أو اقتناء · وقد آتاه تمثال مصـــرى صغير من مقبرة توت عنخ آمون مباشرة · كما أخذ الشـــرق الأقصى يحتل مكانه الآن بجانب الشرق الأدنى · فقد كان فرويد دائم الكلف بالفن الصينى وقد حصل على بعض القطع التى تجلى فيها جمال المـادة عن طريق كمال التقنية الفنية ، وقد حاز جـائزة الجمـال تمثـال لحكيم صـينى هرم من المرمر الأخضر الغامض · فأصبح نتيجة لذلك نوعا من الطوطم بالنسبة لنا جميعا يلزم وجوده فى كل مناسبة ذات أهمية خاصة ·

ولم أستطع أن أدرك الانطباع الكامل للقدر الجســيم الذى بلغته المجموعة وغرابة موضوعاتها الا عندما شاهدتها فى صيف عام ١٩٣٩ فى لندن · اذ هناك عرضت فى حجرة استقبال فسيحة ، تغمرها أشـــعة

الشمس التى تنفذ اليها من الحديقة خلال أبواب ونوافذ مفتوحة بعد أن كانت مكدسة بحجرة خلفية ضيقة معتمة ٠

وفى كل اهتمامات فرويد التاريخية ، حتى أقل تفاصيل فى مجموعة تحفه ، كان « الخيط الأحمر » للتحليل النفسى موجـــودا ٠ فهو فى كل مجال من مجالات الحضارات المنقرضة التى قامت عليها حضارتنا ، قد درس طرق الكبت الحضـــارى المتنوعة ونتائجها ٠

ولم يكن الأمر يختلف اذا ما تحدث مع خلصائه ، فما أهملت أبدا وجهة النظر التحليلية ٠ فهو فى كل حادثة من أحـــداث الحياة طرحت للمناقشة ، اكتشف وأبان تأثير شكل معين من الرغبة الخيالية الطفلية ، والآثار الناجمة عن كبتهـــا وتعديلها ، وتشـــويهها ، والتســـامى بها أو التعويض الزائد عنها ، والطرق التى يتنكر بحســـبها اللاشـــعور خلف الأقنعة الفاجعة والهازلة ٠ ولم تصـــبح ملاحظاته أبدا مظاهر تجريدية لنظرية ، فقد احتفظت الشخصيات والحوادث التى تناولها بالدراســة بخاصية الحياة المرنة أثنـــاء تحليله لها مثلما احتفظ مكبث وموســـى ميكائيل انجلو بخاصية الفن المرنة عندما أخضعها لأشد الطرق نفاذا من تفسيره السيكلوجى ٠

ان النظارات التحليلية التى نظر فرويد من خلالها الى العـــالم قد كشفت عن جوانب عديدة ظلت لأعين الآخرين فوضى أو خافية ، ولكن هذه النظارات لم تشـــوه منها شيئا ٠ اذ أن وعيه الدائم بتأثير اللاشعور على كافة الأمور الانســـــانية لم يتجه الى تبسيط تعقيدات الحياة ٠ فلم يغفل من طابع العصر ، والوسط الاجتماعى وتأثير العائلة ، وأدرج فى حسبانه تدخل الحوادث العرضية مع « القدر » ، ولكنه لم ير أيا من هذه العوامل وحدات منعزلة عن بعضها ٠ فهى الصخور التى يندفع خلالها نهر الحياة من ينابيعه المجهولة ، مقتحما مجراه ٠ ومثل هذا الموقف قد ينعته بعض النقاد بأنه أميل الى الفن منه الى العالم ، ولكن العلم ليس بالضرورة زائفا أو غير فنى ٠

وســـلطان اللاشـــعور الطاغى وقســـوة الظروف الخارجية والطفولة وأحداث الحياة اليومية ، والفانتازى والمصـــــير تبدو أجزاء من نموذج معقد حيكت فيه كل الخيوط بطريقة متلاحمة متشابكة ٠ « فى كل شىء

كمنت وخفيت كل الأشياء » كما يقول أنجلوس سيلسيوس الشاعر الصوفى الذى عاش فى القرن السابع عشر ·

وكان اهتمام فرويد بالكتب جزءا من اهتمامه بالذهن البشرى الحى : فشملت قراءاته ما هو أكثر من الكتب التكنيكية أو العلمية · فقد عرف أغلب ما يدعى عادة « روائع الأدب العالمى » وقرأ لكثيرين من مشاهير الكتاب فى عصره · وقد افادته معرفته الواسعة باللغات ـ ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فى فيينا فى زمنه حيث كان الذين على مستوى راق من التعليم لايدرسون اللغات فحسب كما هو المتبع فى كل مكان بل يدرسون كيفية الاستفادة منها · فبالاضافة الى لغته الأصلية كان متمكنا تمام التمكن من الانجليزية والفرنسية ويقرأ الايطالية والأسبانة بطلاقة · ولكنه لم يستفد كثيرا من اللاتينية والاغريقية برغم أنه كان متفوقا فى كليهما أثناء الدراسة ومن بين المؤلفين المحدثين الأثيرين لديه ـ ولم يعودوا محدثين بعد ، بل أصبحوا كلاسيكيين ـ كان اناتول فرانس مدار نقاشه معى غالبا · وقد حثنى على قراءة كتابه ثورة الملائكة · ولفت انتباهى خاصة الى الفصول التى تصف تقدم الحضارة نتيجة الصراع بين الملائكة والشيطان الثائر ويهواه ـ يلدعبوث · وكان متأثرا بما ورد فى الخاتمة حيث يرفض الشيطان أن يقبل الزعامة التى منحت له ويرتضى نوعا من النصر لأنه يدرك أنه بعد ازالة الطاغية القديم بالقوة واحتلال مكانه ، سيرث حتما قسوته ويؤول اليه ضيق أفقه · وقد ألقى فرويد محاضرة عن هذا الموضوع فى Bnai Birth (أطفال المعبد) وهى جمعية من مثقفى اليهود وكانت احدى الحالات القليلة التى تحدث فيها الى جمهور يتألف من المحللين ·

وكان جوته الموضوع الذى لا ينتهى ، ولا ينفد بالنسبة لكل الذين تربوا ونشأوا فى جو الثقافة الألمانية أبان القرن التاسع عشر · وعلى هذا لم تلعب حياته وأعماله دورا ضئيلا فى أحاديثنا · وثمة قول من أقوال فرويد أذكره جيدا · كنا واقفين أمام طبعة من صوف ودوروتيا من أعمال جوته التى لكونها أكثر الطبعات الكاملة دقة كانت تشغل ثلاثة أرففمن مكتبته · فقال فرويد وهو يشير اليها ، « كل هذا قد استخدمه كوسائل لاخفاء الذات » · فالواضح أنه لم يقبل تحديد جوته لأعماله وتعريفه لها بقوله انها « أجزاء من اعتراف عظيم » ·

وعندما قادنى اعجابى بدوستويفسكى الى فرويد ، لم يخطر ببالى اننى كنت مقودا بخيط خفى · فقد بين لى التحليل النفسى فيما بعد اننى

كنت مقودا بسحر الكاتب الروسى الفذ ، ذلك السحر الذى اعتاد أن يبعث به الأرواح المعـــذبة الملعونة المكبوتة من أعمـــاق الهاوية وكانت معرفته الكاملة بالقوى اللاشعورية التى تسود شـــخصياته وتصـــويره الدقيق لهـــا الطريق الذى اختارته عبقريته المعذبة لدفع لا شـــعوره من الظلام الى النـــور • كان دوستويفسكى يستحق أن يدعى الرائد لفرويد لو لم يتحرك طريق الفن والعلم على انفصـــال • وقد عرف فرويد كل هذا ووعى عبقرية دوستويفسكى تمام الوعى ، لكنـــه كان يتحدث عنه بشىء من عدم الرضى • فلم يكن يبدى نحوه نفس الحماس الذى كان يكنه لغيره من السيكلوجيين الحدسيين الذين يقلون عنه عظمة • ان صراعات دوستويفسكى الداخلية – لم يشخصها فرويد أبدا على أنها صراعات صرع بل صراعات هستيرية تتبدى فى نوبات عنيفة على شكل صرع – تتطابق مع تلك التى اكتشـــفها فرويد وحدد خصائصـــها • ولـــكن صـــراعات دوستويفسكى وصراعات أبطاله المخلوقة على صورته قد قدر عليها أن تظل بلا حل • اذ بدون تدخل الله ، وهو حل ظل حتى بالنسبة له عرضة للشك ، قدر عليها أن تدور فى دائرة شريرة لانهاية لها • لقد أقر فرويد واعترف بعمق سيكلوجية دوستويفسكى ، ولكن شخصيته لم ترض تعذيب الذات هدفا نهائيا للحياة • فطاقته وطبيعتهالتى لا تنثنى كانت تتطلب المزيد، وقد ثار بالغريزة على هذا الرفض لقوة الارادة • حدث ذاتمرة أن استخدم تعبيرا حادا عن مرضـــاه العصـــابيين فدعاهم « الأغبياء » – وفســـرت هذا لنفسى بأنه رد فعل مشابه لرد الفعل الذى يتركونه فى نفسى • كان يظهر بوجه عام اسمى تقدير لما يتمتع به مرضاه من صـــفات قيمة ولو أفســـدتها تماما موانعهم العصابية • وكان أميل فى موقفه نحوهم الى التقدير الزائد العطوف واظن انه كان فى هذه اللحظة قد شعر بالضيق من جراء اتجاهم الدائم الى النكوص والدخول ثانية فى عملية تعذيب الذات •

وفيما تلا هـــذا من ســـنين عنـــدما نشـــرت الحـــكومة الروســـية أعمال فرويد بعد الثورة تحدثت اليه بتفاؤل شديد عما يمكن أن يـــكون للتحليل النفسى من أثر فى بناء روســـيا جديدة ولكنه أجاب متشـــائما بالنسبة للروح الروسية « هؤلاء الروس كالماء يملأون كل اناء ، ولكن لا يحتفظون بشكل معين » •

وكان فرويد غالبا ما يستشـــهد بهاينى ، وقد ســـمعته يردد بمرح العارف هذه الفقرة « كان بالقرية ثور شـــاخ حتى أصبح كالطفل ولكن عندما ذبحوه كان مذاقه مثل مذاق ثور عجوز » • وكان بوسع فرويد

أن يجد تأييدا جديدا لاحترامه للشاعر ، ولو امتد به العمر ليرى تحقق نبوءة هاينى الكبرى فى الصفحات الأخيرة من « تاريخ الدين والفلسفة فى ألمانيا » (الصالون ، المجلد الثانى) ٠

وكان شكسبير أكثر موضوعات الحديث ترددا فى مناقشـــاتنا ان اتجهت صـــوب الأدب ٠ وقد لاقت آراء فرويد حول عقدة أوديب تربة خصبة فى هاملت ٠ وقد ذكرت المناقشـــات التى دارت حول هاملت فى المراحل المبـــكرة من الدراســـة ثم جـــاء كتاب ارنست جـــونز عن نفس الموضـــوع وفيما بعد وجه فرويد انتباهه الى مســـرحيات أخرى : الى ريتشارد الثالث ومكبث فى كتابه « بعض نماذج شخصية على ضـــــوء التحليل النفســـى » والى تاجر البندقية فى « الباعث على اختيار علب المجوهرات » وحذا كثيرون من أتباعه حذوه ، وأنا من بينهم(*)، ووجدوا مرعى تحليليا خصبا فى مســـرحيات شكسبير ٠ قد لفت انتباهى أثناء مناقشاتنا الى أن شكسبير ، رغم أستاذيته فى عرض تكنيك البواعث أو اخفائه حسب الارادة ليس مثل ابسن الذى كان على وعى آلى بهـــا ٠ فهـــو يلقى بالمنطق والتتابع فى الحـــوادث ادراج الرياح ٠ ويدخل فى المتناقضات متى لاءمت الموقف الانفعالى ٠ ودلل فرويد على ذلك بأن شك هاملت فى البقاء بعد الفناء ليس له ما يبرره ، ما دام على اقتنـــاع بأنه رأى منذ فترة وجيزة شبحا يعود اليه من عالم الفناء ٠

وقد أعار فرويد فيما بعد التفاتا الى النظرية القائلة بأن أعمـــــال شكسبير من عمل نبيل عريق من عائلة دى فير ٠ وأعارنى الكتاب الذى يعرض هذا الفرض الجـــــديد ويدافع عنه(*) ، ولكننى لم أقتنع به - فالصبى القروى الصغير الذى غرم والده بسبب تكوم « الزبالة » عند باب بيته ، بدأ أقرب الى الرجحان أن يكون هو نفســـــه مؤلف « العاصفة » و « قسط بقسط » ٠

اننى فى عرضى للضـــروب المختلفة من نشـــــاط فرويد ما قدمت الا ملاحظاتى المباشرة والشخصية دون زيادة أو نقصـــــان ٠ لقد اعتدت أن أقارنه بتلك الشخصيات التى تحكى عنها الأســـــاطير أن لها قوة اثنى

(*) شكسبير « ليس الا ادوارد دى فير » ايرل اكسفورد السابع ، تأليف ج. توماس لونى » ٠

(*) للمؤلف دراســـة طويلة ممتعة من مسرحيـــة « قسط بقسط » فى ضـــوء التحليل النفسى فى كتابه « اللاشعور الابداعى » ٠

« المترجم »

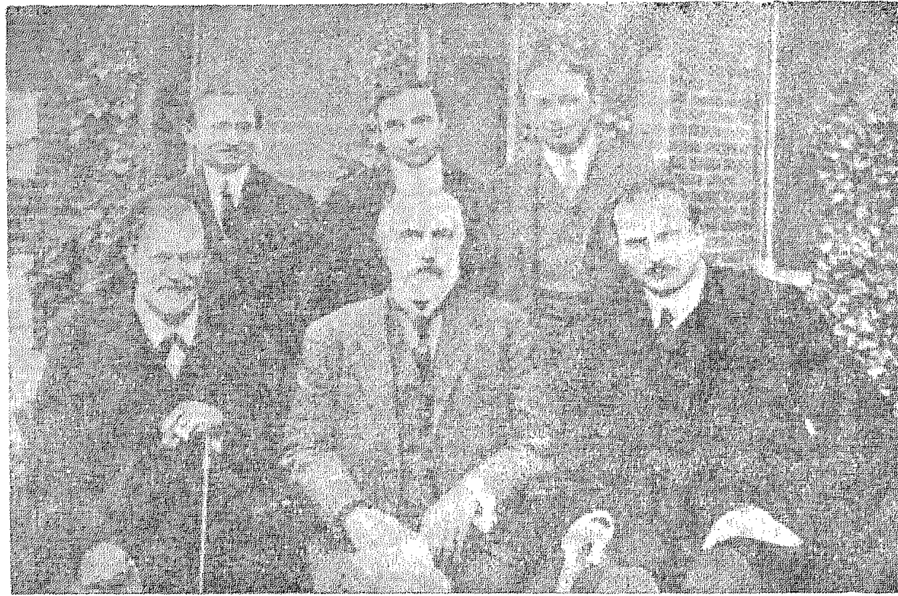
عشر رجلا • والشيء الغريب ـ وربما لم يكن غريبا على الاطلاق ـ أنه لم يكن يكل اذا ما اقتضـى منه الأمر مجهـودات بدنية ، فهو رغم بنيته الرقيقة ، وكتفيه المنحدرين ، وظهره الذى يشـوبه انحناء من النوع المدرسى ، كان فى قطع المسافات الطويلة أو تسـلق الجبال لا يعتوره كلال ، وانى أذكر مشـوارا طويلا قمنا به فى الجبال الواقعة قرب فيينا سيرا على الأقدام فى الثلج العميق يوم عيد الميلاد وقد اصطحبنا بعض الأصدقاء من برلين ، ولندن ، ولاهاى ، بحيث كنا نكون جماعة كبيرة العدد • وعندما وصلنا الى نهاية خط الترولى كان أغلبنا على وشـك السقوط اعياء ولكن فرويد ومعه واحد أو اثنان من الرفاق ساروا حتى البيت • وكان رفقاء أسـفار أعنى أخاه الأصغر ، وفرنشيزى وغيرهما يشتكون ـ فيما عدا رانك الذى كان من نوعه ـ من انه يكلفهم من الجهد أكثر مما يطيقون • وعندما كان يذهب الى أى مكان كان يعرف بالضبط ما يريد رؤيته ولم يكن ليعود الا اذا رأى كل جزء منه • وفى صيف عام ١٩٣٧ ذهبنا فى رحلة الى جبال « تاترا » ذات الدروب الوعرة ، وعندما قررت بقية الجماعة بعد ثلاث ساعات من السير الجلوس ريثما تلتقط أنفاسها ، لم يجلس فرويد معنا ، بل قام وحده بجولات قصيرة • وكان يعثر دائما على مشهد غير منتظر أو نبات غريب أو شىء يقع منه موقع الاهتمام • فقد كان لعينيه نفس الصفة التى لعقله ، أو بالأحرى كانت هذه الصفة فيه من القوة بحيث سيطرت على كل أفعاله ـ أعنى القدرة على رؤية ما تتخطاه أعين الآخرين • وقد أدركت هذا بوضوح من حادثة بسيطة • كان ينمو بغابات تاترا نبات يدعء عش الغراب وهو أحـلى أنواع نبات الفطر مذاقا فنظم فرويد مسـابقات لقطف ثمراته ، جاعـلا قيمة الجائزة الأولى قطعة من النيكل والثانية سـنتين لمن يأتى بخير أنواعه ، ولكن لم يمس أحد هذه النقود ، لأنه كان يربح كلتا الجائزتين فى كل مرة •

اننى أعرف أن هذا الوصف المتألق لقـدرة فرويد على تحمل عبء العمل الثقيل بطريقة هادئة واقعية مع اتسـاع الوقت والطاقة للاعمال الأخرى التى ذكرتها سيوحى بمبدأ عبادة البطل ـ أو سيرة الزعيم كما اعتاد أن يقول • ولن يضعف هذا الانطباع كثيرا عندما أصـرح أننى وجدته مرة أو مرتين فى مكتبه يلعب لعبة « الصبر » ومع ذلك فهو غير ذى أساس ، لسبب بسيط وهى أننى أعتبر كل هذه الأمور ليست فريدة فى نوعها ، وان كانت موضع اعتبار • فهى ليست أكثر من الخلفية التى تبرز ازاءها معالم شكل الرجل • فهناك علماء مدرسيون وكذلك رجال

دولة وعمال يعملون بنفس الجد والثبات ويؤدون أعمالهم بنفس القدر من الكفاءة . وعندما أكتب هنا عن جسامة العمل وعن الأسلوب الذى اتخذه فى أدائه ، يعاودنى الشعور القديم بالحيرة ولاشىء أكثر . وما استطردت فى تعداد هذه الصفات الا لأنى اعتقد أنه من المفيد أن أصف الطريقة التى أعلنت بها طبيعته عن نفسها ، ولكنى ما نسيت أبدا أن كل هذا مظهر خارجى فحسب لجوهر مستتر . وعلى هذا فانه ذو قيمة ضئيلة نسبيا .

« ثمة جبل آخر دعوته عظيما . فقال : لا ، بل بروز واضح(*) .

(★) رحلة فى جبال الهبريد ، لبوزويل : اليوم الأول من سبتمبر .



صورة تذكارية اخذت فى سبتمبر ١٩٠٩ بمدينة ورشستر بولاية
ماساشوستس (الولايات المتحدة)
الجالسون من اليمين : يونج ، ساتلى هول ، فرويد
الواقفون من اليمين : فرنتزى ، ارنست جونز ، بريل

الفصـــــل الســـــادس

فى حلبـــة النزال

يظل تحديد خصـــائص فرويد وصـــفاته ناقصـــا دون صـــورة له كمناضل : فقد كانت الصراعات جزءا جـوهريا من حيـاته ، لان عمله تحدى المحارم التى خلع عليها الزمن هالة من التبجيل · وهز اســـاس أكثر المعتقدات قداسة · والحجج التى استخدمها فى الرد على خصومه يمكن فحصها ومناهج جدله يمكن أن يدرسها أى انســــان ، فى كتبه · ولكن كيفية استجابته الانفعالية ليست بمثل هذا الوضوح · ولقد اتيحت لى فرص عديدة لأكون لها شاهدا لأن ســـنوات تعاونى الوثيق المنتظم معه تقع بالضبط فى نفس الوقت الذى اشـتد فيه الرفض للتحليل النفسى « وقسا النقد الموجه اليه حدة » ، عما كان عليه من قبـل أو من بعد · والواقع أن ليس لدى الكثير لاقوله بهذا الخصـــوص لا لسبب الا انى رأيت الأشياء من جانبه وحده · وبرغم أن قدرا كبيرا من الضوضاء قد أثير من حوله الا أن اليسير منها نفذ بعمق كاف لاســـــتثارة ذهنه أو ليسبب له قدرا كبيرا من التحمس · فقد وقف داخل دائرة سحرية لا تسمح بدخول أية أرواح معادية اليه · وليس معنى هذا فتور همته أو دفاعه عن الذات تهربا ، ولكنه دخل ساحة السباق فى مناسبات معينة مختارة · وبعد المعركة كان يعود هادئا الى عمله غير ملق بالا الى الجمهور الثائر ·

فاغلب ما وجه اليه من انتقاد كان أمثلة جوفاء لتاكيد الذات ومظهرا فارغا لغطرسة ازدهرت فى العقل الألمانى أبان الســنوات التى ســبقت الحرب العالمية الأولى ولا يضاهيه الا نفس المدى الذى بلغته أثناء الفترة السابقة على الحرب الحالية · يضـــافا اليهما النزعة المميزة للغلظة الألمانية التى لا تكتفى بالافحام عن طريق البينات بل تنزع الى ملاشاة كل اثر للخلاف فى الرأى ، بل انكار حق الخصم فى الوجود · وانها لمشكلة

مطروحة للبحث عما اذا كانت هذه الغلظة شكلاً من أشـــكال العنجهية الألمانية أو العنجهيية نتيجة الغلظة ، ولكن لاشك أن ما من أمة عامست عظماء رجالها بمثل هذه القسوة — مثل الأمة الألمانية • ومن المعروف أن العبقرى لا يقر بفضله فى زمنه • وحقيقة انجيلية أيضا أن لا كرامة لنبى فى وطنه ، ولكن حالات مثل القذف بالطين والشـــتيمة التى تكومت على جوته وشيللر استجابة « لعملها العملاقى والصمت المطبق الذى جوبه به شوبنهاور على مدى ثلاثين عاما ردا على عمله الخـالد هى حالات لا مثيل لها فى تاريخ غيرها من الأمم المتحضرة • وايفاء الشيطان حقه يقتضينى أن أقرر أن بعض النقاد اليهود شـــاركوا فى معرض الفجاجة ورداءة الذوق — ولعلهم ارادوا ان يثبتوا بالمبالغة تماثلهم الكامل للعنصر التيوتونى • وبصرف النظر عن هذه الأمور المســـتهجنة يمكننى أيضا أن أقرر أن العلماء اليهود كـانوا أشد ناقديه قســوة — وهذا مثل طيب لأسطورة النازية عن تضامن اليهود الروحى •

ويخبرنا فرويد فى كتابه « تاريخ حركة التحليل النفسى » عن مدى دهشته لرد الفعل العنيف الذى جابه قوله ان الاضطرابات العصـــابية ذات مصدر نفسى جنسى • والأرجح أن دهشـــته كانت قصـيرة المدى وذكرى من ذكريات الماضى ولاشك عنـدما عرفته • فقـد كان فرويد حينذاك على يقين من أن الرفض الانفعالى الذى لاقاه التحليل النفسى للوهلة الأولى كان ظاهرة طبيعية ضرورية مثلها مثل المقاومة التى يلقاها الطبيب أثناء تحليل مريض مصاب بالعصـــاب(*) • ولذا لم ينزع الى التورط فى شحان مستمر لا فائدة منه • وكان ينصح أتباعه أن ينهجوا نهجه • فلم يستطع مهاجموه أن ينالوا منه غير رد سريع حاد بين الحين والحين • ومرجع هذا عقم الدفاع كتابة عما أثبتت صــحته النتائج • فنجاح التحليل النفسى — فى مداه — لا يعزى الى انتصاراته فى غمار المصادمات الملحمية ، بل الى ما أتت به نتائجه الايجابية من ثمار •

ولم يكن تســـليم فرويد بحتمية المعارضة للتحليل النفسى ولا ندرة احتجاجاته العامة عرضين ناجمين عن رخاوة فى طبعه ، ولـكن وعيه بالسبب الأعمق للهجمات نأى به عن النظر الى شـــخصيات المهاجمين وبواعثهم الشخصية بعينين راضيتين • فهو قد أسقطهم من حســـابه بسبب انعدام ما يشعر به نحوهم من الاحترام ، وليس لرقة شـعور أو

(★) يقصد المؤلف أن مقادمة النقاد للتحليل النفسى مثلها مثل مقاومة المريض المصاب بالمرض النفسى للمحلل الذى يقوم بتحليله •

« المترجم »

لرغبة فى تجنيب احســـــاساتهم كل ايلام ولذا كان اذا تحدث عن أحد مهاجميه المعتـادين ، فعن رغبــة فى التفكه ببعض القصص المسلية • ولازلت قادرا على تذكر اثنتين من هـذه القصص رواهما بشــىء من الحماس الساخر •

كان هناك « ناقد رفيع المقـام » أنكر بشــدة وجود أية صــلة بين العصاب والجنسية ثم ووجه فى عيادته بفتاة مصـابة بالهستيريا كانت نوباتها تقليدا سافرا لفعل الولادة • فقال « لا شأن للأطفال بالجنسية » وانصرف •

وثمة آخر أخبر تلاميذه بأنه لا شــىء من الصــحة فى النظرية الفرويدية ثم تقدم ليعرض حالة عصاب حصارى • فروى المريض بعض حصاراته واشتكى من أن الحصـــار الذى يسـبب له أشـد عذاب هو ما يشعر به من دافع لرفع سترات النســاء اللاتى يلتقى بهن(*) • ورأى الأستاذ الابتسامة على وجوه طلابه فقال : « رويدكم • سترون أن المظهر السطحى لهذا العرض مضلل » • وعندئذ سأل المريض : أتشــعر بهذا الدافع الحصارى بالنسبة لوالدتك كذلك ؟ » « أجل يا ســيدى الأستاذ ، اشعر به شديدا جدا ، وهذا أســوأ ما فى الأمر !! » وهنا قال الأســتاذ « ارأيتهم أيها الســادة أنه لا يمكن أن يوجد شــىء جنســى فى هذا العرض(**) » •

ان عداء هؤلاء النقاد الذين نظروا الى التحليل النفسى من الخارج ولمتكن لهم بهغالبا سوى معرفةواهنة لم يسبب لفرويد أية متاعب• كانت لديه ابتسامة مرة للادعياء وردود ســريعة للنـاقد الجـاد • ولكن ثمة ضرورة لم تكن فى الحسبان اقتضته للدفاع عن أعماله وسببت له عناء اكثر جدية الا وهى : اضــطراره الى مصــاولة اتباعه السابقين الذين تحولوا عن تعاليمه مرتدين وكونوا مذهبا خاصا عن طريق اعادة تشكيل جوانب معينة من التحليل النفسى ، واهمالا جوانب أخرى واضــافة

(*) كان هـذا وقت الفساتين الطويلة والسترات القصيرة .

(**) ثمة علاقة جنسية بين الطفل وامه (عقدة اوديب) ولكن هـذه الرغبة تكبت ، ولكن المكبوت يعود للظهور ، فى ظل ظروف خاصـة ، ويكون المرض النفسى (العصاب) ، دون أن يعرف باعثه . وهـذا يمثل حـال المريض فى هـذه الدعـابة . اما الأستاذ ، فقد بنى حكمه هذا ، لانه يجهل المكبوت لديه .

« المترجم »

عناصر جديدة مشكوك فى قيمتها(*) • هنا وضع فرويد كل نار طبيعته وقوتها فى الرد على هؤلاء ، وخاصة يونج وأدلر • وما كل له جهد أبدا فى العثور على حجج جديدة تفحمهم ، وما توانى قط عن العودة الى الميدان ، ودفع اتباعه الى الاشتراك فى المعركة • ولا يرجع هذا الحماس ، البين الاختلاف عن موقفه ازاء المعارضة من الخارج الى الاعتقاد الخاطىء الى أن هذه النظريات الجديدة كانت أكثر خطورة على التحليل النفسى من المقاومة القديمة ، كما لم يؤثر فيه أن هؤلاء الخصوم كانوا فيما مضى يدرجون فى عداد خيرة اتباعه • ولكن الذى أثاره ـ بعيدا عن العنصر الشخصى الذى سنتحدث عنه ـ **كان مشكلة أن هذه** الآراء الجديدة التى ظهرت أولا تحت اسم التحليل النفسى ستخلط **الأشياء وتوردها مورد الارتباك الى درجة يصبح معها من المستحيل تبين ما هو تحليل نفسى فعلا وما ليس كذلك** • ويجب أن لا يغيب عن البال أبدا ان فرويد لم ينزل أهمية التحليل النفسى دون منزلتها لأنه كان من بنات أفكاره • بل لأنه **كان على يقين أنه أبعد الاكتشافات التى أوجدها الانسان فى سبيل فهم نفسه مضاء وفعالية** ، واعتبر أن أمانته المنزهة وواجبه المقدس أن ينأى به واضحا خالصا عن كل ما يشينه • وكان فى آداء هذا الواجب لا يعتوره ملل ولا ينال منه كلل ، صلبا ماضيا كالفولاذ « مؤمنا » يكاد يبلغ حد التعصب والاستشهاد •

وكانت اكثر « **الانشقاقات** » **أهمية** تلك التى قام بها كل من ادلر ، وشتيكل ، ويونج ، ورانك • ولم يثر فيه رحيل شتيكل اى شعور عميق • فلم يأخذه فرويد أبدا مأخذ الجد رغم اعترافه بمواهبه المختلفة • وكان هدوؤه مثيرا لمزيد من الدهشة عندما غادره رانك الذى كان أكثر معاونيه ائتمانا لأكثر من عشرين عاما • ولكنه قد لاحظ أن تغييرا أساسيا قد طرأ على تكوين شخصية رانك وأخذ فى النمو ابان ظهور مرضه القديم العضال (**) فمعرفته بأن رانك سيغير من موقفه بالنسبة للتحليل النفسى عصمته من اى أسف عاطفى كما سنبين فى مكان ما من هنا الكتاب • **وعندما اعتزل ادلر كنت لا أزال** حديث العهد بالتحليل النفسى

(*) ان مشكلة ما اذا كانوا قد قاموا بمجهودات مستقلة فى علم النفس ، فيما بعد عندما أصبحوا أكثر بعدا عن طرق فرويد فى التفكير ، ليست موضوع نقاش هنا • اذ أن قصدى هو أن أبين موقفه ، لا أن أعطى تقييما أو نقدا لمدارس الفكر السيكلوجى المختلفة •

(**) استخدم فرويد وصف هذا التغير للاستشهاد به فى أحد كتبه ، دون أدنى دلالة على الذى يعنيه من الأشخاص •

حتى أعرف رجعه الشخصى ، ولكن عملية خروج يونج من التحليل النفسى شـــهدتها خطوة خطــوة ، حتى ذروتهـا النهائيــة فى مؤتمر ميونيخ عام ١٩١٣ ·

ان الشاعر العظيم خير من يسدى النصيحة فى كل حال ، لكل من يرضى أن يعيره اذنا واعية · كان على فرويد أن يقرأ ويتذكر ما يقول كارل ســتبلر فى روايته « ايماجو » عن مواطنى سويســرا « لو انفتح امامهم بابان ، يؤدى احدهما الى الفردوس ويؤدى الآخر الى محاضرة عن الفردوس لاختاروا الباب الثانى » · وهكذا حدث ان أســـاء فهم يونج واهتمامه بالتحليل وشــيد آمالا كبارا على شخصيته التى رأى منها الجانب البراق فحسب · وكان مرة أخرى ضحية تفكيره المتطلع وذهب خداعه لذاته الى حد انه لم يقرأ العلامات فى الســـماء — أعنى الأعراض الضئيلة ولكن المتكاثرة بثبات فى موقف يونج المتغير نحوه — بينما كان آخرون أقل منه حدة نظر قادرين على تبينها ·

وقد اطلعنى فرويد على خطاب يونج الأخــير الــذى أيقظــه على الحقيقة الأليمة · ولا شك أن هذا الاجراء كان أكثر الحوادث فى حياته ايلاما · وبعدما برأ منه بذل كل جهده ليخط خطا بين الوضوح بينه وبين تابعه السابق · فلم تكن القيمة العلمية لنظـريات يونج تقع من نفسه موقع التقدير · وانتقد هروبها الدائم الى غيبيات شــبه صوفية ، وعندما أولاها مزيدا من الالتفــــات لم يكن مدفوعا بغير رغبته فى النأى بها عن التحليل النفسى ·

وقد آثارت كل هذه الانشــــقاقات — ولم أذكر البســـيط منها — وما أعقبها من مشاحنات فكرة خاطئة عن شخصية فرويد والدور الذى قام به فى حركة التحليل النفسى فقد آثارت هذه الاحداث قدرا كبيرا من الضجة واجتذبت لفترة انتباه العامة لاالعلماء فحسب ·وهلل اعداء التحليل النفسى — وكانوا متوافرين دائما — لهذه الأحداث متنبئين فى شــماتة بانحلاله الســريع · فقد بدا للنظر السطحى كأن كافة الرجــال البارزين الذين كانوا يوما أقرب الأصدقاء الى فرويد وأعزهم عليه ، مثل بوير وفليس أولا ، ثم ادلر ، ويونج ، ورانك ، قد اعتزلوه عاجلا أو آجــلا نتيجة اســتبداده أو ســـوء طبيعته · وهذا بعيد عن الحقيقة ولكن كان غض النظر عن جماعة الاتباع الأكثر عددا من « الأبناء العصاة » الذين يثيرون اهتماما أكثر · وساد لفترة من الوقت الزعم القائل بأن فرويد كان شخصا جافا ممضا ، وناظر مدرســة طاغى السلطان يعدو على

كل من يظهر أدنى علامة على العصيان . وانه لمن أغراض هذا الكتاب أن يحطم هذه الخرافة ، التى هى فى الواقع كاملة البطلان . على أية حال سيكون من المفيد فحص العوامل الكامنة فى ذهن فرويد ، تلك العوامل التى تسببت فى حدوث سلسلة طويلة من الانشقاقات ، واحدة فى اثر أخرى : فثمة شىء ظاهر موجود فعلا فى المواقف التى سببتها شخصيته ، شىء مستقل عن البواعث الفردية فى كل قضية على حدة .

كان التخفف من كل عبء للسلطة رغبة فرويد الزائدة . فأندفع فى طريقة بحثا عن الرجل الصالح الذى يستطيع ان يأتمنه على قيادة حركة التحليل النفسى ، وكان عندما يخال أنه قد عثر عليه ، يحاول أن يلقى اليه بمقاليد السلطة كلها . وهذا ما حدث مع ادلر ، ويونج ، ورانك . وكان هذا خطأ تكتيكيا لأنه من الحقائق التاريخية الذائعة أنه من بين الأشخاص الذين يحتمل منهم عصيان السلطة الحاكمة ، يكون الأمير المتوج أقربهم الى الرجحان فى هذا العصيان . والتحليل النفسى يوضح سبب مصداق هذه القاعدة التى قوضت الكثير من الأسر الحاكمة . وكان فرويد يعرف كل هذا ولكن ولعه الحاد بالقاء زمام التحليل النفسى بين أيد أمينة كانت من القوة بحيث تطغى على كل معرفته النظرية وخبرته المكتسبة بشق النفس .

ويصبح هذا الانشقاق المحتوم بين الملك والأمير المتوج ، بين الأب والابن بين الأستاذ وتابعه ، بنفس الخطورة والصعوبة اذا ما حدث فى المجال التحليلى بين المحللين ، الذين هم بشر مثل غيرهم ، بل على العكس ثمة تعقيدات معينة تتدخل وفيها جانب من الضريبة التى يجب دفعها من أجل فهم سيكلوجى أفضل .

فالاشتغال الدائم باللاشعور يعمل لفترة طويلة من الوقت أشبه بمكدر لا يمنح العقل راحة . اذ من السهل اثارة الانفعالات ولكن ليس من السهل اعادة تنظيمها على أساس جديد . فلا يمكن أن يتبع المحللون النفسيون نصيحة الاختلاء بالذات . والسبيل الوحيد أمام المحلل ليتخلص من هذا الوضع المؤلم هو ألا يقف أبدا فى منتصف الطريق فى بحثه للاشعور الى أن يتبين أن تحليله كامل شامل ولكن فى المراحل المبكرة ، لم يكن هذا السبيل ميسرا ، الا عن طريق التحليل الذاتى وهو عملية بطيئة وليست فى ميسور كل انسان . ومن الوجهة العملية كان

فرويد فى تلك الأيام الوحيد الذى كانت معــلوماته وخبرته من التقــدم بحيث يقوم بعمل كهذا بنجاح وقد كان دائما على استعداد ليساعد أصدقائه وأتباعه بتوجيه النصح اليهم فى تحليلهم لذواتهم ، ولكنه رفض أن يقبلهم كمحلليه المنتظمين · وكان هذا القرار حكيما وحريصـــا لأن تداخـــل العلاقات الشخصية والتحويل التحليلى النفسي كان من شأنه أن يقيم عقبات أســـوأ فى طريق التقدم التحليلى ، وبرغم كل هذا لم يكن هذا القرار أقل عقما · فالوجدانات المسموح بها نصفا ، والمكبوتة نصفا ضد الأب البديل والتمرد ، والبغضاء ، والحنق ، وغير هذا من الأمور لعبت كافة ضروب الخدع الماكرة وقد اختفت هــذه المشــكلة فيما بعد ، مع « الجيل الثانى » من الرجال الأحدث ســنا الذين لم تكن تربطهم بفرويد علاقة شـــخصية وثيقة ، واســـتجاب مراراً لرغبتهم فى أن يقـــوم بتحليلهم(*) ·

وثمة حجر كان فرويد يقذف به الآخرين ألا وهو : موقفه المتعصب اذا ما واجهه شىء يعتبره انحيازا عن نغمة الاخلاص والأمانة الذهنية ، فهو لم يكن يعرف الاستفادة من نصيحة بنيامين فرانكلين الحكيمة لتجنب الصدام : « أستطيع أن أقدر وجهة نظرك » أو ما يشــبه ذلك · لم يكن يعرف الابتسام فى وجوه أولئك اللئام الذين ينشغلون ببناء الجسور بين « لا » و « نعم » وما كان يرغب فى مهادنة القاطنين فى أرض حرام بين الحق والباطل · وكان يشعر أنه أبعد ما يكون عن أولئك الذين يولون متنكرين لحقيقة اثبتت على يقين لأنهم أصبحوا على خوفمن أعدائهم ، أو من أصدقائهم أو أنفسهم خائفين · ولم يكن يرد على مثل هذا النقص فى الشجاعة الخلقية باللوم العنيف ، بل بالاحتقار · وما من دعوة يمكن اقامتها ضد الاحتقار ، فصمته يخز ويسبب ألما انكر وقعا من أجهر الأحكام وهذا ما جعل وصل ما انقطع لا وصل له فى مقتبل الأيام فكانت كل قطيعة مع صديق سابق فى حياة فرويد لا رجعة لها · لقد رأيته مرات عديدة يبذل كل ما فى وســعه لأولئك الذين يمرون بأزمة من الأزمات ولكنى لم ألحظ أبدا انه شعر بالرغبة لكى يخطو خطوة فى سبيل اقرار أواصر السلام · (بينه وبين من لا يشعر نحوه بالتعاطف) ·

(*) لم تكتمل فكرة « التحليل التدريبى » الا حين قدمت معاهد التحليــل النفسى الحديثة العهد التسهيلات اللازمة له · وقد تبين ان خير طريقة لتحاشى المصاعب الناجمة هى تعيين شخص آخر غير أستاذ الجماعة ووالدها كمحلل تدريبى يكون بمثابة الوسيط · ولكن يمكننى ان اقرر بعد اثنى عشر عاما من الخبرة فى برلين انه حتى عمل الوسيط ليس مرضيا فى جميع الأحوال ·

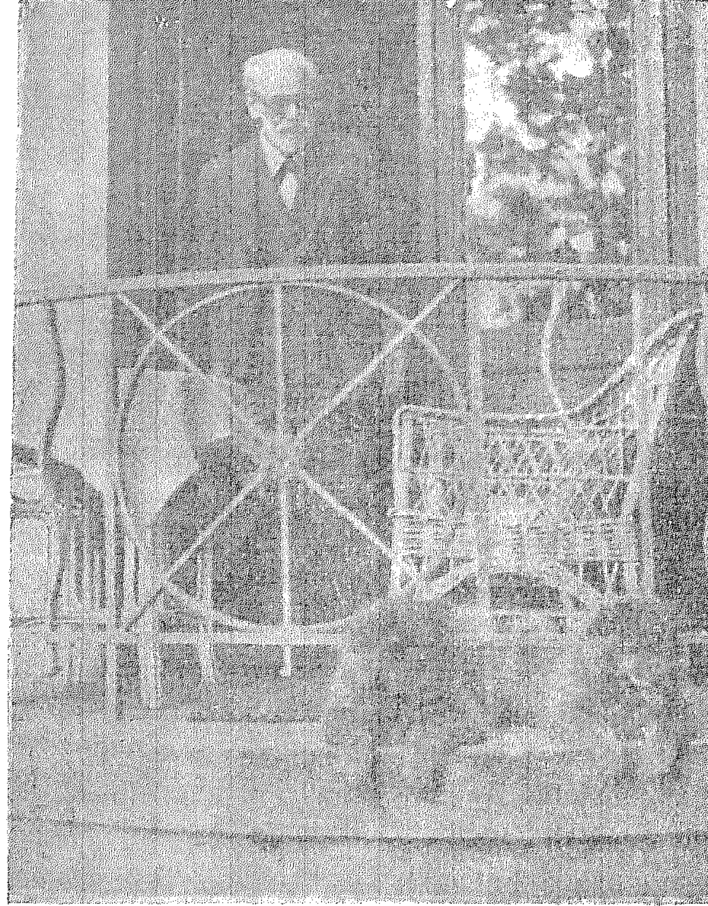
لم تكن كل هذه السمات والاتجاهات فى شخصية فرويد بمجرد المصادفة جوانب من شخصية مكتشف اللاشعور وواضع اسس التحليل النفسى ٠ انها لم تكن الا مظاهر مختلفة لنفس الاقنوم الأول ٠ فالتطلع الى رأس « الميدوزاليس » (*) بالأمر الذى يؤخذ مأخذ اليسر وقد كان فرويد – وهذا خلاصة كل ما قيل فى هذا الفصل – من رباطة الجأش بحيث يقف كالطود ثابتا عندما يتبين اننا لسنا سادة أنفسنا ولن نسودها أبدا ، وحتى عندما اكتشف الاكتشاف المذهل الذى يبين من أية مادة غير مقدسة جبل السادة المجهولون (**) ٠ فلم يجفل عندما كان عليه أن يتطلع الى أسفل ، من مكانه بحافة الهاوية لكن أغلب الآخرين الذين تابعوه أصابهم الدوار لأول وهلة ٠ وكان عليهم أن يتعلقوا به عندما أخذت الجبال تميد من حولهم ٠ فماذا استطاع أن يفعل أولئك الذين حالت كبرياؤهم دون تقبل مساعدته وكانوا من الضعف بحيث لا يسندون أنفسهم ؟ لقد حجبوا أعينهم بأيديهم وولوا هاربين ٠

(★) الميدوزا ثعبان هائل الحجم متعدد الرؤوس ، كلما قطع منه راس ظهرت مكانه رؤوس عديدة ٠ وهو رمز للمشكلة التى يعسر حلها ، أو التى يستلزم أى حل لها حلا آخر ٠ وهذا ينطبق على المشاكل العلمية ٠

« المترجم »

(★★) لسنا سادة أنفسنا لان اللاشعور هو المتحكم فى أفعالنا وأقوالنا ٠ وهو السيد الحقيقى كما أنه ، نظرا لانه يحوى كل « مكبوت » ، ليس من مادة يقبلها ويرتضيها المجتمع ٠

« المترجم »



Hans Cecpasius
Freud in his Summer Place

فرويد في مصيفه

الفصـــل السابع

كل ما أعرفـه عنه

كل من يستغرق فى قراءة كتاب يعقد مع مؤلفه نوعا من الزمالة • وتبنى مساهمته فى هذه المشاركة على استعداده للاستجابة للكتاب بكل سمة من سمات شخصيته وانفعاله • وخياله ، وذهنه ان لزم الأمر • ويصـــبح الكتاب ومؤلفه جزءا متكاملا منه ، فيقتســم معهما جانبا من حياته الخاصة ، يعزل عنه الغرباء ، بل الأصدقاء فى أغلب الأحيان •

ويمكن أن يحدث هذا حتى لقارىء كتاب لا يدور حول الانفعالات ، بل يحوى مادة موضـــوعية فحسب عن الحياة العضوية أو الطبيعية الصـــماء ، مثل كتب البيولوجيا والفلك ، والجيولوجيا • ولكن يحدث هذا حتما اذا ماذكر الكتاب القارىء بخبراته الداخلية الخاصةواللاشعورى منهاطبعا • وتصبح هذه الرابطة بالغة المتانة بالنسبة لأولئك الذين عار المؤلف لخيالهم المكبوح المقيد بالأرض زوجا من الأجنحة ، فتهتز نفوسهم وتلهج الى الأبد بالامتنان من أجل احساس لم يكن لهم به عهد وفرح لم يكن معروفا لديهم • وتنعقد أواصر هذه الرابطة فى الغالب فضل روائى الفن الكبرى كالقصائد ، والروايات ، والأعمال الدرامية ولكنها ليست بمنأى عن الأعمال التى تدور حول الحقائق الجامدة ، كالتاريخ ، وسير الشخصيات ، والاجتماع ، والفلسفة تلك التى تعكس الحياة الانسانية ، وعواطفها ، وحـــالاتها المزاجيـــة ، وأهواءها ، اذا كـــانت انسانيتها أصيلة لا يشوبها زيف •

ومشـــكالة خلق هذه العلاقة أو عدمها ذات مغـــزى بعيد الدلالة بالنسبة لعلم النفس • اذ يمكن أن تستخدم كمحك اختبار لقيمة أى كتاب عن الذهن ومســـائله • فان أخفق الكتاب فى أن يثير فى طالبه اهتماما

بشخص مؤلفه واحساسا بشخصيته ، فانه لا يقدم أكثر من قشرة فارغة من علم النفس ·

وتتحقق نتيجة كل مشاركة من هذا النوع بأن يحاول القارىء أن يكون لمصلحته الشخصية صورة عقلية لصديقه وزميله الجديد (أو خصمه وعدوه الجديد) · ويتم هذا بلا قصد ولا شعوريا فى كثيرا أو قليل ، ولكن كلما عمق تأثره بالكتاب ، قويت رغبته ف ابداع لوحة كاملة واضحة عن مؤلفه ، وان تكن من نسيج الخيال · ومعظم المادة اللازمة لصورة كهذه يقدمها الكتاب نفسه والانفعالات التى آثارها · فأجزاؤها تلتئم بما يلقاه القارىء ف طريقه من احداث سيرته ومدى اتفاقها مع ما كونه من قبل من أفكار · ويستخدم الشكل الخارجى للمؤلف ، سواء ف شخصه أو ف صوره لدراسات فى علم الفراسة ·

ومثل هذه الصورة برغم افتقارها الى الموضوعية ، تمتاز بأنها تنبض بالحياة ، ومن هنا تختلف عن تمثال الجص التقليدى الجامد الذى يقام تكريسا لأحد «الخالدين » وهى تبنى شخصية الرجل على عمله أكثر مما تبنيه على حياته الفعلية وتخلع عليه مما يتفق مع مثالية المعجب به أكثر مما يطابق الحقيقة · وبرغم كل ذلك ، فهى ليست أكثر بعدا عن الدقة من الصور الذهنية التى نكونها عن معارفنا الشخصيين بل ربما عن أصدقائنا الخلصاء وسواء أكانت صحيحة أم خاطئة فان هذا الميل المعتاد يلعب دورا هاما ف التقريب بين الأفكار ولولاه لظل عالم الآداب بالنسبة لنا مغلقا ·

وانى لأتساءل عما يمكن أن تكون انطباعات قراء فرويد عنه كل على حدة وليس فى مجموعهم ــ فى الوقت الذى كنت فيه قارئا له ولا شىء أكثر ــ أعنى الفترة الواقعة بين التقائى الأول بكتاب « تفسير الأحلام » وأول اتصال شخصى لى به بقاعة المحاضرات » وكان وجيزا للغاية وهو الآن محتجب فى ذاكرتى خلف الذكريات التى توالت عبر خمسة وثلاثين عاما · وقد بدأت محاولتى من زاوية خاصة فأعطتنى حيازة ذلك الجانب من فرويد الذى ــ استبعد منه تلاميذ عمله فيما بعد ، ولذا فمن المحتمل أن تكون تجربة الرجل العادى مخالفة لتجربتى ·

وكلما ساءلت نفسى عن انطباعى السائد الدائم ، يأتينى جواب بعينه الا ، وهو : انه كان مختلفا عنى · وقد كان هذا الشعور قائما ،

وظل ماثلا طوال السنوات العديدة منذ تعارفنا ، ولم يهون منه ودنا النسبى شيئا · « لقد عرفت دائما أنه كان مختلفا » ولكن هذا القول لا يقع موقع الوضوح والوجاهة ، بل يحاول ايضاح رأى مباشر بمساعدة استدلال ضعيف يذهب التوقير الدائم · وسيكون من الأفضل أن نحاول اعطاء اجابة من الجانب السلبى · ونبدأ بتقرير أنى لا أعتقد فى النفرد والامتياز الذى ينتج عن هبات خاصة تسقط الى الشخص بطريقة غامضة على الافهام من أحضان الآلهة · وقد قابلت عددا لا بأس به من هؤلاء الأشخاص الممتازين وكانت لى ببعضهم صلات وثيقة ، مثل كارل ستبلر الشاعر السويسرى ، وسريجى اينتشتين ، مبدع بوتمكين Potemkin وارثو شنابل الموسيقى ولا يمكننى أن أقول أننى لم أشعر بالحسد من مواهبهم ، ولكنى لم أعتقد أنهم شخصيات من عالم مغاير لعالمنا ولم أتردد فى قبول صداقتهم على قدم المساواة اذا ما واتت الظروف ·

وقد قابلت كثيرين يمتازون بصفات اقتبستها لنفسى بنجاح اقل ، مثل الأصالة وسداد الرأى ، والعمق ، والمثابرة ، وقوة الشخصية ، وغيرها من حميد الخلال وعزيت نفسى بتفكيرى انهم جبلوا من نفس المادة التى جبلت منها برغم أعمالهم العظيمة ·

ولكن فرويد كان مختلفا بطريقة أخرى · لامراء فى أن بصيرته السكلوجية كانت هبة من الآلهة مثله مثل الموسيقى أو الشعر · ولكنى شعرت أن فرويد كان يمكن أن يكون مختلفا عن عامة البشر لو لم يستدبر المعمل الفسيولوجى وينشغل بعلم النفس أو علم النفس المرضى · فما أمكننى ببساطة أن أصدق أنه جبل من نفس الطين الذى جبل منه الآخرون · فثمة جوهر من نوع خاص قد صهر فيه واسبغ على النتاج النهائى لشخصه درجة أعلى من الكمال · وكان معنى هذا وجود هوة بيننا لم أحاول عبورها · وبرغم أنه كان يدعونى صديقه ، لم أشعر أبدا أنى كذلك ، فقد ظل بالنسبة لى دائما على استعلاء (*) مثلما لقيته للمرة الأولى بقاعة المحاضرة · لقد مررت بلحظات من النقد والعصيان ، ولكن لم تعم عيناى لحظة عن الهوة التى تفصل طبيعتى عن طبيعته ·

(★) لا يقصد المؤلف أن فرويد كان متعاليا متكبرا ، بل يقصد أنه ، مهما امعن فى التواضع ، يظل موضع التوقير والتقدير .

« المترجم »

ولا يســـاورني شك في ان فرويد ايضـــا لم يكن يعتبر نفســه « في مصاف الرجال العاديين » • وما قال ابدا شـــيئا يمكن أن يحمل محمل الاشـــارة الى فكرته الســامية عن نفســه ، كما أنه لــم يجحد امتيازه متواضعا • وأظن انه تقبل هذا الأمر كما تقبل أية حقيقة اخرى اثبتها البرهان اثباتا كافيا ، أعني بالامتثال « لمبدأ الواقع » دون النظـــر الى ما تتضمن من خير أو شـــر • فقد حدث أثناء فترة الخـــلاف الادلرى أن بدأ أحد الخصوم حديثه بازجاء المديح لعبقرية فرويد ، فقاطعه بجفاء قائلا انني لست محبا للمديح •

فهو اذ رضي أن يتحمل علامة الامتياز ، فانه كان يرفض دائما أن يضع نفسه من الآخرين موضع الرجل العظيم ، ومعلم الحكمة ، والعبقرى الذى لا تكتم عنه العقول اسرارا ، أو الشخصية التي تحار في سبر كنهها الألباب • وان تجنب الدعاية الشخصية بكل صورها لم يكن سهلا على رجل صفع عمله الدنيا في موضع حساس ، ولكنه نجح في هذا دون عناء كبير • وكان عدم اكتراثه لهتاف العامة واعجابهم كاملا مثله مثل قلة احتفاله فيها مضى بسخطهم وضجيجهم• فذات مرة كنا نتحدث عن الشعبية الفجائية التي حازها اسمه ، فاخبرني أن أوليفر كرمويل قد سئل مرة « ألســـت فخورا اذ ترى الجماهير قد أقبلت لتعاين المختار من لدن الله وهو يحوز انتصارا ؟ » فأجاب قائلا : « كان من الممكن أن يأتي قدر هؤلاء اضعافا ثلاثة ليروني على حبل المقصلة معلقا » •

كان من الواضح الملموس أن الملق لاحظوة له عنده فلم يزج اليه منه غير النذر اليسير • وكان احترام اتباعه له يتجلى أعمالا لا أقوالا • كما لم يكن في نفس الوقت من أولئك الناس ذوى الحســـــاسية المرهفة الذين ينشغلون دائما بما تحمل شخصياتهم من قيم • فكم من مرة هوجم بطريقة تنبو عن الذوق ، وكنت اشهد ما يجرى وأنا اتميز غيظا • بينما ظل ثابت الجنان لا يتحرك منه ساكن • وعلى الرغم من هذه الدماثة الزائدة (لعلها الصفة الوحيدة التي كان يدين بها لفينا) فانه قد رفض أن يمر بالخلافات الجدية مر الكرام بالكلمات الناعمة والتربيت الحنون على الظهر • فعندما أخبره بعض أتباعه بأنه قد وجد طريقة لنشر التحليل النفسي دون اثارة للعداء ــ وكان يونج قبل أن ينشــق على التحليل النفسي أولهم ــ وقف منهم فرويد موقف المستنكر • فقد اتضح له أن لاسبيل الى المهادنة دون تضحية بعض الجوانب الهامة ، وأن « التحليل النفسي دون دموع » يدل دائما على بداية التنازل عن المبدأ •

وتتضح كراهية فرويد للادعاء فى طريقة حديثه · فما استعمل ابدا جملة جوفاء · فكل اقواله كان وقعها من البساطة والعمق بحيث يفوت معناها القارىء العابر · كنت أحيانا اذ آخذ طريقى عائدا من منزله ، اتمعن حديثنا بحرص فأتبين أن هذه الملاحظة أو تلك التى بدت عادية للغاية انما تتضمن فى الواقع شيئا أصيلا فريدا فى أصالته · وكان يفضل فى أحيان أخرى أن يبدو مستخفا أكثر منه عاطفيا فمثلا ، كانت المشكلة المطروحة للبحث هى السبب فى وجوب بقاء المحلل غير مرئى اثناء الموقف التحليلى ، فيجلس خلف المريض · فقال فرويد فجأة بعد أن أصغى الى الحجج : « لا يمكننى أن ادع نفسى عرضة لتحديق الأنظار ثمانى ساعات يوميا» فوقع قوله هذا موقع البساطة الزائدة وعلى شىء من الجفاء · وقد علمتنى التجربة فيما بعد أنه يحوى كل معنى جوهرى · فما من انسان يشعر نفسه تحت ملاحظة وثيقة دائمة ، ويعرف أن أبسط حركة منه ستستخدم كدليل ، يستطيع أن يترك نفسه للانتباه المتحرك فى حرية واللازم لتجميع المادة اللاشعورية ·

وكان فرويد غير استعراضى كذلك فى اثناء المواقف الانفعالية المثيرة · فقد كنت حاضرا اثناء توديع ابنه الأكبر الذى عاد بعد اجازة قصيرة الى الجبهة الروسية ، وهى بالنسبة لضابط فى سلاح المدفعية مكان محفوف بالأخطار · بعد « الى اللقاء » ومصافحة قصيرة باليد تحول فرويد واستأنفنا حديثنا · وقد أتيحت لى مناسبات أخرى لأتبين مدى ما تعنيه حياة أطفاله وحسن تربيتهم بالنسبة له ·

كل هذا ــ أريد أن أكرره ــ كان نتيجة نفور فرويد العميق من التظاهر والادعاء · فلم يكن فى طبيعته أدنى أثر للتصنع · وقد أفاد هذا فى كبح جماح كل ميل الى التعاظم أو أية نزعة الى أن تبدو صورته الروحية أقل سموا مما هى عليه فى الواقع ·

تحدثت كثيرا عن موقف فرويد ازاء الأحداث المختلفة · ولنعد الآن الى يقينى بكونه مختلفا ، أو الى اعتقادى بعظمته بعبارة أخرى · كان عمله هو الأساس طبعا ولكن قوة خفية فى شخصيته ، صفة خاصة بالعبقرى ، كانت موجودة ولا شك قبل أن يبدأ عمله العلمى بوقت طويل وحافظت على وجودها المستقل · أو بعبارة أخرى ، كان به شىء وراء عبقريته وظل دائما متساميا عليها ·

قالت ارتميس بهدوء : « لم كل هذا الصخب ؟ ان عمله ليس الا بعضا منه ، انه هو نفسه الذى كان عظيما » .

كارل ستبلر ، « الربيع الاوليمبى »

الجزء الثالث ، الفصل الخامس « أبولو المكتشف » .

اما مدى سبق الرجل على عصره فقد ادركته من حادثة بسيطة فى مبناها كبيرة فى معناها .

وكان ذلك فى السنوات الأولى للتحليل النفسى عندما روى فرويد هذه القصة أثناء مناقشة جماعية : « سألنى مؤخرا أحد الذين يترددون على للتحليل . وهو مريض بالغ الذكاء مصاب بعصاب حصارى : انك تعرف أن الاطفال عندما يحصلون على الخبز والكعك ، يأكل بعضهم الخبز أولا ويأكل البعض الآخر الكعك أولا .. فماذا ترانى آكل أولا ؟ فأجبت انه بالطبع أحد الذين يأكلون الخبز أولا » فسألنا فرويد « كيف عرفت ذلك ؟ » فكانت اجابته نظرة تدل على الدهشة . وكان كل ما قاله بعد فترة صمت « كيف يمكن أن يكون غير ذلك » . واليوم يعرف كل من درس مبادىء التحليل النفسى أن العصاب الحصارى نتيجة تثبيت على المرحلة الشرجية السادية(*) وان من صفاته الجوهرية تكثيف اللذة عن طريق التأجيل . ولكن فى هذه الأيام لم تكن مقالتا فرويد « الاختيار العصابى » و «سمات الشخصية الشرجية » قد نشرتا بعد . ولم نتكرنا فى ذهن فرويد .

كثيرون غيره من السيكلوجيين الحدسيين ـ معظمهم لايدعون أنفسهم « سيكلوجيين » ـ قد وجدوا الحقيقة ، يقودهم الحدس اللماح ، ولكنهم توقفوا عند هذا الحد ، مكتفين بأستخدام موهبتهم كما منحت لهم . ولكن طبيعة الأمور تختلف حين يتعين المضى قدما فى البحث والتصفية ، وموازنة الحقائق وتقدير البراهين حتى يستحيل الحدس نظرية علمية قابلة للاثبات فى متناول أى انسان . فهنا تلزم شخصية حرة من الكف(*)

(★) أحد الاكتشافات الهامة التى اكتشفها فرويد ، هو أن الجنسية لا تقتصر على مرحلة البلوغ ، وانما هى توجد فى مراحل الطفولة المبكرة ، وفى تلك الفترة المبكرة من العمر لم تكن تقتصر على الأعضاء التناسلية ، وانما كانت تشمل مناطق اخرى عديدة من الجسم . من بينها المنطقة الشرجية .

(★) أو المانع inhibition

« المترجم »

حتى يستطيع سيل الحدس أن يأخذ مجراه الخفى وفى نفس الوقت شخصية من القوة تتحكم فى السيل عندما يعترض طريق التمحيص المضنى المتقدم . وعن هذا الطريق فحسب يتم توازن القوى . وهو الأساس الذى لاغنى عنه لعمل مجد ، وجهد موثوق به .

ولذا فان فرويد لم يثمله ما اظهره أحد أتباعه الأوائل من موهبة على الفهم والحدس اللماح لمنتجات اللاشعور . فقال فى حديث خاص عن ذلك الرجل الذى افتقد فيه الميل الى تمحيص تفسيراته ، انه يجب أن يعامل معاملة الخنازير التى تستخدم حاسة الشم القوية لديها فى العثور على الأشياء ، ولكن لا يسمح لها أن تمسها بخياشيمها .

وليس هذا مكان التأمل فى طبيعته . وسأحاول بدلا من ذلك أن أقدم نتيجة ملاحظاتى التى أتاحتها لى ظروف خاصة . وليست محاولاتى لتوضيح انطباعاتى عن فرويد بالجديدة ، فقد عاشت معى سنوات عديدة، منذ بداية اتصالى الشخصى به تقريبا . فقد كان طول الوقت أهم شخصية فى حياتى وكان شغلى الشاغل أن أشكل صورته فى ذهنى وأعيد تشكيلها حتى شعرت الى حد معقول بالرضى . ان صورتى التى كونتها لم يكن فى الامكان أن تكون أدنى وأقرب الى الواقع . ومن الشطط الادعاء بأن انتباهى لم يفته شىء أو أنه ليس ثمة مواضع معتمة لا يمكن اختراقها تحدث ادراكى ولكنى واثق على أية حال من انى وفقت فى العثور على بعض المكونات الأساسية لشخصيته وفى تشكيلها .

واذا سلمنا بالجانب الموضوعي(*) من البحث والاكتشاف العلميين ، فان مجالا متسعا للعناصر الذاتية يجب أن يحسب حسابه ، حتى فى مجال العلم « البحت » . فكيف يحدث أن يتقيد انتباه شخص بمشكلة مر بها الآخرون مر الكرام ؟ من الواضح أن هذا لم يحدث الا لأنه كان بطريقة غامضة مهيأ لهذا الاهتمام الخاص . وفى علم النفس يغدو مصدر هذا النوع من الاستعداد أسهل تبينا من أى مكان آخر . يجب أن يكون قد استثير واجتذب اللاشعور ، ذلك المصدر الكلى للارادة الذى منه تنبثق كافة طاقات العقل العظمى . ولقد خبرت كافة الأذهان هذه الاثارة من حين

(*) يقصد الصفات التى ينبغى للعالم أن يتحلى بها ، تلك التى نوه بها فرنسيس بيكون وغيره . أما الجانب الذاتى فيقصد به العوامل النفسية التى تصرف ذهن الباحث العلمى الى هذا المشكلة أو تلك .

« المترجم »

لآخر . ولكن أولئك الذين يحلقون فى عليائهم فوق عامة الناس يخبرونه بدرجة أعمق من الآخرين . فثمة نوع من القدر يعمـــل فى بناء نظرياتنا وكذلك حياتنا التى بين جنبينا دون أن ندرى عنه شيئا .

ثمة كون فى الأعماق كامن
أعماق الخلق أجمعين
فما يبدو لامرىء أفضل الأشياء طرا
الها كان أو الها من صنعه هو
سماء أو أرضا . انما كل شىء
يستمده من ذلك المعين وكذا
كل ما يثير فيه الخوف أو
يدفعه الى أن يسبغ عليه الحب

كان هذا المحــور فى أفــكار فرويد ، الذى أدت اليه كل الطــرق والدروب ، هو المدرك الجدلى عن العقل أولا ، ثم عن الحياة ، وأخيرا عن الكون(*) (أفضل « ثنائية » على « جدل » الذى أصــبح الملعب الخاص بمدرسة هيجل ماركس الفلسفية ، أما الاصطلاح الانشــقاقى وان يكن قيد الاستعمال ، فيبدو تكنيكيا للغاية) . لقد رأى فرويد فى كل مــكان حوله الصراع بين قوتين متعارضتين فأستخدمه مفتاحا لحل عدد كبير من المشــاكل المحيرة للعقـــل : « ظهر الخلاف الأول بين بروير وبينى حول مشكلة تتعلق بميكانيزم أكثر بساطة للهستيريا ، فقد آثر نظرية ـ شبه فسيولوجية .. وفهمت الانقســـام النفسى على أنه نتيجة عملية نبذ دعوتها حينذاك دفاعا ، ثم « كبتا » فيما بعد . « ان هذه الفقرة تصف بالطريقة الهادئة التى اعتاد فرويد أن يتحدث بها عن أعماله العظيمة ، لا شىء أقل من مولد التحليل النفسى . وبعد أن قدمت وجهة النظـــر الثنائية الدينامية وطبقت رغم كل المصاعب ، لم تعد نظرية « الحــالات

(*) غريزة الحيــاة أو الايروس (وهو أوســـع من التناســلية وأشـــمل) وغريزة الموت .

« المترجم »

التنويمية » ذات معنى · وأمكن ادراك نقطة التحول وانفتح الباب نحو اكتشاف اللاشعور وبداية علم نفس جديد · وسرعان ما استبدل الاصطلاح « دفاع » الذى استخدم عندما كان المدرك الثنائى لايزال غامضا أوليا ، الى الاصطلاح « كبت » باعتباره أكثر دلالة على صراع فعال بين قوتين متعارضتين ، وانتصرت هذه الكلمة وأصبحت فى الصف الأول من المصطلحات التحليلية ·

والتاريخ الداخلى لتطور نظرية التحليل النفسى (الذى لا علاقة له اطلاقا بالتاريخ الخارجى لحركة التحليل النفسى) هو قصة تعميق هذا المدرك الثنائى الدينامى وتوسيعه · واذا كان فرويد قد ابتدأ بالصراع بين ميول نفسية معينة ، قد رأى أخيرا فى كل مظهر من مظاهر الحياة العضوية نتيجة الصراع الذى لا يتوقف بين غريزة الحياة ، بانتصاراتها العارمة ، وغريزة الموت ، بقوتها الساكنة الخفية لكن لا يغلبها غالب ، أى الصراع بين ايروس وتيناتوس ·

والطريق المعقد المخادع أحيانا لهذا التطور هو نتيجة مباشرة للثنائية فى موقف فرويد العلمى ، فهو لم يقف من أمجاده أبدا موقفا جامدا ، إذ أن ظمأه الذى لا يروى له غليل من أجل كل استبصار جديد قد دفعه على الدوام نحو مشاكل جديدة واكتشافات جديدة · فكان الرائد فى كل مجال جديد ، نفد اليه التحليل النفسى مستكشفا ، فى علم النفس وعلم النفس المرضى وكذلك كافة العلوم التطبيقية كالانثروبولوجى ، والبيولوجيا ، والاستطيقا وكان الأول دائما سباقا على كافة المحللين الآخرين · لكنه اعتصم طوال الوقت بالنقطة التي بدأ منها ، فما ضل النظر عنها أبدا وكان يرتد اليها مخلصا من بعد الانتهاء من كل عمل جديد · فهو اذا جعل العالم قاطبة حلبة صراع بين ايروس وتناتوس ، فانه لم يحد أبدا عن وضعه الأول وثبت أقصى انتباهه على الصراعات النفسية داخل افراد · فقد رأى فيها الشكل الخاص الجزئى الذى تتبدى فى ظله القاعدة العامة · أما كيفية تقابل هذين الخصمين الرئيسين وعجم قوتيهما فى حلبة النزال من العقل البشرى والخطط التى نمياها والخدع التى استخدماها فى ظل هذه الظروف الخاصة ، كل هذا ظل بالنسبة له المشكلة الرئيسية من البداية حتى النهاية ·

وفى مجال الحديث عن ثنائية فرويد الأساسية ، تستحق على الأقل تلك المحاولة التى تستهدف وصم التحليل النفسى بأنه « الجنسية الكلية »

عارضا من الذكر وان كان عهدها قد ولى الآن ، أذا كان لهذا الاصطلاح أى معنى ، فهو الانكار التام للثنائية ، وهو الطغيان المطلق المستبد لسلطان الجنس مطلق الجماح لا يردعه رادع • ولكن يتضح من مفهوم الاصطلاح « كبت » أن فرويد قد أكد من مطلع الأمر على أن بعض القوى المعارضة لابد من وجودها ومنها تنبثق الميول الكابتة وقد اقتضى الأمر أن تتأخر دراسة المصادر الرئيسية للكبت خلال المرحلة الأولى للتحليل النفسى ، ولكن وجودها لم يغفل من الحسبان أبدا • ان مدركى « الجنسية الكلية » وعقدة أوديب (أى المانع ، والتابو ، والأنا الأعلى) لا يصدقان معا •

وبالرغم من ذلك ، فلا يزال قائما ذلك الاعتقاد القائل بأن فرويد قد نادى بالاباحية الجنسية المفلتة الزمام كعلاج أو كوقاء وحيد للعصاب • يبدو أن بعض الناس عاجزون أصـــلا عن فهم الفرق بين حفظ دوافعهم قيد الضبط ـ ولهذا السبب يدرسونها بدقة وعناية ـ وبين المحاولة العمياء لانكار وجودها أملا فى غير فائدة الهروب من غيرها بحكمة النعامة • وكانت طريقة فرويد فى المعيشة التى لم تبد اثرا « للجنسية الكلية » مثبطة لهذا السبب بالنسبة لصيادى الاحساس الذين املوا أن يجدوا فى حياته كل الشذوذ الذى كرهوا أن يروه فى عقولهم ذاتها •

وكانت احدى نتائج ثنائية فرويد ـ وكما سيحدث غالبا ـ **ان كان هذا** الجانب أو ذاك يرى دون غيره وينال التقدير أو يرفض بحســــب الميل **الشخصى للناقد** فثمة فريق رأى فرويد كممثل للاتجاهات الثورية ـ أو الرجعية اذا ما نظر اليه من الجانب الآخر ـ فى القرن العشرين التى عبدت فيما بين الحربين القوى المبدعة الصـــوفية ، السابقة على العقل وازدرت الذهن ، والقاعدة ، والنظام كعلامات تدل على الدونية • وكان اللاشعور بالنسبة لهم « الفوضى ، ابنة الظلام » ، وهللوا للمبدأ الذى وضــعه على عرش العالم • ولا مراء فى أن فرويد كان أول من أعطى العنصر الفوضوى فى نفوسنا « موضعا واسما » ، بعد أن تنبأ به قبله فى غموض كبير كثير من الفلاسفة ، والشعراء والأنبياء • ولقد اكتشف شيئا أو شيئين عن طربيعته ومصدره وأوضح بعض الطرق التى يؤثر بها **على العمليات النفسية • وأقره مصدرا لكل فعل ابداعى ، ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن الفوضى ، متروكة لنفسها ، تظل دائما فوض وأن سلطة الأنا الضابطة ، المصعدة ، المهيمنة لها الحق فى أن تعتبر النتائج الأولى والعامل اللازم لارتقائنا النفسى • « ان نمو الأنا يتقدم ابتداء من الاعتراف بالغرائز الى السيطرة عليها ، من الاذعان لها الى كفها • والأنا**

الأعلى ، لكونه فى جزء منه التكوين العكسى ضد العمليات الغريزية فى الهو، يســـاهم بدرجة كبيرة فى هذا الانجاز • والتحليل النفسى هو الأداة ـ المؤكدة للتغلب شيئا فشيئا على الهو » (الأنا والهو ، الفصل الخامس)*

ورأى الفريق الآخر فرويد على أنه السليل المباشر للعصــر العقلى ، ويرجع فى أصوله الى «انسكلوبيديى» القرن الثامن عشر أو ـ وهو الأسوأ ـ كممثل للقرن التاسع عشر الذى جعل الاعتقاد فى التقدم أقرب مايكون الى قلبه • ومنهج فرويد العلمى عقلى الى أقصى حد ، والا ما استحق أن يدعى منهجا علميا • فهو لا يدع للحدس مكانا أكثر من اللازم وليس للغيبيات فيه مكان على الاطلاق ، فالغيبيات يحاول أن يبحثها ويفسر مصدرها ، وهذا ما لا يتيسر فعله بالركوع أمامها وعبادة قواها الصوفية المتعالية • ولكنه اذ يستخدم شمعة الذهن ، لأنها تمدنا بقبس الضـــوء الوحيد ، لا ينسى أبدا الكون الفسيح الجنبات الذى تسوده الظلمات • لقد أصاخ السمع الى ما دعاه « نغمة عالم الغرائز الفسيح الجنبات واحتج ضد المحاولة المتجددة دوما لعدم سماع شىء غير بضعة نغمات قليلة اضافية » كما لم يثمله وهم تقدم الحضـــارة نحو هدف الرغادة الشـــاملة • ففى كتابه « الحضارة ومتاعبهـــا » يبين بلا رحمة كيف أن كل شـــىء يبدأ مساره على الدرب مســـتهدفا التقدم حتام عليه عاجلا أو آجلا أن يرتد دائرا على نفسه لينتهى أســـوأ نهاية • فالضـــغط الدائم على الدوافع الشبقية واماتة النزعات العدوانية ،وكلاهما ضرورى لبناء الحضـــارة وتوسيع مجالها يسببان معهما عناء متزايدا يؤدى الى أفولها النهائى • فالحضـــارة ، الماثلة فى نفوســـنا فى شـــكل الأنا الأعلى تهدد بالتهام أطفالها •

ولهذا السبب كانت وعود الشيوعية تقع من نفسه موقع التشـــكك • فعندما أخبره بولشفى بارز أن لينين (وكان له صـــديقا شخصيا) ، قد تنبأ بأن أوربا ستمر بفترة من الكرب أسوأ مما نجم فى روسيا عن الثورة والحرب الأهلية والمجاعة ، ولكن سيعقب ذلك البلاء الرخاء والنماء ، اجابه فرويد : « دعنا نقسم الأمر نصفين وسأقبل أنا النصف الأول » •

وحتى فى التحليل النفسى ، وهو « الأداة التى يتعين عليهـــا قهر « الهو » وجـــد فرويد الجانب المظلم المشـــئوم غير معدوم : » لقد تبينت

(*) لا يمكن شرح هذا بعبارات قليلة ، لانه يستغرق التحليل النفسى برمتـه • وانما نجد بيتين لابن الرومى يؤديان الغرض فى ايجاز :

قد خلق الانســـان من طينة بصدق فى الثلب لها الثالب
لولا عـــلاج النـــاس اخلاقهم لفـــاح منهم الحمـــأ اللازب

علاوة على ذلك بالتجربة أن التحليل النفسى يبين عن أسوأ ما فى الطبيعة البشرية (تاريخ حركة التحليل النفسى) ·

لذا فايفاء تعاليم فرويد حقها ، يقتضى استبقاء كلا الجانبين فى مرمى النظر فى وقت واحد · اذ لا يمكن فهم أى فعل من أفعال احدى القوتين المتعارضتين دون الأخرى · وحفظ التوازن بينهما عمل عسير ، فهو يعنى معرفة قوى الفوضى دون الفزع منها ، والاصغاء الى صوت العقل دون الركون كثيرا الى عمله الكلى · لكن هذا هو السبيل الوحيد حتى نرث حكمة فرويد التى هى أثمن من اكتشافاته ·

ما قد آل اليك من آبائك

يتعين عليك أن تزيده وتنميه

حتى تصبح له مالكا

جوته ، فاوست ، الجزء الأول

وهنا يلزم التصريح بلا مواربة بأن الفائز بهذه الجائزة ليس أحد أتباع فرويد ، وليس محللا على الاطلاق ، وليس عالما بأى حال ، بل كاتبا ألا وهو : توماس مان ·

وثمة صفة أخرى من الصفات الجوهرية فى شخصية فرويد تنتصب أمام ذهنى فى وضوح جلى ، ولكن من العسير العثور على التسمية الصحيحة لها · لقد كان الاستقلال الذهنى ، وهو احدى سمات فرويد البارزة ، نتيجة لها ، ولكنه ليس الصفة نفسها ، انها صفة ذات صلة بالعناد وليست بعيدة فى أصلها عن شكل معين من أشكال القساوة · ولعل خير تعبير عنها فى أبسط كلمات هو : **التصميم على ألا يخدع بأى ثمن ، لا من قبل الآخرين ولا من قبل نفسه** · والصلابة الفولاذية لهذا التصميم ، وسلطانه المطلق والاستعداد لوضعه فى مقدمة أى التزام ، كل هذا يعتبر من الصفات الثانوية التى حاولت عن طريقها الاقتراب من هذه الصفة ·

ان الملاحظة الوثيقة المستمرة لسمات شخصية من الشخصيات يقوم بها محلل تعود رؤية الأمور من وجهة نظر جنسية ستؤدى به الى فكرة

عن مصدرها • وهذا ما حدث معى وسأحاول أن أقدم نتيجة هذه الأفكار ، لانها تحمل معها بعض السمات التوضيحية •

هذا الغرض عمل « شخصى » الى أقصى حد ، مستمد مما وجدته فى كتبه وأخصـــها كتاب « تفســـير الأحلام » الذى يقرب من أن يكون اعترافا بأمور شخصية للغاية بحيث يفوق فى ذلك كتابه « تاريخ حياتى Selbstdarstellung (*) » • وقد أوصلت هذه الأجزاء بعضها ببعض ووازنتها بانطباعاتى الشخصية وببعض ملاحظات عابرة صدرت عنه • وما فكرت قط أن أسأله تأييدها •

يتكون المضمون الشخصى لكتاب « تفســـير الأحلام » من أحـــلام فرويد الخاصة وقد كان فرويد متطرا الى استخدامها لأنه لم يكن من الميسور لديه العثور على احلام محللة لشخص غير مصاب بالعصاب ، ولكنه كان حريصا اشـد الحرص بالنسبة الى هذه الافشاءات وقدمهـا فى شكل شذور ، لاتعدو ما هو ضرورى لهدفه • ومهما يكن من شىء ، فان المحتوى الأســاسى لأحلامه يبدو أنه جانب من نقاش مســـتمر أو بالأحرى دفاع عنيف من جانب واحد من والده (الذى مات فى عام ١٨٨٦ أى فى الوقت الذى شـــرع فيه فرويد فى تاليف هذا الكتاب) • وهذه ، على فكرة ، هى الاستجابة النموذجية الكلية للابن ازاء موت والده • وقد اســتخدمت فى هذا النقــاش كل أنواع الحجج وأطلقت كافة ضـــروب العواطف : كالحب والثـورة والعـدوان والدفاع والانتصـار وخفض الجناح • ومن الواضح بجلاء حب فرويد العميق الصافى وأســفه على فقدان والده• ولكن مكتشف عقدة أوديب لم يقمع الجانب الآخر الأقل دماثة « لقد بين والدى فى المحاضرة التى ألقاها على قائلا : « لن يصل هذا الولد الى شىء يستحق الذكر » لاشك أن هذا كان قضاء رهيبا على طموحى ، لأن ثمة اشارات الى هذا المشهد تتوراد بثبات فى احلامى وترتبط ارتباطا ثابتا بتعدادا أعمالى ونجاحاتى كأنى أريد أن أقول : (لقد وصلت الى شىء يستحق الذكر) • وقد حدث هذا المشهد ـ الذى يمثل ولا شك ســـلسلة بأكملها ـ عندما كان فرويد فى السابعة أو الثامنة من عمره •

(*) استخدم فرويد بعض أحلامه الخاصـة كأمثلة توضيحية ، فى كتابه « تفسير الاحلام » وما أعمق هـذا الرأى من ساكسى الذى يعتبر احـلام المرء اشـد دلالة على شخصيته من تاريخ حياته الخارجى الذى يزودنا بالاعراض والقشور دون اللباب والنواة أما الأحـلام ، فهى الانصـاب التى تدل على شخصية صاحبها • وما أجدر مؤرخى الشخصيات أن يأخذوا ذلك بعين الاعتبار •

« المترجم »

كان والد فرويد من الوجهة العلمية مثل أى يهودى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يكسب عيشه وعيش أسرته عن طريق التجارة ، ولكن يبدو أنه كان يفتقر الى المهـــارة المأثورة عن اليهودى فى الأمـــور العملية • فبقى على حاله من الفقر وعاش مع أســـرته فى حى بائس من أحياء المدينة (ليوبولت شتات) يشغل معظمه اليهود الذين ينتمون الى طبقة أقل من المتوسط • وكان على استعداد تام لان يمد يد العون لابنه الذى أبدى فى وقت مبكر مخايل ذكاء لا يتوافر فى كثيرين ، ولكن ظروفه أبقت اريحيته فى حدود ضيقة • وعندما عثر الطالب الشـــاب فى معمل « بريكه » على العلم الذى أراد أن يكرس له حياته ، اضطر الى اعتزاله ولاح أمامه الباب الى حياة علمية مغلقا ، رغم ما بشـــر به من وعود براقة • ولما كان والده أعجز من أن يمد له يد العون فقد اضـــطر الى تحصيل عيشه معجلا غير قادر على الانتظار الى أن يحصل على منصب ذى مرتب نادر • ويمكن العثور فى « تفسير الأحلام » على اشارات طفيفة تكشف عن خيبة أمل فرويد فى انه لم يرزق والدا أقوى بأســـا وأوفر نجاحا • وفى هذا الخصوص ثمة ذكرى أخرى ذات أهمية خاصة : (كنت أناهز من العمر العاشرة أو الثانية عشرة عندما بدأ والدى يسمح لى بمرافقته فى نزهاته ويدلى أمامى أثناء حديثنـــا برأيه فى أمور الدنيا • وقد اخبرنى فى احدى هذه المناسبات بقصد اطلاعى على ما ينعم به الزمن الذى ولد فيه من تقدم ، قائلا : حدث عندما كنت شابا أن خرجت للنزهة فى المدينة التى ولدت فيها ، وكنت قد أحسنت ارتداء ملابسى وأمسكت بيدى قبعة جديدة من الفراء ، فاعترض طريقى أحد الســـادة وطوح ، بضربة منه ، بقبعتى فى الوحل وصـــاح : « تنح عن الطريق أيها اليهودى فسألته » وماذا فعلت قفزت الى منتصـــف الطريق والتقطت قبعتى ، ولم أرد عليه بشىء » • فلم يقع ذلك من نفسى موقع العمل البطولى الذى ينتظر من الرجل العمـــلاق القوى الذى يقودنى من يدى • (الطبعـــة الكاملة ، نفس المرجع • جزء الثالث ، صفحة ١٩٧ الى ١٩٨) •

وقد لمس فرويد نفس الموضع الحساس بحرص أقل فى مقال وضعه عام ١٩٣٦ (« اضطراب فى الذاكرة فى اكروبوليس ») قائلا : « ان المضى قدما ، والرقى فى مدارج الحياة صعدا ـ كان حينذاك بمنأى عن كل امكان بالنسبة الى • وكان هذا نتيجة الضيق والعوز المارين بظروفنا خـــلال شبابى •• وكان لهذا علاقة بنقد الطفل لوالده وبالتقدير المتضائل الذى حل محل التقدير الزائد فى مرحلة الطفولة المبكرة » •

هذا يصف الملامح الرئيسية فى موقف فرويد المتعادل أثناء الطفولة ازاء ــ والده : « انك لست قويا بقدر ما اعتقدت ٠ ولن تصدق تنبؤاتك وساتمكن من اثبات ذلك » ٠ وقد أصبح حل هذا الصــــراع بين الموقف الناقد الناقم من جانب والحب والتوقير من جانب آخر حجر الزاوية فى شخصية فرويد ٠ فالحب ــ خاصة اذا تكثف بالفقدان والحزن الشـــديد من أجله ــ يظل مثبتا على الشـــخص الأصــــلى ٠ والأفراد المختارون بوصفهم (عائدين) ، أى الشخصيات البديلة فيما استقبل من حياة ، يمثلون فى الأغلب ابن الأخ زميل اللعب الأكبر سنا ، وليس الأب ٠ وعندما تخلص المظهر السلبى من الكتبت من عقاله كان قد انفصل عن المضايقات الشخصية وتسامى الى نمط من الرفض الرحب الواعى ، الموجه ضد أية محاولة لحل مشكلة بالرجوع الى سلطة من السلطات ٠ فى هذا الطريق غير المباشر أطلق سراح العدوان المكبوت ضد الأب واكسبه تصــــميما على أن لا يلعب مرة أخرى دور الصبى المؤتمن الذى يحقق مزاعمهم ، حدة وقساوة وعنادا ٠ ولا يمكن ان ــ يسمى هذا حادثة عارضة بل يجب أن ينسب الى القدر ــ وهو كلمة أخرى للتعبير عن الطريقة التى تتكون بها حياة انسان ما عن طريق اللاشعور ــ رجوع فرويد مقودا الى نفس الوضع الذى كان عليه وهو طفل ٠ فليس الأب ، بل كل السلطات المعاصرة قالت لسنين عديدة ، عندما شـــرع فى التحليل النفسى : « لن يصـــل هذا الصبى الى شىء يستحق الذكر » ، الى أن نجح فى النهاية فى أن يثبت لهم أنهم أنبياء كاذبون ٠

لقد كان يرفض رفضا قاطعا أن يقبل أية قضية ارتكانا الى سلطة عليا ولم يكن يطيق صبرا على أولئك الذين يفعلون فعلا كهذا نتيجة للكسل الذهنى أو الجبن أو لأنهم أرادوا ان يقروا أمرا بأقل قدر من الجهد ٠ وكان يرى فى الزعم القائل بأن كل برهان علمى يجب أن يكون منزها عن كل خطأ بحيث لا يأتيه الباطل من أى مكان ، رجعا حصاريا لعدم الثقة ، والشك ونقصا فى الاعتماد على النفس ٠ كما انه لم يكن يقف موقف المؤيد من الطرف الآخر المناقض ، أى اللادرية العلمية التى تنعى كل جهد يبذل للوصول الى الحقيقة قائلة : « كل الحقائق لن تسلم من الشك فى صحتها ولذا فليست احداها خيرا من الأخرى » ٠

كان يقينه القوى هو انه لا يجب أن تتدخل فى عمل العـــالم الحق وحماســه الرغبة فى الوصــول الى الحقيقة المطلقة ولا التحقيق للقيمة النسبية لكل معرفة من الممكن ادراكها ٠ فقد كان ما يهمه هو الوصول

اقرب ما يمكن الى الحقيقة ، والوقوف موقف المكافح المناهض لكل حكم متحيز ، وكذلك التقليد ، والسلطة أو رغبات المرء الخاصـــة أو نواحى ضعفه ، ولا اهمية أن تكون المحاولة قاصرة بالنسبة للطريق الطويل • فنتائج أى علم تظل عرضة للشك فى قليل او كثير ،بحسب مرحلة تقدمه وفقا لمناهجه الخاصة • ان العالم ـ أى المفكر المستقل الرأى ـ يجب أن يكون واعيا بهـذه الحواجز فيقف ، بعد الفحص الدقيق المتكرر ، حاملا حكمه دون أن يتنظر تأييد البرهان الكامل المطلق • فقد كان من أقوال فرويد الأثيرة لديه : (يجب على المرء أن يتعلم التجمل بجانب من عدم اليقين) •

وقد ابرز هذا فى المقدمة من صفاته صفة هامة ألا وهى : الكبرياء • وانى على يقين من أنها كانت قوة هائلة فى حياة فرويد • لم تكن كبرياء المظاهر الخارجية ، كما أنها لم تكن غطرسة بأى حال ، ولكنها كبرياء داخلية قائمة على الاســتقلال الذهنى والشــجاعة التواقة الى اكتشاف مناطق جديدة وخطيرة • فاذا ما أضيفت هذه الكبرياء الى طاقته التى لا يحدها حد ، تطلبت ســـيلا لا نهاية له من الحقائق الجديدة والنظريات وبحثا لا يكل عن الاكتشافات •

وقد ارضت دراســه الحقائق الخارجية نهمه فى مبدأ الأمر • فقد دفع مجرى الاهتمام العلمى فى منتصف القرن التاسع عشـــر الطالب الشـــاب صوب البحث الفسيولوجى والبيولوجى • فتركزت أبحاثه الأولى حول تركيب الجهاز العصبى ووظائفه • فاذا فرضنا أن ضرورة الحياة ، ونصيحة أستاذ مبجل (بريكه) لم تدفعانه الى التخلى عن هذا النوع من الدراسة ، فهل كان يظل رهين العمل المعملى طيلة حياته ؟ لا شــك انه كان يكون فسيولوجيا عظيما ـ فأبحاثه الأولى تقدم على ذلك برهانا كافيا ولكن أكان يكون ذلك كل شىء ؟ يبدو الأقـــــرب الى الرجحان أنه كان يصل الى نفس الهدف ، وان يكن بطريق مخالف ومن مدخل مغاير • فكتابه « ما وراء مبدأ اللذة » والأعمال التالية تدل على أن مادة أفكاره قد صيغت من لحمة علم النفس وسدى البيولوجيا •

وكان من المحتم أن تقوده هذه الكبرياء على شــجاعة فى الخلق واستقلال فى الرأى الى أعظم الأعمال بطولة ألا وهى : التحرر من ربقة الموانع والأوهام التى تقيد أفراد النوع البشرى ومواجهة الحقائق التى حولت عنها الأجيال التى لا عداد لها اعينها مرعوبة • اذ ان هذه الكبرياء لابد أن تثور عاجلا أو آجلا ضد أدنى أثر لعدم النزاهة فى تفكيره محاولة

العثور على بواعثها الخبيثة بقصد القضاء عليها · كما تفسر هذه الكبرياء الرائعة ـ بالنسبة لى على الأقل ـ ما كان يبدو منه تناقضا صارخا : فقد كان عطوفا دون رخاوة ، اريحيا دون عاطفية ·

ولم يكن ، بعد أن أشرع نفسه كرمح من أنقى فولاذ ، ليتعاطف أبدا مع أولئك الذين يكشفون عن صغار ويبدون عن ضعف · حدث عندما طلبت منه أمرا فى بداية تعارفنا ، أن قال : « اننى أقدر فيك الصراحة والمباشرة فى طلبك لما تريد » · فقد كان يزدرى أولئك الذين يعيشــــون عن طريق انصاف الحلول · كما لم يكن من الجــائز المفهوم فى عرفــه التطلع الى الخلف بعد العزم والتصميم أو رفع اليد عن المحراث · كنت حاضرا معه عندما وصلتنا الأنباء بأن أحد الأصدقاء قد انتحر · فالفيته وكأن هذه الحادثة لم تحرك فيه ناهزة · اذ لم يكن الانتحار فى مفهومه غير هروب من واجب ، ومحاولة للانسحاب من خضم الأحداث · لقد تبينت منه دائما أن عاطفته الانسانية يكبح جماحها الاحتقار · كان دائما على استعداد لأن يهب وجدانه بلا تدبر حيثما يظن أنه يقع فى موقعه الحق ، ولكنه لم يكن مستعدا قط لأن يهب صدقات العاطفة كاحسان من جانبه ·

كان رانك سنين عديدة مساعد فرويد الأمين وتابعه ، وصديقه المكين وكان مرتبطا به بأوثق روابط التآزر وعرفان الجميل ، والمشـــــاركة فى التفكير · وقد قدر فرويد كثيرا طاقته التى لا تكل وذكاءه الحاد ، وبذل كل ما فى وسعه ليجعل طريق رانك فى الحياة سهلا ويهيىء له من حركة التحليل النفسى مركزا قياديا · ثم اتى الوقت الذى انفصل فيه رانك عن التحليل النفسى ، انفصالا لم يعلنه قرار محدد واضح ، بل التنازل عمليا عن كل آرائه السابقة ثم العودة اليها مرة أخرى نصف عودة · الا أنه بعد الكثير من الارتفاعات والانخفاضات حدث بينهما الانفصال النهائى وهنا لم يظهر فرويد ذلك الأسف الدال على الضعف ، الذى شـــعرته أنا عند فقدان صديقى العزيز · وقال بحزم : « عندما يغتفر امرؤ لآخــر كل شىء يكون الأمر قد انتهى معه » كان استقلال الرأى والشجاعة والكبرياء هى العلامات الدالة على شخصيته ومن خلال هذه القوى العظيمة الثلاث كون اجابته على السؤال : لماذا ؟ ذلك السؤال الذى انتصب أمام الذهن البشـــرى منذ الفجر الأول للذهن متحديا معذبا فى أغلب الأحيــان يقول هاينى فى قصيدته عن الشباب الذى يقذف الكون بهذا السؤال : « ان الغبى هو الذى ينتظر جوابا » لكن لا الدين ، ولا الفلســـفة ، ولا العلم ، ولا استخفاف هاينى (وهو استخفاف ليس أصيلا بما فيه الكفاية) استطاع

التخلص من هذه الـ « لـمـاذا » لماذا نحن هنا ولماذا يجب علينا أن نغادر هاهنا ؟ أو : ما الغرض من الحياة ؟ ، ولماذا نعجز عن العثور على السعادة ان كانت هى الغرض ؟ ولماذا لانزول عندما نقتنع أن السعادة لا وجود لها ، لا على الأرض ولا وراء القبر ؟ ٠

ولم تتضمن اجابة فرويد القول بأن السعادة يمكن ادراكها بأية وسيلة من وسائل « التكتيك » الذى يستخدمه الانسان ٠ فقد خبرها ووجدها كلها ناقصة ٠ كما انه لم يعتقد أن معنى الحياة يكمن فى تكريسها لخدمة النوع البشرى عامة ٠ فقد كتب قائلا : « ان حبى يعنى بالنسبة لى شيئا عظيم القيمة فلا يمكننى التفريط فيه دون تحمـل مسئولية ذلك» (الحضـارة ومتاعبها ، الفصل الخامس) كما أن اجابته لم يملها التفاؤل الوردى ، ذلك الذى يأمـل أن يزيل العلم والتقدم يوما كافة العقبـات التى تعترض الطريق الى سعادة الانسان ٠ فهو قد عرف أن الدافع التدميرى قائم فى ثنايا كل شكل من أشكال الحضارة ، وأن كل مجهودات ايروس عاجزة عن التغلب على غريزة الموت ٠

فما الذى دفعه الى أن يضنى نفسه حتى أخريات عمره ، خـلال المرض والعذاب ، والاعياء ، وفى ظلال الموت وليس ثمة أمل يخامره فى جزاء يعود عليه من نفسه أو من الآخرين الذين أحبهم ؟ ٠

ذلك لأنه قد تناول الحياة كعبء ، كواجب ألقاه على كواهلنا الماضى الذى نحن ثمرته ٠ وهذا الميراث موجود معنا دائما فى شكل الأنا الأعلى ، غير مرئى ، وغير محسوس ، ورغم ذلك فهو أكثر الحقائق منأى عن الشك اذ بمقتضاه تتشكل حياتنا ٠

نحن الموتى ، نحن الموتى جيش لجب صخاب
يفوقكم عدا سواء كنتم على الأرض او متن العباب
و ما عثرنا عليه من قوانين ونظريات
مقيد به كل ما يحدث على الأرض من تغيرات

« فـوانراد فون ماير »(١)

---

(١) كونراد فون ماير ، شـاعر سـويسرى تمتـاز اشعاره بالعمق الصـوفى ، والموسيقية الرقيقة ٠

ونحن لا نستطيع أن نتخلى عن ميراثنا الذى نحمله بين جوانحنا ونرتد ناكصين الى الحيوانية · فمحاولة المساومة بقصد الأقلال من مطالب الأنا الأعلى دليل ضعة تأباها كبرياؤه ·

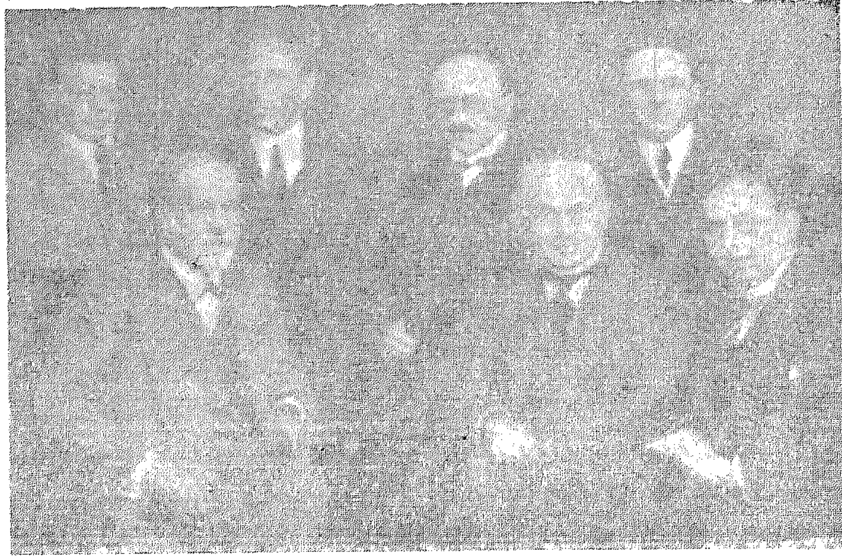
ويبدو كأن فرويد قد سار بالحدس ودون وعى مترسما خطى أسلافه، تابعا تقليدا من أقدم تقاليد اليهود ألا وهو : الاعتقاد بأن كافة اليهود الذين ولدوا والذين لم يولدوا كذلك ، قد وجدوا على جبـل سيناء ، وهنـاك أخذوا على عاتقهم عبء الالتزام بالشرائع · فاذا قبلنا هذه الفكرة الدينية بعد تجريدها من ضيق الافق والقومية نجدها تلتقى مع اجابته على مشكلة الحيـاة ·

لقد تعهد اليهود النكتة عادة للتعبير عن أكثر أفكارهم جدية وأشد أحزانهم مرارة وأعنف نقدهم لأنفسهم · وقد اسىء فهم هذه العادة غالبا وآثارت على رؤوسهم الكثير من الوان النقد ، ولكنها أنتجت سلسلة من أعمق قصص مضحكة عرفها العالم · وما من انسان فهمهم افضل منه ، كما يتضح من كتابه « النكتة وعلاقتها باللاشعور » ·

وانى فى هذا الصدد أحذو حذوه فلا استطيع قمع نكتة تدل بطريقتها الفكهة على نفس الشىء :

يحكى أن حوذيا كان يضرب جواده بالسوط بلا رحمة · ولما كـان الواقفون حوله من طبعهم القسوة فقد ترجوه أن يرحم الحيوان المسكين· ولكنه أجابهم ببرود « مادام قد أخذ على عاتقه أن يكون جوادا فيجب أن يعـدو » ·

وحيث اننا قد أخذنا على عاتقنا آن نكون بشرا ·



« الخـواتم السـبعة »

الجالسـون من اليمين : ساكس ، فونتزى ، فرويد . الواقفون من اليمين : جونز ، آيتنجون ، أبراهام ، رانك . وقد اشتهرت هـذه الصـورة باسـم « السبع خواتم » لأن فرويد كان قـد أهـدى الى كل من تلاميذه الستة حجرا أثريا ليرصـع به خاتما كذلك الذى يحمله فرويد ، فيكون ذلك رمزا للرباط الوثيق الذى ينظمهم فى حلقة تعمل على دعم التحليل النفسى .

الخواتم السبع

تشتمل مجموعات الفن الرومانى الاغريقى على بعض احجار شبه كريمة تبين عن الفن والمقدرة اللذين تفردت بهما تلك الأزمان · وكان فرويد يمتلك بضع عينات من هذا النوع ، ولما كان يجب أن يحيط نفسه بشذور من الجمال الأثرى القديم فقد اختص منها خاتما لا يخلعه أبدا · وكان الواضح أنه صنع لهذا الغرض، أما فائدته كخختم فترجع الى عهد روما القديمة ·· وكانت الشخصية المحفورة به عبارة عن صورة لرجل ملتح بلحية خفيفة – أعتقد أنه نسخة من جوبيتر – ولم يكن فرويد يمل فحص كل تفصيلة من تفاصيله بالنظر واللمس · ثم أهدى فيما بعد أحجارا مشابهة لبعض اتباعه كدليل على صداقة خاصة وتقدير زائد · وكنا فى تلك الأيام جماعة محدودة من الخلصاء ظفرت بهذا الامتياز ، تتكون من ابراهام وايتنجتن وفرنشيزى وجونز ، ورانك ، وأنا · وقد عمل الاخلاص للتحليل النفسى على توثيق الروابط بيننا بأعتباره الموضوع الرئيسى لاهتمامنا المشترك ، والتبادل الدائم المستمر للأفكار والآراء ، والتعاون فيما بيننا من أجل بناء حركة التحليل النفسى بناء منظما · وكان لاهداء الخواتم معنى رمزى معين، فقد ثبت فى أذهاننا أن علاقاتنا الشخصية المتبادلة لها نفس طابع القداسة · وأشعرنا أننا ننتمى الى جماعة داخل الجماعة وان يكن بدون روابط رسمية أو محاولة لتصبح هذه الجماعة تنظيما مستقلا · وقد عبر فرويد عن تكوين هذه الجماعة أثناء المؤتمر الذى عقد فى هاج ، بهولندا عام ١٩٢٠ ذلك المؤتمر الذى قدم أكثر من دليل على بداية عهد جديد بالنسبة لحركة التحليل النفسى وكان من الأمور ذات الأثر والدلالة ان كان المحللون النفسيون أول تنظيم علمى يهدف الىاستئناف التعاون الدولى بعد الحرب· وقد اتضح بعد زوال القيود التى فرضتها الحرب أن فترة الازورار عن التحليل النفسى قد آلت الى غير رجعة · فرغم ان الغالبية الساحقة من الأطباء والأطباء العقليين كانوا لايزالون على موقفهم من التردد أو العداء

بالنسبة الى التحليل النفسى ، فأن عددا لا بأس به من العلماء البارزين ونفرا من رجال الأدب المشـــهورين فى عالم ما بعد الحرب الجديد أخذوا يتحدثون عن التحليل النفسى بتوقير واعجاب أضحى من السخف معهما اتباع نفس الطريقة السابقة المفعمة سخرية وتحقيرا . وتأســـست معاهد التحليل النفسى فى برلين ، وفيينا ولندن وأخذت تتقدم فى خطى متوازية . وعلمنا لأول مرة بالاهتمام المتزايد بالتحليل فى امريكا ولكن فرويد ، وقد رزق موهبة على الرؤية أبعد مدى وعقلا وأكثر تشككا فيما يتعلق بعقلية الجماهير تبين أخطارا جديدة تلوح فى الأفق . ذلك ان عالم ما بعد الحرب بدا شغوفا بكل ما كان عالم ما قبل الحرب يقف منه روقف المعارضة .. فارهاصــــات الثورة الخلقية كانت تتطلب ايديولوجية ، أو مذهبا عقليـا مغايرا على الأقل ، وبدا أن التحليل النفسى مهيأ للقيام بهذا الدور مع شىء من التحوير فى هذا الجانب أو ذاك . ولكن هذا الحماس الهادف الى وضع فرويد موضع الرائد لنظام جديد لم يقع منه موقع الرضى . فرفض أن يجعل من التحليل النفسى مطية لأى غرض آخر عدا فهم العقل البشــرى خير فهم متيسر ودراسته أفضل دراسة ممكنة . ذلك لأنه لم يغب عن فطنته أن أولئك الذين ينشدون من الآن « لحن هوسانا » مسبحين سيكونون أول من يصرخون « أصلبوه » حالما تتغير اتجاهات الظروف .

كان عقد جماعتنا قد انفرط بسبب الحرب أولا ، وما فرضته التغيرات الجديدة للحدود من حواجز وانقطاع ســبل الاتصال حتى أنه لم يتبق مع فرويد فى فيينا سواى خلال السنتين الأخيرتين من الحرب ، فقد كان رانك فى جراكو يقوم بخدمة حربية من نوع ما ، وكان فرنشيزى واينجتن طبيبين بالجيش المجرى النمســـوى . وقبيل المؤتمر الذى عقد فى فيينا (خريف ١٩١٨) وفى الصباح قبل بدء (العمليات الحربية) سعلت قدرا كبيرا من الدم نتيجة للمجاعة التى اســـتشرت خلال سنى الحرب الأخـيرة وأخذت الفرص التى أتيحت للاتصال الشخصى بفرويد تشرف على نهايتها .. وقد أتيح لى الانفراد به ليالى عديدة ، ولكنى لم أحسن الاستفادة مما أتيح لى . وعذرى أنى كنت مهزولا ، مصدورا ، جائعا . ولم يكن من الميسور فى ظل هذه الظروف أن اركز ذهنى فى شىء وأن اتتبع أفكار فرويد أو اشارك فيها شىء ذى أصالة . كنا جالسين بحجرة مكتبه المحرومة من وسائل التدفئة لابسين معاطفنا وقفازاتنا ، حاملين قبعاتنا على رؤوسنا ، نعانى خواء بطوننا ووخزات البرد ـ وعلى هذا المنوال كانت حالنا تقريبا خلال السنتين ١٩١٧ ـ ١٩١٨ . ولا عجب أنى لم أستطع أن أقف مع قوة فرويد التى لم يعتورها كلال على قدم المساواة . وفى يوم توقيع الهدنة سافرت

الى سويسرا لأعالج ما ألم بصدرى من داء وقضيت فى دفوس ، وبازل ، وزيوريخ زهاء سنتين . هناك زارنى رانك فى ربيع عام ١٩١٩ وسرعان ما انضم الينا ارنسست جونز الذى قطعت الحرب أخبساره عنا تماما . واستأنفت اتصالى به دون صعوبة وكنت قد نزلت عليه ضيفا منذ خمس سنوات أى فى مايو ١٩١٤ .

وخلال الأشهر الباقية على عقد مؤتمر ١٩٢٠ رتبت شسئونى بحيث أغادر سويسرا عائدا الى برلين وليس الى فيينا ، ففى برلين أسس ابراهام واينجتن بالاشتراك مع زيميل معهدا وعيادة للتحليل النفسى وعملت هناك كمدرس ومحلل تدريبى زهاء اثنى عشر عاما .

وعندما ارتد بذاكرتى الى الخلف متمليا مجرى حياتى أتذكر قصة من تلك القصص التى تتضمن مرارة الحياة فى ثوب من الفكاهة كنت قد سمعتها من فرويد منذ أمد بعيد قبل أن تصبح ذات دلالة تصدق على حالى .

وها هى ذى القصة : يحكى أن شابا بائسا عقد أواصر الصداقة برجل ثرى من ذوى النفوذ . فقدم الرجل الطيب للصبى الذى لاذ بحماه خطاب توصية لاحدى الجمعيات الدينية القائمة بمدينة صغيرة ــ وليكن اسسمها زريزوف ــ حيث شغرت بها احدى الوظائف الكتابية . وكانت الوظيفة ذات مرتب ضئيل ولكنه يقى الشاب المسكين غائلة الموت جوعا ولذا كان الشاب شغوفا للغاية بالحصول على هذا المنصب . وبدأ كل شىء وكأنه يسير فى مجراه السوى حتى أسفرت الحوادث عن أن الموظف الجديد لا يعرف القراءة ولا الكتابة . ولما كانت الوظيفة تقتضى بعض العمل الكتابى والمراسلات الرسمية . فقد فصلوه من وظيفته . وعاد الفتى الى مسقط رأسه كسير الفؤاد محزونا وعندما تبين مولاه مدى ألمه ، أعاره قدرا ضئيلا من النقود كى يتمكن من البدء فى كسب عيشه كبائع جوال . وهنا أظهر الفتى حسا عمليا وتمكن من جمع قدر من المال ثم حدث أن اكتشفت ينابيع لزيت البترول فى بعض أجزاء من البلد الذى يمارس فيه عمله فساهم الفتى فى لعبة الزيت هذه وغدا البائع الجوال فى مدى سنين قليلة صاحب مصنع كبير لزيت البترول . ولذا أقام له مدير المصرف الذى أشرف على الصفقة وأمدها بأمواله احتفالا فخما تنتقل فى خلاله رياسة المصرف الى صاحبنا . وقد طلب منه أن يقرأ الاتفاق ويوقعه . وعندما سمع صاحبنا بذلك، انتحى بالمدير جانبا،وسأله أن يتغاضى عن هذا الأمر .وعندما الح عليه المدير السابق فى معرفة السبب صرح له أخيرا بأنه لايعرف القراءة ولا الكتابة .فصاح المدير

السابق متعجباً : «ماذا ؟ رجل فى مثل ثرائك ولاحظ له من الثقافة ! ماذا كان يكون مجرى حياتك لو لم يشبه هذا النقص ؟ » فأجابه صاحبنا قائلا : « أستطيع أن أخبرك عن ذلك ، فلا شك أنى كنت أكون الآن موظفا وضيع الشأن فى زرزوف » ٠

وقد حكى حاله حالى بلا زيادة ولا نقصان ٠ فلو اتبعت مجرى حياتى الذى اختطوه لى مقدما وارتضيت أن أحذو حذو والدى وأعمامى ، وادرس القانون بجد واخلاص لكان نصيبى الموت جوعا أو الاصابة بمرض السل أو السجن فى أحد معسكرات الاعتقال ٠

وفى « هاج » فى سبتمبر ١٩٢٠ استدعى فرويد ستة منا فى وقت واحد واطلعنا على خطة كان قد أعدها من قبل بالتفصيل ٠ وكان مؤداها أنه من الآن فصاعدا يجب أن نكون جماعة تعمل فى تناسق، ولكن خفيةمن الناس٠ فمستقبل التحليل النفسى يجب أن لا يترك للظروف أو العمل الفردى أو الطموح الشخصى ٠ وكان واجبنا أن نقود خطى التحليل النفسى المتسارعة دائما بأن نعمل متآزرين ونتصرف بحسب خطط موضوعة ٠ كما كلفنا بأن نستخدم فى سبيل تحقيق هذا الهدف نفوذنا الشخصى وتكاتفنا ، ولكن غير معتمدين اطلاقا على المنصب واللقب ٠ وكان علينا أن نحفظ حقيقة تنظيمنا طى الكتمان حتى نتمكن من القيام بعملنا ٠ وكان يجب أن نعتبر دائرتنا مغلقة الى الأبد ، فلا يباح لأى أعضاء جدد التعاون معنا ٠

لم يستعمل فرويد هذه الكلمات بنصها ولكن الغرض الذى عقد من أجله هذا الاجتماع كان قد طرح للمناقشة مرارا فيما بيننا حتى أنه لم يحتج الى مزيد من الايضاح ٠ ولكننا لم نكن ندرى تماما الوسيلة التى تمكن من تحقيق هذا الهدف ولذا كان فرويد أكثر وضوحا فى هذا الصدد ٠

لما كنا نعيش فى أربعة أماكن مختلفة (فرويد ورانك فى فيينا ، وابراهام وايتنجتن وأنا فى برلين ، وفرنشيزى فى بودابست ، وجونز فى لندن) ، كان يتعين علينا أن نتبادل المراسلات فى فترات معينة ، لكن متقاربة ، وأن يتم ارسال الخطابات بطريقة « دائرية » حتى تتاح الفرصة لكل عضـــو من أعضاء الجماعة أن يكتب وأن يقرأ ما كتبه الآخرون ، وكان يجب أن تتضمن هذه الخطابات كل شىء يتعلق بموضوع اهتمامنا المشترك ٠ مثل كتابة التقارير عما يحدث فى المنظمات المحلية ومختلف الحوادث التى تتعلق بنمو التحليل النفسى ، مثل دراسة المشاكل وكتابة التعليقات ، واسداء النصح ، ومناقشة المسائل التى تتطلب حلولا ، وتنظيم الاجتماعات ومناقشة الأفكار

العلمية الجديدة ، وأخيرا الأمور الشخصية ، والخطط والمشـــروعات والمطالب ، والمتاعب وكان يجب أن نلتقى فى اجتماعات نظل بعدها سويا على التقاء • فقد كان المفروض أن تنظم اجتماعات أخرى تشمل كافة أفراد الجماعة •

ولقد وقعت هذه الخطة منا جميعا موقع القبول فقد خلعت على هذا التنظيم السليم العملى طابع جمعية من تلك الجمعيات التى يكونها التلاميذ سرا ، وأسبغت عليه اغراء • وقد قبلناها طوعا ونجحت الخطة زهاء خمس سنوات ، وقد استفادت حركة التحليل النفسى من تنظيمنا هذا فقد كانت السنوات من ١٩٢٠ الى ١٩٢٥ فى تاريخه فترة ســـلام شامل وتقدم • ثم أخذت أعراض التصدع فى الظهور ، تلك الأعراض الناجمة عن الانحرافات الداخلية • فقد أدهشنا رانك عندما نشر كتابه الذى يعزى فيه كل الاعراض العصابية الى صدمة الولادة وقد نقد الآخرون ، عدا فرنشيزى ، الكتاب ومنهجه ونظرياته نقدا مرا ، وقد حاول فرويد التوسط فى أول الأمر ولكن باءت محاولته بالاخفاق • فقد أخذت هوة الخلاف بين آراء رانك الجديدة ونظريات التحليل النفسى تزداد اتســـاعا • وكان فرويد فى ذلك الحين قد أجريت له العملية الجراحية الأولى ولم يكن فى المتوقع أن يعيش أكثر من سنة • ثم حدث أن غير رانك مستقره من فيينا الى باريس وأشبه بالرزيئة النكباء كان اخترام الموت لابراهام ، فقد قضى على أفضل حلقة فى سلسلتنا وقد حاول من تبقى من الجماعة المحـــافظة لفترة من الوقت على تبـــادل المراسلات ولكن ذهبت المحاولة ادراج الرياح ، فقد نضب معين الحيوية من تحالفنا •

وقد ذهبنا فى رحلة الى هارتز بعد انعقاد مؤتمر برلين عام ١٩٢٢ وهو الأقليم الجبلى من جنوب غرب ألمانيا • وقبل أن نشـــرع فى رحلتنا القصيرة المدى سيرا على الأقدام ، مكثنا يوما أو يومين فى هيلدا شـــايم وكانت هذه المدينة الصغيرة ذات كنيستين شهيرتين ، أحداهما على الطراز القوطى والأخرى على الطراز الرومانسكى وتحوى عددا من المنازل الثرية بزخارفها التى ترجع الى عهد النهضة فى ألمانيا ومتحفا صغيرا فريدا فى نوعه آثار اعجـــاب فرويد • وكان أحـــد مواطنى هيلد شـــايم ، ويدعى بليزايوس ، قد جمع هذه التحف من مصر ، وأحضرها معه الى مســـقط رأسه • كما اشتملت حجرتا المتحف على بعض القطع النادرة التى لا يتيسر مشاهدتها فى أى مكان آخر •

وقد أبدى فرويد اهتماما زائدا بمحتويات المتحف • وقد نسيت الآن التفاصيل التكنيكية لمناقشته مع صاحب المتحف ، ولكنى أذكر أن الشاب المهتم بالدراسات المصرية القديمة عرض بعض المظاهر الخاصـــة بطريقة الدفن لدى المصريين القدماء التى تعتبر من أقدم ـ الطرق وأكثرها بدائية • فكانت الجثث توضع حسب ما أخبرنا ، فى وضع يشبه تماما وضع الجنين فى الرحم ، ولكن كان من رأيه أنه قد يكون هذا محض تشابه حيث إن المصـــريين القدماء لم تكن لديهم المعرفة العلمية الكافية التى تمكنهم من التعرف على الوضـــع قبل الولادة • ولكن فرويد ذكره بأن بعض القبائل الأكثر بدائية ربما تكون قد حصلت على هذه المعلومات من الحيوانات ، ولم يتوان المصـــريون الذين كانوا مولعين بالمعـــرفة منذ فجر تاريخهم عن استخدام هذا الاكتشاف • وقد تناول فرويد تناولا خفيفا الجانب التحليلى النفسى : المدلول الرمزى للأرض والأم ، للموت والولادة من جديد •

وحدثت فى هذه الرحلة حادثة بسيطة ولكنها كانت بالنسبة لى عظيمة الأهمية • فقد أخبرت فرويد بعمق الانطباع الذى تركه فى نفسى المضمون الداخلى لكنيســة سان مارتن ذات الطراز الرومانســـكى ، عمقا يفوق أى كاتدرائية غوطية • فقال فى الحال : « يجب عليك اذن أن تذهب الى رافينا » ولقد عملت بنصيحته فى أقرب فرصة وكان هذا سببا فى اكتشافى نوعا من الجمال لم تكن لدى أدنى فكرة عنه واتجاها جديدا فى بحثى للمشـــاكل الجمالية •

ومن هيلد شاليم استأنفنا المسير الى هارتز وقضينا وقتا رائعا متمتعين بأشعة الشمس والهواء العليل فى تلك الأيام الخريفية ، متنزهين خلال غابات الصنوبر عبر النهيرات والمرتفعات متسلقين قمم البروكين التى تشتهر بأن الساحرات فى الأوقات السعيدة الخالية كن يمارسن عليها رقصهن السحرى فى الليلة الاولى من مايو •

كان كل هذا أعنى التفرج على المشاهد الطبيعية الساحرة ، وتسلق الجبال والأكل بشهية عملا جانبيا سارا بالنسبة لعملنا الرئيسى الذى يعنى مناقشة النظريات الجديدة أو الخبرات التى ادخرها بعض الأعضاء خصيصا لهذه المناسبة • فكنا نتبادل الآراء والانتقادات ، وكان كل شــىء مثـيرا للاهتمام ، والمناقشة ممتعة فى أغلب الأحيان • وكان فرويد أول من ضرب المثل ، فقد افتتح المناقشة بإخبارنا عن أفكاره الجديدة ذات الأصالة عن عن طبيعة الهلوسات البارونية • وعندما شعر أنه محاط بأتباعه الخلصاء

تحدث بانطلاق آمنا من أن يســاء فهمه ، وبطريقته الطبيعية مســتخدما الكلمات الدقيقة النفادة ، فكانت كل جملة ذات مغزى أصيل ومرصــعة ترصيعا ثريا بملحوظات تنم عن روح الفكاهة والمفارقة ·

ولم يكن فرويد يقرأ من ورقة قط · وكان يصر على ذلك اصرارا ، غير مقيم حسابا لما يكون عليه عدد الجمهور من كثرة أو قلة ، وما اذا كانت المناسبة ذات طابع رسمى أو غير رسمى · فكان أثناء الاجتماعات التى عقدت فى فيينا يوقف كل محاضر يستخدم مخطوطا يقرأ منه الا فى حالة الرجوع اليه بين الحين والحين ليحصل على لمحة سريعة ينعش بها ذاكرته · وكثيرا ما قال ان الرجل الذى يقرأ من ورقة كلمة كلمة لهو أشبه بمضيف يدعو ضيفه للقيام بنزهة بالسيارة ثم يدخل السيارة ويترك الضيف يجرى خلفه · وأنى أستطيع اثبات هذه الحقيقة بفضل عديد الخبرات والملاحظات · فالتعبير عن الأفكار بالكلام عملية مستمرة الخلق فى كل حين لأنها نتيجة لبحث المتحدث باستمرار عن تعبيرات تناسب الموقف خيرا من غيرها ·· ولكن هذه العملية تنعدم عندما يتم الحديث بطريقة آلية · فالمعاونة فى هذا الفعل الابداعى تجذب انتباه كل فرد من أفراد الجمهور لأنه يضطر الى تقمص شخصية المتكلم ، والمشاركة فى متاعبه ومشاكله ـ أى قرن يعوم معه منتصرا متغلبا على التيار · ولكن الذى يقرأ مواجها مخطوطه لا جمهوره يبعد عنه مئات الأميال وسرعان ما يستسلم ، لأحلام يقظتهم أولئك الذين لا يهمهم الأمر عمليا · « وعندما يقف الطاحون ، يســتيقظ الطحان » · ويصفق الجمهور لما ظن أنه استمع اليه ·

وكان الحديث فى دائرتنا الصغيرة ينساب سلسا لما كان لدينا دائما من مادة تزيد عما تستطيع هذه الأيام القلائل استيعابه · واتماما للمتعة قمنا بزيارة جوسلر ، وهى قطعة من ألمانيا فى العصور الوسطى ، وكالبرشتات ، الشهيرة بكاتدرائيتها وقهوتها الرديئة ، وقد فاقت الأخيرة كل ما كنا نتوقع ، ثم ودع كل منا الآخر ، عائدين الى بيوتنا ·

وشارفت على النهاية قيادة فرويد الشــخصية للجماعة فى فيينــا ، وحضوره المؤتمرات السنوية للجمعية الدولية للتحليل النفسى ، بالاضافة الى رحلاتنا ومناقشاتنا · وقد جاء ذلك نتيجة لظهور مرضــه المشــئوم وتفاقمه وهو نمو قرحى (كارسنوما) داخل الفم · وفى ظل هذا الخطر الداهم المخيم علينا ، خيم الظلام على كل ضروب نشاطنا المشترك ، وعانت كل عــلاقاتنا المتبادلة وقيمها تغييرا · فقد بدأ من غير المعقول التحدث

بسهولة ويسر مع رجل يتطلع فى عينى الموت ، ولكن قوة ذهنه جعلت ذلك ممكنا • ورغم أنه لم يخامره أدنى وهم فى النهاية الزاحفة ، فأنه لم يتأثر اطلاقا بمدلولها • فظلت طاقته الذهنية واهتمامه العميق فى عمله ، وشغفه اللحوح بكل معرفة جديدة لا يعتكرها معكر • فكانت الساعات التى أقضيها معه مستمعا أو متحدثا ، هى المناسبات التى أكون فى خلالها أكثر استعدادا لنسيان مصيره • وظل محافظا على موقفه الشجاع ما ينيف عن عشر سنوات من العذاب المبرح ، دون أن يعتريه وهن حتى اللحظة الأخيرة •

لقد ظلت حيويته العارمة ، حتى ظهور الداء الوبيل ، لا يهون من مضائها التقدم فى العمر ، رغم مشارفته السبعين من سنيه • وكان هناك ما يبرر الأمل فى بلوغه شيخوخة ناضجة على سلامة جسم وصفاء ذهن ، فقد وضعته أمه — وهو بكريها — قبل ان تناهز العشرين ، وظلت على قيد الحياة لتشهد عيد ميلاده السبعينى • وبلغت من العمر الثالثة والتسعين وظلت حتى العام الأخير قبيل وفاتها تفيض صحة ومرحا ونشاطا • وكانت فى عيد ميلادها التسعينى موضع احتفاء عظيم فى ايشل ، وهو مصيف بجبال الألب النمساوية اعتادت التردد عليه بانتظام زهاء ثلاثين عاما • وعزفت لها فرقة المدينة التحايا ، وأكرم وفادتها العمدة والأعيان وحضر زائرون لا عداد لهم مقدمين التهنئات حاملين الهدايا • وعندما أرخى الليل سدوله قالت لها حفيدتها : « لا شك أنك متعبة للغاية يا جدتى » فسألتها السيدة العجوز مندهشة : « لماذا ؟ اننى لم أقم بأى عمل طول اليوم » •

وقد ذهب فرويد فى المساء السابق على عيد ميلاده السبعينى لزيارتها وتقبل تهنئاتها ، كى لا تضطر الى قطع الطريق الطويل من الضاحية التى تقطنها الى منزله • ولكن فى صباح اليوم التالى كانت أمه أول من قرع جرس الباب ، من الزائرين •

وغالبا ما حملتنا حيويتها الدافقة — وكانت حينذاك فى التسعين — على الابتسام ، ولكنها أصبحت ابتسامة مفعمة بالمرارة ، عندما عرفنا ان شيخوخة ابنها لن تماثل شيخوختها ، فقد كان ظل دائه الوبيل يخيم مقبضا على رؤوسنا ، حتى عندما بدا أن انتشاره قد أوقف لفترة من الوقت • وبالنسبة لاحتفالات أعياد الميلاد فأنى أعرف مدى ضآلة التقدير الذى كان فرويد يكنه لما دعاه كارل ستيلر — « عاطفيات النتيجة » — أى الرغبات الفجائية التى تنتج عن تاريخ معين مدون فى نتيجة بالنسبة لهذا اليوم •• فقد حدث ذات مرة ، فى سنوات أنضر شبابا ، ان كان على أن أقوم برحلة

اثناء حلول يوم عيد ميلاده (١٦ مايو) فطلب منى مشددا أن لا أرسل اليه أية تهنئات • ولكنى رغم هذا أبرقت اليه قائلا : (التهنئات الممنوعة أخلصها) ــ وقد اغتفر الأمر بابتسامة •

وفى هذه المناسبة ، أى عيد ميلاد فرويد السبعينى ، التقت البقية الباقية من جماعة « الخواتم السبعة » ايتنجتن ، وفرنشيزى ، وجونز ، وأنا ــ وذهبنا جماعة للنراه ، ولنحيطه علما ببعض الأمور الهامة لا لتهنئته فحسب ، وعقد فى المساء اجتماع خاص لجماعة فيينا للتحليل النفسى • ولاشك إنه كان اجتماعا من الاجتماعات الآخارى التى حضرها فرويد • وقد افتتح حديثه بالكلمات الآتية : « كثيرون من بينكم قد ارسلوا الى هدايا عيد الميلاد وانتهز هذه المناسبة لازجى لهم الشكر • وآثر آخرون أن لا يرسلوا هدايا ، وانى أقدر شعورهم وأشكرهم بالمثل »ولازلت أذكر هذه الكلمات جيدا لأنى كنت من الفريق الثانى •

وقبل عيد ميلاده السبعينى بوقت قصير اتيحت لى فرصة لأرى فى لحظة كخطف البرق عمق شعور فرويد يتكشف عاريا أمام عينى • واستطعت عندئذ أن أدرك بطريقة أفضل سبب كرهه للتصنع • فقد حدث انى قدمت فيينا بعد موت ابراهام ببضعة شهور وفى احدى زياراتى لبيت فرويد كان هناك عدد من الناس فانتحينا هو وأنا ركنا من الحجرة نناقش آمور التحليل النفسى فى برلين • وفى أثناء حديثنا ، سألنى فرويد برقة »وكيف حال ابراهام؟« وعندما تبين دهشتى تطلع الى وثمة تعبير فى عينيه جعل قلبى يرتجف وتمتم قائلا : (لازلت عاجزا باستمرار عن تصديق ذلك) ولم يحضر معه عيد ميلاده الخامس والسبعين التهنئات فحسب بل الاحتفالات والتهليلات كذلك ولكن كان الأثر الذى تركه بنفسى مقبضا • فكلما ازداد اسم فرويد تبجيلا وكثر عــــدد أولئك الذين يريدون عن احــــترامهم وأعجابهم تعبيرا عظمت اتساعا الهوة بين هذه الأمجاد الصاخبة وبين الرجل العجوز المعذب المعتزل الذى يواصل عمله رهين محبسه على عزم لا ينثنى ، بينما يرى الموت يزحف منه مقتربا لا يثنى وقد كان من المعروف أن فرويد ذا كلف بزهور الاوركيد ، فاهديت اليه زهور الاوركيد من كل الألوان والأنواع ملء عربات وازدحمت الحديقة المتواضعة حيث نجحت فراو بروفســور فرويد على مدى عديد السنين وبجهد لا يكل فى تنمية بضعة زهور منتقاة وزحفت بحشودها الى حجرة الاستقبال وحجرة الطعام • وأضحى جمال زهرات متوحدات لا معنى له مثله مثل اقحوانه فى مرج من مروج الربيع • ولا أظن أن فرويد قد أعارها التفاتا كبيرا ، فبعد يومين أو ثلاثة وجدت فى صندوق القمامة •• رمزا ملائما لشهرة تاتى متأخرة على تبذير وعدم تدبير •

وأصبح العالم « واعيا بفرويد » فأى شىء قرأت ، سواء كان مجلدا فلسفيا أو مجلسةوجدت ذكرا لاسمه، وسمعته يتردد فى الاجتماعات العلمية وعلى منصة الفودفيل • وسعى خيرة معاصريه وأشهرهم الى خطب وده مثل اينشتين ، وتوماس مان ، وروهان رولان • ووجد فى لواندريا سالومى صديق فريدرش نيتشه ورانير ماريا ريلكه اتباعا ، ومارى بونابرت فيما بعد ، أميرة اليونان ، التى جمعت بين الحدس النسوى وموهبة التفكير الصافى المستقل • ورغم كل هذا • كانت هذه السنوات سنوات وحدة وانعزال متزايد •

ولم تفد العملية الأولى الخارجية التى أجراها تلميذ فرويد السابق البروفسور هاجيك شيئا فى الحد من انتشار المرض الخبيث • فأستتدعى خيرة الخبراء وقرروا القيام بعملية جذرية ولزم ازالة جانب من عظمة الفك • ولم يعد الكلام والطعام ممكنين الا عن طريق بديل صناعى • وأخذ البروفسور بيشلر ، الأخصائى الشهير فى فيينا على عاتقه مسئولية العلاج وأطال حياة فرويد بضعة سنوات • ولست أعرف مهارته الفنية الا عن طريق شهرته ، ولكنى سمعت فرويد وعائلته يمتدحون مقدرته ورقته واخلاصه • ولما كان سطح الجرح الناجم عن العملية فى الجزء اللحمى من الفم يتغير بثبات ، كان من الضرورى أن يتغير الجزء المصطنع ويعاد تشكيله باستمرار ، ورغم أن كل هذا كان يسبب ألما مستمرا نتيجة لما يسببه من ضغط فان فرويد تحمله بشجاعة دون شكوى • ولكنه كان حساسا ازاء ما نجم عن ذلك من شوه فى حديثه جعله فى بعض الأحيان غير مفهوم • وتزايدت عادته فى العيش رهين العزلة ورغبته فى أن لا يرى أحدا عدا أصدقائه أو أولئك الذين يهمونه بوجه خاص علاوة على أفراد عائلته ومرضاه • كما كان يكره أن يكون موضع ملاحظة أثناء تناول طعامه فندرت الدعوات الى مائدته حيث كنت زائرا منتظما لسنين عديدة وأصبحت لا تقدم الا فى المناسبات •

ورغم انه احتفظ اسميا برياسته لجماعة فيينا الا أنه كان دائم التغيب عن الاجتماعات • لكن كانت هناك اجتماعات تعقد بمنزل فرويد كل أربع أسابيع أو ست كى يتعرف على رغبات الأعضاء الذين لم يريدوا أن يفقدوا الاتصال به كلية ، ويستدعى اليها جانبا من الأعضاء على حدة • وكان بعض المحللين من الجمعيات الأخرى يدعوة عادة كضيوف • وقد حضرت هناك مرات عديدة ووجدت هذه الاجتماعات ، حيث كان المحاضرون المنتقون يحاولون تقديم خير ما عندهم ، وكانت هذه الاجتماعات تبدو أكثر

تشويقا من اجتماعاتنا العادية • وكانت مناقشة فرويد للموضوع ضوءه الساطع • وأذكر خاصة مناسبة ألقى فيها الدكتور نونبرج محاضرة عميقة ولكنها نظرية للغاية • فأفتتح فرويد ملاحظـــاته بأن ذكرنا بلوحة ذائعة الصيت فى فيينا من عمل موريس فون شفيندت تمثل حادثة من أسطورة القديس فولجانج • تظهر الشيطان الذى أبرم مع القديس اتفاقا يقضى أن يمده بالحجارة اللازمة لبناء كنيسة (وقد خدع طبعا فى هذه الصـــفقة) فشرع الشيطان يدفع قدرا جسيما من الصخور ويكومها فوق بعضها البعض دون نظام • بينما يظهر القديس فى الخلفية من الصورة وهو يصـــلى فى محرابه هادىء النفس مرتاح الضمير • وقال فرويد : « وكان دورى هو دور الشيطان فقد كان على أن اقتلع الاحجار من محجرها وكنت أسـر عندما أنجح فى تكوينها كيفما أتفق حتى كونت شيئا يشبه البناء • لقد كان على أن أؤدى العمل السريع معجلا • والآن جاء دوركم ويمكنكم أن تتأملوا فى هدوء وتضعوا خطة لبناء متناسق ، وهو أمر لم تتح لى الفرصة لأدائه أبدا» • وكان هذا أسمى مديح • ولكن يكمن خلفه ظل من التهكم ، ذلك التهكم المعروف عن فرويد •

وحلت محل الصلات الانسانية التى لا تستقيم الا على ود واخلاص صلة من نوع جديد غير منتظر• لم يكن فرويد كلفا بالكلاب ، ولكنه أخبرنا كثيرا وبارتياح ظاهر عن كلب جميل يخص أحد المرضـــى الذين يترددون للتحليل ، كان يصحب صاحبه أثناء الســـاعة التى يستغرقها التحليل • وتحدث فرويد بأعجاب عن دقة هذا الكلب وذكائه قائلا : كان عندما يدخل الحجرة يتجه صوب مكانه المعتاد • ويقبع هناك دون أن يصدر عنه ما يزعج من صوت أو حركة • فاذا ما انتهت ساعة التحليل نهض فى موعده واقترب من المقعد وأتى من الحركة ما يمكن التعبير عنه بالكلمات التالية : « كفانا الآن هذا النوع من الأشياء • ودعنا نذهب من هنا » •

وكانت ابنته « انا » المكلفة بالكلاب تمتلك كلبا الزاســيا كبيرا يدعى رولف وكان ظريفا لطيفا لكنه ضخم بالنسبة لحجم البيت الصغير ، ولكن فرويد لم يحتج ضد صوته وضجيجه بل أصبح كلفا به غاية الكلف وأحب نبحاته التى كانت تسبب له من الازعاج قدرا ليس بالقليل • ثم قبل مضى وقت طويل أصبحت مارى ، أميرة اليونان (حفيدة لوسيان أخو نابليون) تلميذته وعاملة ممتازة فى مجال التحليل النفسى • ولما كانت زائرة دائمة لبيته وصديقة عائلته فقد سمعت ولا شك بقصة فرويد عن كلب المحلل أو لعل شعورها الدافىء ازاء كلبها ذلك الشعور الذى اسقطته على فرويد قد دفعها

الى أن تهديه كلبا • وكان ابناء ــ أو ابنة ــ الكلب التاتون الذى يخص الأميرة ويجمع فى سلوكه بين كبرياء النبيل وصفات رجل البلاط المصقولة • وأصبح فرويد شديد الكلف بالكلف وولديه ذوى العيون الصفراء ، والفمين القانيين ، منذ ذلك الحين نادرا ما رأيت فرويد بدون أحد كلبيه • وكان رغم آلامه يوليهما خلال حديثة بعض الالتفات ويلاحظهما بعناية وبرقة • ويشرف على طعامهما وشرابهما بنفسه ، ويلاعبهما كما اعتاد أن يلاعب خاتمه •

وعلى هذا النحو كانت تمضى السنون • وكل منها يضيف مزيدا الى العبء الثلاثى ، الشيخوخة ، والألم ، والتهديد بالموت الوشيك • ولقد خفف عنه ولا شك ما أحاطه به الملتفون حوله من عناية حانية ورعاية متفانية ، وخاصة ابنته الصغرى ولكن كان عمله الشىء الوحيد الذى لم يطرأ على موقفه منه أدنى تغيير وكذا موهبته على التفكير المتجدد المستقل، واصراره على التمييز بين الحقيقة والزيف • فقد كان ذلك جزءا لا يتجزأ منه مثل نفس الحياة الذى يتردد بين حناياه •

وكنت فى كل مرة أحضر فيها الى فيينا اتبين فى شخصه على ، مدى الزمن ، تغيرا طفيفا ، حتى استحال الرجل النصف الذى عاشرته طويلا شيخا ، حانيا ، شائها ، بائن التحول • ولكننى كنت أجد روحه قوية لم تهن منها السنون ، حرة من الموانع مثلما كانت من قبل •

وقد غادرت فى تلك الاثناء برلين وحططت رحالى فى بوسطن وأصبحت دون علم منى فى طليعة حركة نامية • وكان هتلر قد تسنم منكب السلطة قبل أن أغادر برلين بعام واحد وكنت اتطلع بقلق زائد الى السحابة السوداء التى خيمت على أوروبا ، لأنه اذا اتيح لها الوقت لتنتشر ، فستكون النمسا فريسته المنتظرة ، ولم تكن خطط هتلر عن الحرب والغزو سرا ، فقد أعلنها على رأس العالم ليسمعها جهرا • وكان السؤال المتواتر هو : هل يتاح له من الوقت فرصة لينفذ ما يهدد به وهل يباح له التصرف على حرية دون أن يكبح جماحه كابح ؟ وهل حانت اللحظة التى أضحت فيها الحضـــارة الأوروبية على شفا الانهيار والانحدار ، بعد أن اكتملت الدائرة ، مثلما حدث من انهيار الدولة الرومانية واندثارها ؟ •

ولم تكن هذه الأسئلة ماثلة فى ذهنى بنفس الوضوح الذى صارت اليه فيما بعد ولكنى كنت مثل كثيرين غيرى أشعر بوطأتها الشديدة • !

وقد واصل فرويد عمله خلال الاعياء ، وتحت نير الألم ، ورغم عبء الشيخوخة • وكان حينذاك يدرس المراحل المبكرة من تاريخ بنى اسرائيل، ويكتب كتابه الأخير : « موسى والوحدانية » وفيما هو منهمك فى هذا العمل بلغ عيد ميلاد الثمانينى (١٦ مايو ١٩٣٦) • ولم أتمكن فى تلك الأثناء من ترك عملى والعودة الى أوروبا ، بل كان على أن أنتظر الى أن يحين موعد اجازتى • فوصلت بعد شهرين من عيد ميلاده الثمانين الى أوروبا واتجهت الى فيينا مباشرة • وكان فرويد قد انتقل ليقضى الصيف بمنزل ذى حديقة كبيرة بضاحية من ضواحى المدينة وكانت فيمامضى قرية صغيرة تدعى جرينتسيج • وهناك كان جدى يملك منزلا كبيرا ذا حديقة واسعة وبستانا للكروم حيث قضيت كل أصياف طفولتى • وما من مكان فى الدنيا يثيرنى بعـــاطر الذكريات مثل ذلك المكان الذى أضـــفت اليه الآن ذكرى جديدة • ذكرى آخر لقاء لى بفرويد فى فيينا • وكان ذلك الرجل الذى لا يكل من السير ، كان يصعد السلم درجة درجة على اعياء وذلك ان صحت صحته وكان فى أوقات أخرى يتحرك مستقرا على كرسى ذى عجلات بينما أسير بجواره محدثا •

وقد تحدث الى عن عمله دون اطالة ، وأشـــار الى الأشـــياء المثيرة للاهتمام فى حديقته ، وسألنى عن حال التحليل النفسى فى الولايات المتحدة وعن وضعى الشخصى فى القطر الجديد • ولم يغير ثنائى على امريكا ، كما عرفتها ، من فتوره القديم نحوها •

وقد اخبرتنى عائلته بما تم فى عيد ميلاده • لقد أبقى فرويد نفسه رهين الوحدة ولم يشترك فى أى اجتماع عام ولم يســمح لأى زائر أقبل مهنئا بمقابلته ، عدا أفراد عائلته وأخلص أصدقائه • واطلعونى على الكلمات التى وجهت اليه من عدد غفير من « ممثلى » عصـــره ، ومنهم العلماء المدرسيون ، والفنانون ، ولكن شكلا من أشكال التكريم الذى تم فى حضرته، ترك فى نفوس الموجودين أثرا بعيدا • فقد قرأ توماس مان لفرويد وعائلته، وفى خصوصية مشـــددة ، الكلمة التى ألقاها فى الاجتماع العام تكريما لفرويد • (وقد نشر المقال فى حينه ، وهو الذى أشرت من قبل الى أنه خير ما وصف به فرويد عمقا وفهما) •

ثم اضطر فرويد فى صيف ١٩٣٦ ، أى فى مدى أقل من سنتين ، الىأن يغادر البلاد هاربا منفيا عن المكان الذى بدأ فيه عمل حياته وانجزه • ولم يكن من جراء ذلك منزعجا ولا مندهشا عندما وقعت الواقعة •



فرويد يراجع بروفات كتابه « موسى والوحدانية »

الفصـــل التاسع

الرحيـــــل

وقع المحذور المحظور الذى كان يلمح فى عالم الغيب المقدور : فقـــد زحف هتلر بجحافله واحتل النمسا ، ووقف العالم يشاهد ما يجرى من أحداث دون أن يحرك ساكنا • وعندما تبين النازيون ذلك ســــارعوا بالقاء كافة الضوابط والقيود ادراج الرياح وعمدوا من ساعتها الى اطلاق العنان لقسوتهم ، وأصبح الارهاب ، وهو الأثير الى قلوبهم دوما ، السلاح الذى يرتكزون عليه ، ولم تتعد ضروب الوحشية التى اقترفت خلال خمس سنين فى المانيا ــ وكانت تفوق كل حسبان ــ ماآتوه خلال الأيام القلائل الأولى من الاحتلال ثم أخذت فى التزايد بأستمرار •

لا شـــك ان جانبا كبيرا من هذا قد خططت معالمه من ، ولكنه نما بوفرة مذهلة فوق التربة الخصبة التى قدمتها فيينا • فقد فقدت المدينة العجوز صوابها اياما بل أسابيع ، وعاش أغلب سكانها فى حالة من النشوة الزائدة ، فكأن الهواء الذى يتنفسونه يثملهم • (وهذا قائم على وصف أكثر من شاهد عيان موثوق به) •

ولم يكن السبب الحقيقى لهذه النشوة العامة الحماســة السياسية والعداء لليهود • فهو لايمكن أن يدركه الا من يعرف ماتعنيه الكلمة «Hetz» بالنسبة للذهن الفينوى • (الكلمة مثل اغلب التعبيرات المحلية غير قابلة للترجمة ، ولعل النشوة الثائرة أدنى ماتكون الى معناها) • كانت حينذاك مرغوبة أكثر منها فى أى وقت آخر • اذ لم يحدث شىء منذ سنين ــ منذ نهاية الازمة الاقتصادية ــ لوضعحد للضنك العام المتزايد والبطالة • ولم يخفف من وطأة الأزمة شىء من الدراما ، فلم يكن لها من السمات شىء غير الامحال والقنوط • وهاهو ذا التغيير الفجائى قد حدث : فـانطلقت وعود النازى ودعايته الآمال من كل عقال ، وخلع التعصب على كل ماحدث

ألوانا زاهية براقة ، وخير من هذا كله ، أن عرضت المشاهد المثيرة فى كل مكان مجانا • فها هنا عرض عسكرى مشوق وهناك مظاهرة سياسية روعاء ، وبركن من شارع تمتهن امرأة حسنة الرداء ، وبركن آخر كاهن ملتح وقور يعرض لايذاء الغوغاء • وكان كل هذا مسليا بالنسبة لأولئك الذين لا يأبهون لما يسببه مشهد من هذه المشاهد من عذاب ولا يتكلفون عناء التفكير فيما سينتج عنه من نتائج محتومة الوقوع •

وكان وضع فرويد قبل ان تقع الواقعة يعتبر بالغ الخطورة اذ قام النازيون بغزو البلاد ، فقد أحرقت كتبه رسميا فى برلين ، وكان اسمه فى مقدمة قائمة الاتهام • وقد عرضت عليه جهات عديدة عروضا لادارة مستشفى للأمراض العقلية ، مستقرا آمنا فى بلد أكثر حماية ولكنه رفض قبولها بأصرار • وقرر ان يبقى ويدخل فى التجربة • ثم سلك سلوكه المميز بعد أن اتخذ هذا القرار : رفض أن يدع نفسه نهبا للقيل والقال وتضارب الآراء ونأى بأفكاره عن الموضوع • كان قراره ضربة لازب لا راد له وارتد عاكفا على عمله •

فى الأيام الأولى لوقوع الرزيئة النكباء لم يكن فى الامكان الوصول الى شيء غير الشائعات الغامضة المتضاربة • كما اننى كنت مشغول البال بخصوص أقربائى دائم الانشغال بأن أكون معهم على اتصال عسائى استطيع تنجيتهم عندما تواتى الحال • ولم يهون من قلقى عرفانى بأنهم اناس ودعاء ورعاء ومن الميول السياسية براء • فقد بينت أولى التقارير ان الاضطهاد استشرى على عماء يصيب الجميع على السواء • فقد كان بين أقاربى الأبعدين صبى تخلف جسما وعقلا ، أنتزع من أحضان والديه، وهو طفلهم الوحيد ، وبعد مضى أيام قلائل تلقيا بطاقة بريدية تعلنهم ان الصبى قضى نحبه • ولم يعرفا أبدا ما اذا كان قد أغتيل أو لفظ أنفاسه من الرعب ، واقتحمت فرق العاصمة بيوت من أخذوهم بالشبهات ، وسلبوا من الأثرياء النقود والجواهر ، نهبوا من الفقراء زادهم القليل • وكان حظ بعض اصدقائى ومعارفى القدماء الاغتيال أو الزوال فى معسكرات الاعتقال ، وكانوا جميعا ، بلا استثناء ، أشخاصا أسوياء لا يخطر صدور الضر عنهم ببال ، انتزعوا من متاجرهم ومكاتبهم أو أعمالهم وما عرفوا لا هم ولا جلادوهم بأى ذنب يعذبون •

وخلال هذه القلاقل حاولت عبثا أن أتحرى عن فرويد وما جرى له صباح الأنباء • وقد حصلت على أول نبأ هدأ من أسوأ مخاوفى بفضل

دكتور ميريل مور الذى أبان فى هذه المناسبات وفى أخريات تعن أنه خير صديق ان حل الضيق وادلهمت الملمات • فقد جعلنى على اتصال برجل طيب يعمل بالاسوشيتدبرس استطاع أن يؤكد لى مرارا سلامة فرويد الشخصية من كل سوء • وبعد أسابيع قلائل عرفت المعالم العامة للاحداث خلال أشد الأوقات حرجا • أما التفاصيل الجوهرية الخاصة بفرويد فقد أحطت بها علما بعد انقضاء أكثر من عام ، أثناء اقامتى بلندن بفضل أفراد اسرته •

عندما تواترت الأنباء حضر الى فيينا على جناح الطير ارنست جونز من لندن كما حضرت مارى ، أميرة اليونان ، من باريس • وقد كون هذان بالاضافة الى السيدة دورثى برمنجهام التى عاشت فى فيينا ، كعضو فى أسرة فرويد ، نوعا من الحرس الشخصى وقد استخدم هولاء نفوذهم لدى ممثلى بلادهم الدبلوماسيين ، ولكن لما كان فرويد مواطنا نمساويا لم يستطع هؤلاء القناصل ومبعوثو البلاد الأجنبية أن يفرضوا حمايتهم الرسمية • ولكن احتمال تدخل أحد أعضاء هذه السفارات — أن اقتضت الحال — حال دون وقوع الأحداث الجسام • فلم يكن الوقت بعد أمام النازيين كى يثيروا أزمات دولية • وعلى هذا النحو جنب فرويد الاهانات والامتهانات الشخصية التى انصبت على الألوف من شيوخ الرجال والنساء المستضعفين فى الأرض بقصد تلقين الجيل الجديد مشهدا شائقا ومثالا يحتذى •

وفى أيام الروع والانهيار هذه عندما امتنع على فرويد علاج مرضاه عكف بكليته على عمل من نوع آخر • فقد استغرق فى ترجمة كتاب صغير من تأليف الأميرة مارى عنوانه « توبسى Topsy » تصف فيه موقفها المتغير ، وعطفها وحدبها المتزايد على كلب من كلابها كان يعانى قرحة فى الفم ثم أنقذ من الموت بفضل عملية ناجحة •

وبينما كان فرويد مستغرقا فى هذا العمل ، الذى يروى خمود الحياة ثم بعثها ، جنبت فراوبرفسور بفضل حذقها فرويد وعائلته بعض المنغصات • فقد حدث أن اقتحم أفراد من فرق العاصفة الطابق الذى يقطنه فحييتهم السيدة العجوز البائنة النحول بأدب ودعتهم الى الجلوس بطريقة اشاعت الاضطراب فى نفوسهم بعض الشىء — وكان هذا أمرا نادرا منهم فى تلك الايام — فنسوا فى ربكتهم نهب الفضيات وغيرها مما خف حمله وغلا ثمنه • بل نسوا كذلك أن يشرعوا فى تحطيم الأثاث وتمزيق السجاجيد نثائر مثلما فعلوا فى بيوت أخرى كثيرة • واكتفوا بدلا من ذلك بطلب

خمسة آلاف شلن (عملة نمساوية) نقداً • فذهبت فراوبروفسور الى مكتب زوجها وعندما اخبرته أن بعض فرق العاصفة بالخارج يطلبون خمسة آلاف شلن رفع رأسه لحظة عن عمله وقال : « لم يدفع لى أحد فى زيارة واحدة كل هذا » • وقد دفعت النقود وصرفت الرجال •

وفى نفس الوقت استمرت المساعى للحصول على تصريح بمغادرة البلاد فقد دعت الحكومة الانجليزية فرويد للاقامة بانجلترا ، الى أن صدر الاذن بذلك آخر الأمر دون كبير عناء • وقد صادر النازيون بطبيعة الحال كل ما طالته أيديهم • فاستولوا على دار النشر الخاصة بالتحليل النفسى والمعهد والعيادة ، وكل ماصادفوه فى طريقهم • ونجحت الاميرة مارى فى أن تسترد مجموعات فرويد من التحف ومكتبته اللتين صاحبتاه الى انجلترا ، مقابل التضحية بمبلغ كبير • أما الكتب التى صدرت عن دار النشر فقد صدر الأمر بابادتها • وليت الأمر اقتصر على ذلك ، فقد نزع النازيون الى اظهار الروح الحقة لسفالتهم ، ومقدرتهم الفريدة على سوء استخدام السلطة فأستدعيت انا وفرويد بادىء الامر الى ثكنات الجستابو وعرضت لاستجوابات دامت ساعات عديدة بقصد الحصول على اقرار منها عن كيفية تهريب النقود خارج البلاد أو اخفائها • ولما لم تجدهم هذه المحاولات شيئا ، لجأ النازيون الى آخر عمل يدل على الضعة والنزوع الى التخريب • ذلك أن دكتور مارتن فرويد ، وهو الابن الأكبر لفرويد ، الذى رأس دار النشر فترة من الوقت كان قد احتاط للظروف وأرسل جانبا من مجلدات الأعمال الكاملة التى تمثل خير ما أنتجت الدار الى سويسرا لتحفظ فى مخزن هناك تحت حماية دولة محايدة • فكرمت السلطات النازية فرويد بقرارها انه لن يسمح له أو لابنه بعبور الحدود الا اذا أحضر هذه الكتب الى فيينا على نفقته الخاصة لكى تحرق فحسب ، تحت اشراف المسئولين • ولم ياذنوا له فى الرحيل الا بعد أن أجبروه على أن يساعدهم فى القضاء على آخر أثر لنشاطه العلمى • وقد احرقت الكتب ، وحلت الجماعة ، وصودرت المقتنيات والمدخرات ، وانفرط عقد الاتباع وانتهى كل شىء • أو هذا ما خطر ببالهم على الأقل •

وعندما حل فرويد بباريس قدم لتحيته سفير امريكا لدى فرنسا ، واستقبل فى انجلترا بمزيد الترحاب • كما استقبله المسئولون الرسميون والمعاهد العلمية بالاحترام والتوقير • واطنبت الصحف فى الحديث عنه لدى وصوله • ولكنه سرعان مانأى بنفسه عن كل هذا وعاد الى وجوده – أعنى الى عمله – بنفس الطريقة المثابرة الدؤوب التى عهدت منه كـان

امرا جللا لم يحدث فنقله من رقم ١٩ شارع برجشتراسـه الى رقم ٢٠ مارسفيلد جاردنر ٠

وعندما اتيحت لى الفرصة لاستأنف مراسلاتى معه وقد انتهزتهـا دونما امهال رغم ان رسائلى غالبا ما كانت على ندرة وتباعد ٠ ولم يكن الكسل هو الباعث على ذلك ، بل ضميرى ٠ فقد كنت أعرف أن مراسلاته تستغرق جانبا من وقته ليس باليسير ، كما كنت أعرف نتيجة التجربة أنه يجيب على كل خطاب يتلقاه فى الحال ٠ ولذا لم أكن أكتب اليه الا اذا رغبت اطلاعه على أمر على قدر من الأهمية أو استطلاعه بشأنه ٠ وكان الباعث الأقل وضوحا هو ابائى الاندماج فى زمرة أولئك الذين يحاولون أن يقتحموا عليه خلوته ـ وهو ما منعنى من أن أكون فى عداد أولئك الذين شعروا انم ملزمون او مخولون حـق تقديم هدية اليـه فى عيد ميلاده السبعينى (وقد قدمت اليه بدلا من ذلك فى زيارتى لفيينا تمثالا صغيرا لاله الأسرة ، أحضرته من جواتيمالا) ٠

ثم اعلنت فرويد بخطتى فى العودة الى اصدار مجلة ايماجو التى تبنيتها فى فيينا زهاء ثلاثين عاما وخامرتنى الرغبة فى اعادتها الى الحياة ، هنا فى هذا البلد ، كمجلة دورية باللغة الانجليزية ٠ فأجابنى بخطاب فى ١١ يولية ١٩٣٨ : «ان خطتك الهادفة الى اصدار ايماجو جديدة باللغة الانجليزية لم تقع من نفسى بادىء الأمر موقع الرضى ٠ وكـان السبب هو اننا قد عقدنا العزم على ألا ندع الضوء يخبو فى المانيا تماما ، وفى نطـاق هـذا الغرض قررنا أن نلتمس مسـاعدة دار نشـر محـايدة أو انجـليزية تقـوم بنشـر دورية جـديدة كوريثـة للدوريتين اللتين انقرضـتا مع الاحتفـاظ بعنوانيهمـا على صـفحة الغلاف ٠ فلم يبد لى عمليا خلق أخت جديدة اسمها ايماجو تمنع الرى عن مجلتنا ، أو تمتص لبنهما بعبارة أصح ٠ ولكن الآخرين « يعنى أنا فرويد وارنست جونز » وقفا من رأيى هذا موقف المعارضـة ، فلم يفكرا كثيرا فيما نجم من خطر وأكدا أهمية دورية جديدة فى بلدك يلتقى على صفحاتها أصدقاء التحليل النفسى ٠ وعلى هذا فقـد سحبت اعتراضى وأبديت أسفى مقترحا أن تدعى دوريتك « امريكان ايماجو » معلنا مؤازرتى لمشروعنا الجديد ٠ وانى لعلى استعداد لأن اقبل رئاسة تحريرها واتمنى أن أتمكن من تقديم المزيد ٠٠٠٠٠ » ٠

وقد صار هذا الخطاب حجر الأسـاس بالنسبة للامريكان ايماجـو ، وصدر العدد الأول منها فى نوفمبر ١٩٣٩ ٠

وكان خطاب فرويد التالى المؤرخ فى أغسطس ١٩٣٨ ، تعبيرا عن استجابته لمخطوط مقال لى عنوانه « القسط فى قسط بقسط » . وقال عنه « خير كل ما قرأت من كتاباتك » وأضاف مزيدا من الثناء الخاص بالمقال .

أما خطابه الثالث والأخير (١٢ مارس ١٩٣٩) فليس التعليق عليه بلازم أو ميسور وذا جانب منــه « دهشت اذ وجدت فى الكوم المتجمــع على مكتبى ، خطابا منك مؤرخا فى ١٣ فبراير . ولست أدرى ماذا كنت قد خمنت السبب الحقيقى لسكرتى أم لا ، ولكنى أشعر على أية حال بأنى مضطر الى تأييد ظنك وايضاحه » .

« حقيقة الأمر هى انى أعانى آلاما متواصلة منذ أن أجريت عمليتى فى شهر سبتمبر ، آلاما فى الفك لم تنقطع بعد أن أنتزع جزء من العظم . خلاصة القول ، الأبحاث العديدة أثبتت هى أن مرضى القديم قد عاودنى وكان العلاج الذى استقر عليه الاجماع يقوم على الجمع بين أشعة اكس من الخارج والراديوم من الداخل ، وأنه على أقل تقدير أخف وطأة من حز عنقى وهو البديل الذى لا يوجد سواه عن هذا العلاج الذى يعد بأطالة حياتىبضعة أسابيع أوبضعة شهور . ويأمل الأطباء منعلاجهم امكان الوصول الى فائدة مجدية . على أية حال لست أخدع نفسى فى احتمالات النتيجة النهائية لمن هو فى مثل سنى . فأنى أشعر بالتعب والاعياء نتيجة لما فعلوه بى وهو مثل غيره من وسائل فى التأدى الى النهاية التى لا مفر منها ، **ورغم انى ما كنت لاختاره بنفسى** .

« ان كتاب موسى » ، وقد طبعه بالألمانية الرت دى لانج ، رأى النور اليوم فى نسختين .وأعتقد انها طبعة جيدة . وقد حصلت الأميرة مارى التى تقيم معنا على احداهما .

« وتعتقد أننا ونشاركها اعتقادها ، ان العنوان « أمريكان ايماجو بالنسبة لدوريتك المبعوثة من جديد لا غبار عليه .

« انى أهنئك على التئام شملك وعائلتك وأحييك بنفس الود المعهود »

وعندما تمكنت بعد أربعة شهور من هذا الخطاب ، أى فى يولية ١٩٣٩ من تحقيق رغبتى القصوى والقيام برحلة الى انجلترا ، لم أكن قرير النفس ولا متفائلا ، ولكن اتضح أن الواقع أشد تثبيطا للهمة مما كان منتظرا . **ورغم كل هذا . فانها احدى الذكريات الغاليات فى حياتى .**

كنت اعرف انى ذاهب الى آخر لقاء لى بفرويد – وباوربا . فقد كانت سحب الحرب تخيم قريبة من رؤوسنا فى تلك الأيام حتى انه فى امريكا كان كافة الذين لا يغمضون عيونهم متعمدين يشعرون بالعاصفة الزاحفة. ولم يكن يخامرنى ادنى شك فى وقوع كلا الحدثين المؤسفين المتواترين ، أى الحرب والدمار . ولكن الدهشة الكبرى – والمضايقة – كانت فى ذلك الموقف المستخف المخادع للذات الذى لقيته فى انجلترا . وفوق هذا كله كاد لى مناخ لندن كيده المعهود . فكان بالنسبة لى باعثا قويا على تذكر التهابى الرئوى القديم واضطررت الى التزام الفراش بعض الوقت بأحد الفندق وقضاء اسبوع او اسبوعين فى الريف . وفى القطار الذى اقلنا من بلايموث الى لندن كانت الستائر مسدلة والمدينة غارقة فى ظلام دامس، فقد كانت ليلة من الليالى التى تختبر فيها قدرة المدينة ازاء الغارات. وحول لندن من جميع الجهات كانت المناطيد المانعة تطفو على اسلاكها الفولاذية. وكان فى هايد پارك مدفع هائل مضد للطائرات تتجه فوهته أسوب السماء متحدية ولكن كان الأمر المثير للدهشة أن هذه الارهاصات بوقوع كارثة رهيبة ما كانت تؤخذ ماخذ الجد – أو ، لكى يكون المرء منصفا ، كان هناك شعور بأهميتها ولكنها كانت تعتبر أمرا مزعجا لا مفر منه ، يلزم تحمله الى أن تعود الظروف لمجراها الطبيعى . وكان الناس يتحدثون عن الحرب كما يتحدثون عن زيارة الى طبيب الأسنان : أى أنها أمر لا يسر قد يسبب قدرا من الألم ولكن ما باليد حيلة وسيزول سريعا . حتى ليخيل الى المرء أن ذلك الولع الانجليزى بالبرود – ان أمكن التحدث عن الولع بقتل الاهواء – قد حال دون تبصرهم بحقيقة الحال .

كما كشفت بعض الاجراءات الوقائية حتى لعين المشاهد القادم لأول مرة عن نفس الظاهرة الغريبة . فقد شاهدت بحديقة فندق فى اسكوت والذى قضيت به فترة مرضى خندقا بمنتصف الحديقة يبلغ عمقه ثلاثة اقدام واساعه أربعة اقدام ، يسرى فى خط معرج لا أول ولا آخر له . وعندما سألتهم عما يمكن أن يعنيه هذا الخندق أجابونى بأنه الدفاع الحربى ضد الغزو ، وقد أجرى تنفيذه بحسب نصيحة المسئولين . كما شاهد تفى لندن بعض المخابىء الأولى التى شيدت للوقاية من الغارات الجوية ولكن أحد الأصدقاء الذين خبروا كيفية القاء القنابل اثناء الحرب العالمية الأولى أكد لى ما احسست به عندما أخبرنى أنه يفضل فى حالة حدوث غارة جوية اكثر المواقع تعرضا للقنابل على الوقوع فى شرك واحدة من هذه المصائد البشرية .

وليس معنى هذا ان تحمل هذه الملاحظات محمل النقد لكفاءة الانجليز ومقدرتهم ، فما ذكرتها هنا الا لأبين ذلك الشعور الذى تملكنى ولم تستطع المشاهد الطبيعية الانجليزية أن تحررنى منه · فقد تبينت بجلاء ما جعل دمائى تقشعر ان العقلية الانجليزية لم تكن تعى ماهية الحرب ، ولذا فهى عاجزة عن أن تتبين مقدما حقيقتها · كان الناس يعرفون أن الحرب قد فرضت عليهم ولكنهم لم يدركوا ولا أرادوا أن يدركوا معنى الحرب الخاطفة بينما انكب الالمان من جهة أخرى على هذا العمل بكل مالديهم من طاقة وبطريقة تتفق مع عقليتهم التى تستهدف السيادة مستمدين لذة من تكريس كل قواهم فى سبيل كل تفصيلة من تفاصيل الحرب ·

وكان الجو المحيط بفرويد مشابها للجو المحيط بهذا البلد الذى تتهدده الحرب · فكل شىء حوله يلوح مسودا بالسلام منعما بالهدوء · كان المنزل مريحا حسن التهوية وتفضل حجراته كثيرا عن حجرات صنوه بفيينا·· وكانت حديقته متوسطة الاتساع اقيم بمنتصفها حوض للزهور وأشجار عتيقة تحف بالجدران · وكانت أنا فرويد قد واصلت عملهـا فى تحاليل الأطفال · واستطعت أثناء حضورى أحد الاجتماعات أن أتبين أن المستوى العلمى لا يقل عن المستوى العلمى بفيينا · ولكن خلف هذا الغشاء الرقيق من المظاهر الخارجية تتضح الحقيقة المروعة ، حقيقة وجود الألم الذى لا ينقطع والعذاب الذى لا يفتر ، حقيقة تتحيز الى جانب الموت ، الا أن موقف فرويد ازاء الموت الزاحف كان يختلف فى نقطة واحدة عن الموقف العام ازاء الحرب الوشيكة الوقوع · فقد رفض فرويد حينذاك كما بين فى خطابه ، أن يتخفف من عبئه بخداع ذاته أو بالجهل الارادى · فقابل قدره على ثبات ورسوخ دون أية محاولة ليضفى على ذاته مظهرا دراميا جاعلا من الانفعال ملجأ له ·

كنت طوال اقامتى بلندن اتردد على منزله يوميا ، وكانت تانت مينا ــ وقد قضت نحبها سريعا ــ قد فقدت بصرها تقريبا وتستخدم عصا لتقود خطاها من حجرة الاستقبال الى السقيفة ، ولكن حديثها كان لايزال مشوبا ببعض الاهتمام بفونتان وقد أخبرتنى وفراوبروفسور بعض القصص عن حالة فيينا بعد الغزو وقد اكسبت طريقتها الهادئة الحازمة فى الحديث هذه الأعمال وحشية تفوق الخيال ·

وقد رأيت فرويد نفسه مرارا ، ولكن لفترة قصيرة من الوقت · وقد علمت ان آلام فمه تحول بينه وبين النوم أثناء الليل · وكان يغفو من حين لآخر نصف ساعة أو نحوها على فراش متحرك · وكان يبدو مريضا أشد

المرض ، وعجوزا الى حد لا يعقل . وكان من الواضح أن اية كلمة ينطق بها أن هى الا على حساب صحته وعلى حساب جهد أكبر من طاقته . ولكن كل هذه الصنوف من البلاء لم تهن من عزيمته المضاء فقد تبينت أنه لازيال يحافظ على ساعات عمله التحليلى كلما خفف عنه الألم وطأته وأنه لايزال يكتب خطاباته بخط يده كلما واتته على الامساك بالقلم قدرته .

وقد حادثنى ذات مرة عن حالة التحليل النفسى بأمريكا وتبينت بمزيد الدهشة أنه لايزال يحافظ على معرفة كل شىء عنه مثلما كانت حاله منذ ثلاثين سنة خلت فقد ناقش المشاكل والشخصيات المرتبطة بحركة التحليل النفسى فى أمريكا على دراية بكافة التفاصيل .

وكنا أغلب الوقت الذى قضيناه سويا ـ مع العائلة والأميرة مارى التى كانت ضيفهم الدائم ـ نجلس بركن من الحديقة ونتطلع صوب حوض الزهور حيث استقر فرويد بجواره يروح أحيانا فى اغفاءة خفيفة أو يداعب كلبه الذى لم يترك جانبه دقيقة ولكنى لم أسمعه مرة واحدة يشكو ، فما من أنة أو نأمة أسف ندت عن شفتيه .

ثم حانت ساعة الرحيل . ولما كنت أعرف شـــعوره ازاء المواقف الانفعالية فانى لم أقل غير بضعة كلمات عابرة عن رحلتى وبعض مهام التحليل النفسى التى تنتظرنى حين عودتى . فقال هو يشـد على يدى: « اننى أعرف أن لى على الأقل صديقا واحدا فى أمريكا » .

وكانت هذه آخر كلمات سمعتها من شفتيه .

مؤلفـــات

دراسات أدبية :

١ ـ ميخائيل نعيمه ، حياه الروحية

٢ ـ اريك ماريا رمارك ، صباح الانسان والايديولوجية

٣ ـ اينياتسيو سيلونى ، المحنة والخلاص

٤ ـ ارثر كويستلر من الايديولوجية الى المطلق

٥ ـ العبقرية ومشكلات العصر

فى الدراســـات الحضـــارية :

١ ـ المطلق والايديولوجية أو ثورة الروح وثورة الجماهير

٢ ـ محنة جيلنا أو همجية العصور الحديثة

فى الـــــرواية :

١ ـ مدرسة الرعب

٢ ـ النبيل والرعاع

فى الشــــعر :

١ ـ كليلة ودمنة الصوفية

أعمال أخرى للمترجم

ترجمـــــات :

١ ـ مخلوقات كانت رجالا لمكسيم جوركى

٢ ـ فى معترك الحياة لمكسيم جوركى

٣ ـ نذير العاصفة لمكسيم جوركى

٤ ـ الأشـــــرار لمكسيم جوركى

فى المســــرح :

١ ـ زيارة السيدة العجوز ديرنمات

٢ ـ زواج السيد مسيسبى ديرنمات

٣ ـ عوارندو دريدرش شيللر

٤ ـ الســـاجون جوهارت هويتمان

فى علم النفس :

١ ـ اللاشعور اللابداعى هانز ساكس

٢ ـ فرويد استاذى وصديقى هانز ساكس

رقم الايداع ٨٥/٥٣٣١

الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٧١٦ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرويد استاذى وصديقى

مؤلف هذا الكتاب أديب فنان .. شده الى علم النفس قصد استكشاف ينابيع الأدب والفن فى النفس البشرية .. حتى أصبح علما من أعلام الطب النفسى والعقلى فى العالم .

وقد عاشر أستاذه وصديقه « فرويد » فى فينا ، زهاء نصف قرن ، معاشرة الصديق الحميم ، والتلميذ التابع المقيم ، فشاهد « فرويد » فى مختلف مواقفه العلمية والعملية .

١٥٠ قرشا